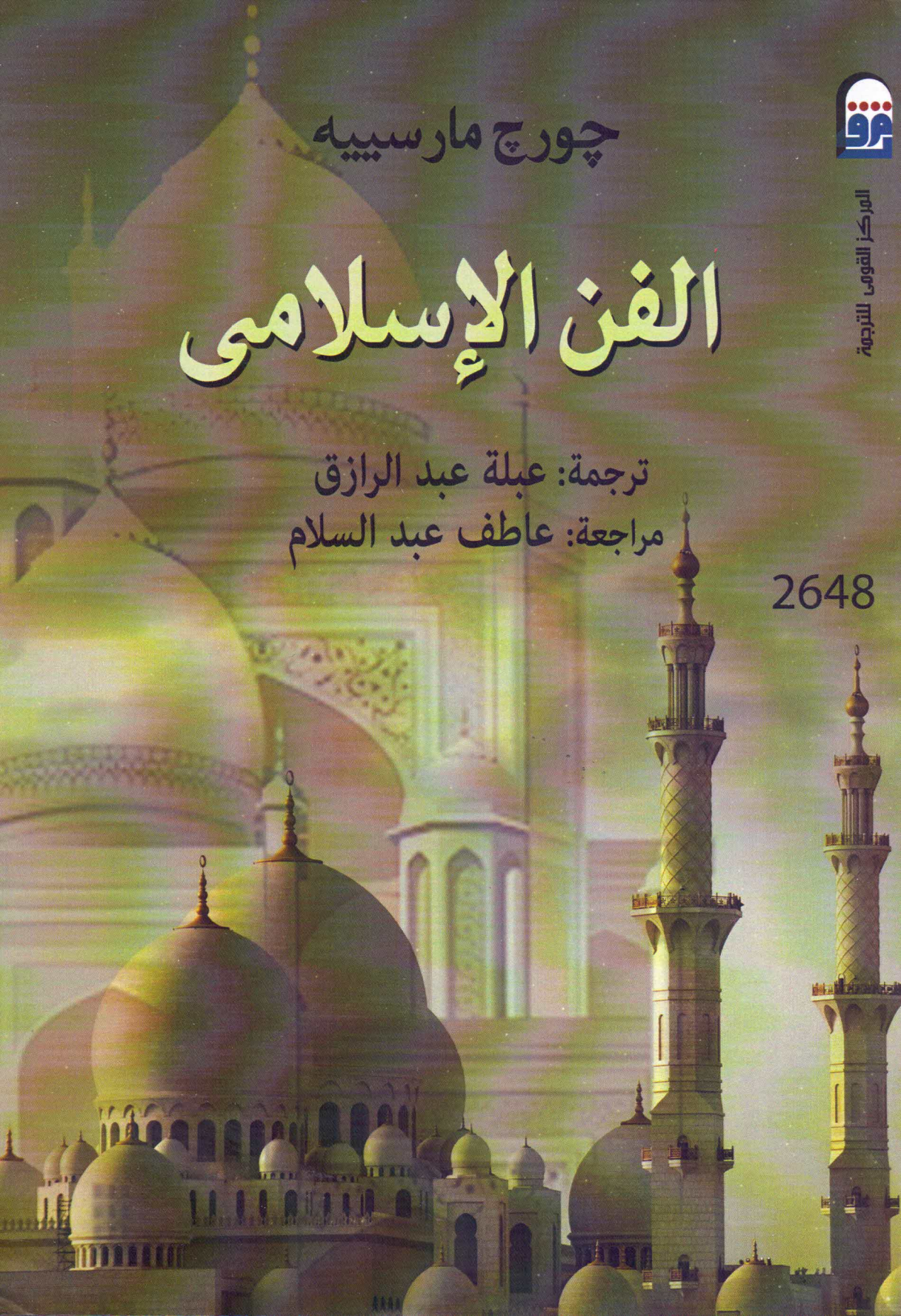


چورچ مارسييه

الفن الإسلامي

ترجمة: عبلة عبد الرازق
مراجعة: عاطف عبد السلام

2648



لقد عرف العالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأخيرة تطوراً فريداً من نوعه؛ فإذا ما استثنينا إسبانيا المدججة جانباً حيث استمر الفن المورسكي في انتشاره، كما حافظت بلاد المغرب على استقلالها محاولة تحقيق حلمها القديم واسترجاع عصرها الذهبي.

وقد ساعد ظهور بعض الظروف التاريخية العرضية في تغيير مسار الأحداث؛ فقد استقر الأتراك في القسطنطينية ومدوا هيمنتهم مما أعاد للشرق جاذبيته مرة أخرى ليصبح مركز الثقل في العالم، ولم تعد السلطة الروحانية التي تشع بطرزها المعمارية تنبثق من المدينة ودمشق وبغداد بل عادت لمسقط رأسها القديم أي العالم البيزنطي: القسطنطينية، وبعض المدن المجاورة لأوروبا وآسيا الصغرى وسالونيك وبروسه.

ومن أبرز التأثيرات المعمارية بناء المساجد ذى القبة الكبيرة في مصر، وتونس والجزائر المستمدة من عمارة سان صوفي وبعض المنشآت الأخرى المماثلة. وليس بمحض الصدفة أن يستشف الإسلام منذ تسعة قرون بعض نسقه المعمارية من البازيليكا المسيحية، وهى البواكي الموازية لجدار القبلة لإقامة شعائر الصلاة ليعود مرة أخرى للكنائس التي شيدت في عصر الإمبراطور جستينيان ليستمد نسقاً جديدة منها تتوافق مع إقامة شعائره الدينية.

الفن الإسلامي

المركز القومي للترجمة

تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2648
- الفن الإسلامي
- جورج مارسويه
- عبلة عبد الرازق
- عاطف عبد السلام
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

L'art musulman

Par: Georges Marçais

Copyright © Presses Universitaires de France, 1962

Arabic Translation © 2016, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الفن الإسلامي

تأليف: جورج مارسليه

ترجمة: عبلة عبد الرازق

مراجعة: عاطف عبد السلام



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مارسييه، جورج
الفن الإسلامي، تأليف: جورج مارسبييه؛ ترجمة: عبلة
عبد الرازق على، مراجعة: عاطف عبد السلام
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٣٤٤ ص، ٢٤ سم
١ - الفن الإسلامي
(أ) على، عبلة عبد الرازق (مترجمة)
(ب) عبد السلام، عاطف (مراجع)
(ج) العنوان
٧٠٩،١

رقم الإيداع ٢٠١٤ / ١٧٣٥١
الترقيم الدولي: 0 - 834 - 718 - 977 - 978 - I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم،
ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	المقدمة: الملامح والخصائص الرئيسية للفن الإسلامى
19	تقسيمات الفن الإسلامى

الجزء الأول

العالم الإسلامى الموحد

31	الفصل الأول : الفن الأموى فى سوريا
51	الفصل الثانى : الفن العباسى
71	الفصل الثالث: الفن المصرى
79	الفصل الرابع: فن إفريقية
92	خلاصة

الجزء الثانى

الخلافاة الثلاثة المتنافسة

97	الفصل الأول: الفن الإيرانى
111	الفصل الثانى: الفن الفاطمى
141	الفصل الثالث: الفن الإشبانى والمغربى
167	خلاصة

الجزء الثالث

إرث الخلفاء الثلاثة

175 الفصل الأول: الفن الإيراني
193 الفصل الثاني: الفن المصري والسوري
217 الفصل الثالث: الفن الإسباني والمغربي
239 خلاصة

الجزء الرابع

العالم الإيراني والهيمنة التركية

245 الفصل الأول : الفن الإيراني
257 فن بلاد الهند المسلمة
265 الفصل الثاني: فن بلاد الأتراك
289 الفصل الثالث: الفن المدجن والفن المغربي
305 الخلاصة
309 قائمة الرسومات
319 المراجع

المقدمة

الملاح والخصائص الرئيسية للفن الإسلامى

تخيل أن تجد أمامك ساعة من الفراغ لتستمتع بها بعيدًا عن العمل فتقع يدك على بعض الصور والأوراق الجميلة فتقوم بطى الورقة تلو الأخرى لتجد سلسلة من الأعمال المستوحاة من شتى الفنون المتباينة، فمن التماثيل الإغريقية إلى التصاویر الجدارية المأخوذة من بعض المقابر المصرية، ثم البارافان الموشاة بالأسلوب اليابانى ذى النحت البارز المستمد من المعابد الهندوسية، فتستهويك المشاهدة، فتقلب الأوراق لتقع عينك على إحدى اللوح الجصية المنحوتة والمجلوبة من إحدى قاعات قصر الحمراء، ثم ورقة من القرآن الكريم من مصر، إلى إحدى الزخارف المنقوشة على حوض من النحاس الفارسى.

وإن لم يكن القارئ ملماً بالثقافات والمعارف فى النواحي الفنية، فإنه سوف يتعرف على الأنماط الثلاثة الأخيرة وانتمائها للفن الإسلامى، مع صعوبة تحديد بلد المنشأ والطرز السائدة فيها.

وخلاصة هذه التجربة هى كيفية تحديد شخصية الفن الإسلامى ووحدة النسبية، وشخصيته التى لا جدال فيها؛ فالفن الإسلامى آخر مولود لنا من

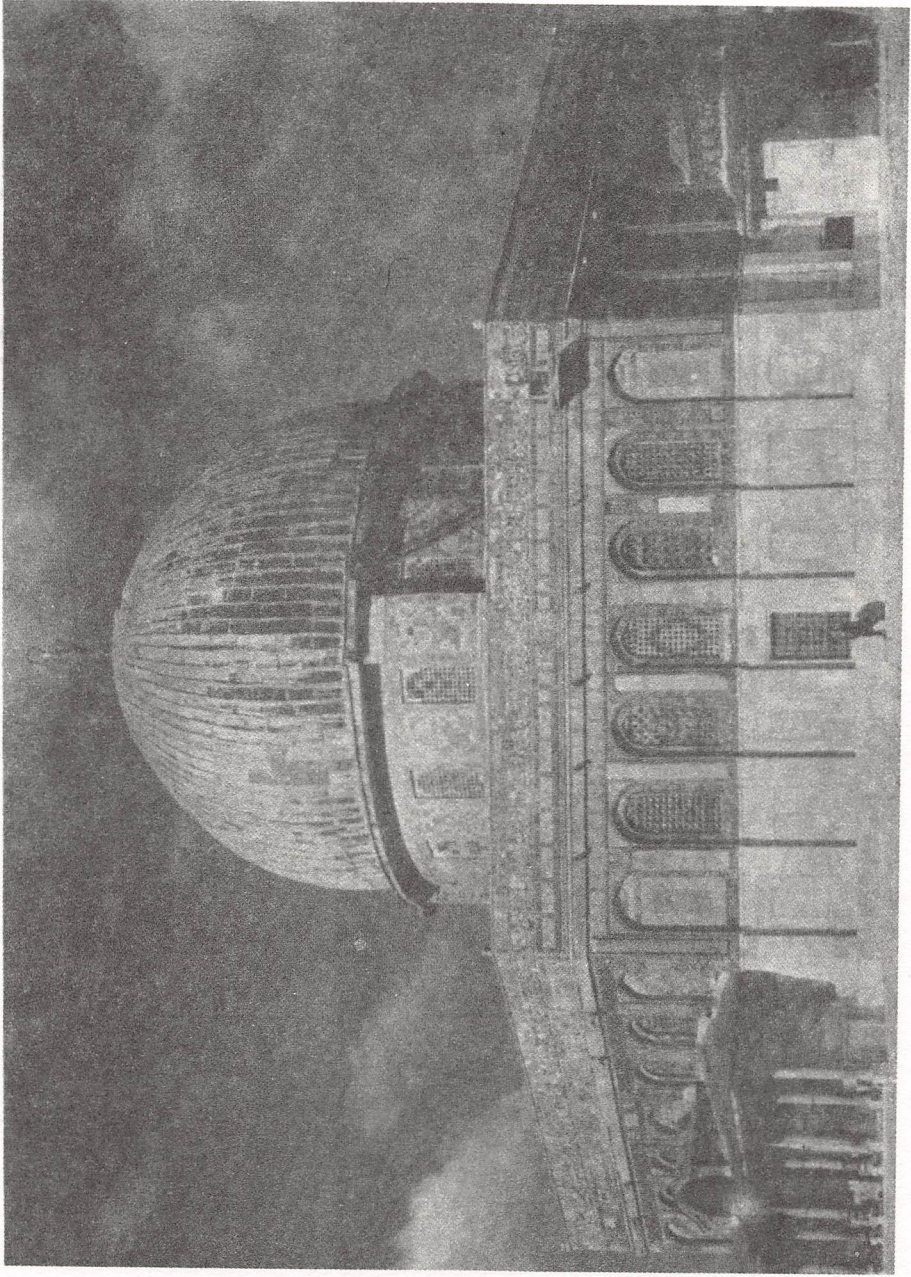
فنون العالم القديم مدين بالكثير لفنون من سبقه؛ لأن موطنه أو المهد الذى احتضنه هو منطقة غرب آسيا التى ظهرت فيها أسمى حضارات العالم القديم، فنهل منها الكثير فى شتى أنواع الفنون إلى أن تشعب من عناصرها الفنية وتفاعل بها حتى ثقلت شخصيته، وطبع طابعه الخاص؛ وأخذ شكله الجديد الذى يختلف عن سبقه.

وعلى مر المئات من السنين استطاع الفن الإسلامى صياغة نفسه فى أعمال فنية مميزة وخاصة به، بعيدة تمامًا عن الأنساق القديمة التى نبع منها، وابتداءً من القرن التاسع بدأنا تحديد طراز لتاج عامود من مدينة دمشق أو من القاهرة دون أى صعوبة فى التعرف على طرز التاج، وإن كان مستوحى من التاج الكورنثى أو الكلاسيكى من حيث الرشاقة فى الخطوط وانحناءاتها فى كأس التاج وأوراق الأكنيس التى تلتف حوله.

وفى القرن الحادى عشر بات التحديد صعبًا وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تعقدت الأمور أكثر، فأصبح من العسير تحديد طراز التاج إن كان من غرناطة أو فاس، ولهذا قمنا بتتبع المراحل الفنية المختلفة للفن الإشباني-البربرى منذ بدايته وتطوره من الأساليب الفنية اليونانية-الرومانية؛ لأن التواصل بينهما أكيد، فهذه التيجان ما هى إلا امتداد للتاج الكورنثى بعد أن تغيرت ملامحه على مدى عشرين جيلًا من الفنانين، فإذا قلنا مثلاً إن اللغة الفرنسية التى نستعملها الآن ما هى إلا اللغة اللاتينية، ولكنها قد ابتعدت على مر السنين والأجيال عن أصولها التى كانت تستعملها فيالق يوليوس قيصر، ذلك لأن اللغة كأي كائن حى متغير ومتنوع ليتلاءم مع مطالب الحياة.

والسؤال الآن: كيف انطلقت شخصية الفن الإسلامى؟ وكيف ابتعدت تدريجيا عن أصولها لتعلن عن مولدها الجديد، وفى أى اتجاه تطورت؟ وما العوامل الجديدة المؤثرة عليها؟، وهذا ما سوف نقوم بدراسته وتحليله فيما بعد وعلينا الآن أن نستخلص كل المعلومات التى قامت عليها تجربتنا الأساسية لتحديد الوحدة النسبية للفن الإسلامى والتى أشرنا إليها منذ البداية، وإن كانت كل هذه الأعمال التى صيغت فى أجزاء وأقطار تتباعد آلاف الأميال والسنين عن بعضها البعض، إلا أن روح العائلة هى التى وحدت وألفت بين تلك الأعمال.

وهذا المثال نستطيع أن نطبقه أيضًا على كل من اللغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية التى يجمعها رباط القرابة، ومثال آخر نذكره للهجات العربية المتداولة فحين يتكلم أحد رعاة الغنم فى بادية الشام، أو أحد مزارعى الدلتا، أو رجل من الطبقة البرجوازية من مدينة فاس إلا أنه قد يصعب أحيانًا أن يفهم كل منهم الآخر على الرغم من أنها لغة واحدة.



لوحة (١) قبة الصخرة

ولأن للفن لغته الخاصة فقد قارنا بينه وبين تطور اللغة، وهكذا استطاعت هذه العوامل الممتدة أن تؤلف بين اللهجات وتدعم أو أصر العائلة الواحدة، وتربط بينها على الرغم من تباعد أقطارها، واختلاف أزمنتها وعصورها التي تعاقبت على الفن الإسلامى دون أن نخفل أهمية العامل الجغرافى.

ونظراً لاتساع رقعته التى امتدت من الشرق إلى الغرب، ومن خليج البنغال إلى المحيط الأطلنطى، فقد تمتع الجزء الجنوبى من الكرة الأرضية بمناخ معتدل عن الجزء الشمالى، مما ساعد على وجود نوع من الاعتدال النسبى للمناخ، أما درجة الحرارة فهى تميل إلى الارتفاع نسبياً، والسماء دائماً مضيئة مع ندرة سقوط الأمطار على خلاف الطقس الذى يسود فى معظم أقطار أوروبا، وبالنسبة للصحارى التى تغطى الجزء الأعظم من التضاريس، فقد بدا تأثير الظروف الطبيعية واضحاً على العناصر الأساسية للعمارة الإسلامية قاطبة، فندرة الأمطار والمناخ الصحراوى الجاف قد أظهر أهمية المياه عند مؤسسى تلك المدن، ولذلك أكثروا من بناء الأسبلة العامة، كما زود الكثيرون من نبلاء الطبقة البرجوازية قصورهم ومنازلهم ببرك المياه، والنوافير كنوع من الأبهة.

والشمس الساطعة والسماء الخالية من الغيوم قد حثت المهندس المعمارى إلى الاستمتاع بالهواء الطلق، وقد ظهر هذا جلياً فى الفراغات أو المساحات غير المغطاة فى العمارات الدينية والمدنية، فوجدنا الصحن غالباً ما يكون محاطاً برواق معمد، وأحياناً يلعب الدور الرئيسى فى المسكن، كما يتصل اتصالاً مباشراً بالحجرات الأخرى، وبالنسبة للداخل أو الحجرات الداخلية كان الوصول إليها بواسطة الأبواب المفتوحة فى أغلب الأحيان، وفى بلاد فارس نجد المعمارى قد شيد القاعات دون جدران فى الواجهة لتظل مفتوحة على الصحن أو على الخارج حتى يستظل بها مع الاستمتاع باستنشاق الهواء الطيب.



لوحة (٢) الجامع الأموى بدمشق - الصحن والمئذنة

وإذا كان المعمارى قد أخذ فى الاعتبار أهمية عامل الشمس وكيفية توزيع أشعتها عند بناء السكن فقد اهتم أيضاً بالزخرفة الخارجية التى تضيف على المكان هيئته، فالنحت ذو الزخارف الدقيقة لم يكن موفقاً لتدفق أشعة الشمس منه على المبنى، بل يجب أن تكون كتل الأبنية بسيطة حتى تتلقى هذه الأشعة ليستفاد منها فى أكبر مساحة ممكنة، والإضاءة تستخدم أيضاً فى التخطيطات الشاسعة كما أنها تتفاعل مع الألوان الزاهية فتضيف عليها نوعاً من الانسجام مما يشع الدفء فى كل طبقات المكان، وهناك تطابق فى كثير من أنماط الزخارف المعمارية المنتشرة فى شتى أنحاء الأمة الإسلامية والتى فى مجملها عرفت الاستفادة من أشعة الشمس ولنذكر بعضاً من هذه الملامح: خلو الجدران من أى زخارف، والبساطة فى النتوءات البارزة، واستعمال تلبيسات وترصيعات من الخزف والسيراميك، ثم الأسلوب الفنى الجديد مثل الأشكال الموشورية التى عرفت فيما بعد بالمقرنص، والزخارف التقليدية مثل الأطناف أو الزخارف ذات النقوش البارزة، وهكذا كان العامل الجغرافى هو الفعال والمؤثر فى تاريخ الفن الإسلامى.

كما واكبت الظروف الجغرافية الأخرى التاريخية، حيث التحمت بها ليخرج هذا الفن الجديد مع إحيائه لبعض العناصر القديمة التى ينتمى إليها، ومن ثم سوف نقوم بدراسة وتحديد هذه الأصول فى دراسة وافية، ونكتفى هنا بتحديد العنصر المشترك فى جميع البلدان الإسلامية وهو استعمال النقوش الضئيلة أو المسطحة التى عرفت بالأرابيسك، والذى ينتمى بدوره إلى فنون العالم الهلينستى القديم.

وكان استدعاء العمال والفنانين المهرة من شتى بقاع العالم الإسلامى وانخراطهم فى العمل مع بعض فى وحدة متجانسة مميزة طبعت بها مدارس الفنون الجديدة.

وإذا كانت نقاط الالتقاء والاتصال قد لعبت دوراً مهماً عبر الأزمنة التاريخية مؤثرة على الفنون الإسلامية منذ ولادتها عبر مراحل وأزمنة نضوجها، فإن الإسلام نفسه كان القوة الجامعة، والذي ترك بصمته على هذا الفن.

ونعود ثانيًا لنقرب بين الفن واللغة، فاللغة العربية التى أصبحت فيما بعد لسان قوم واحد على الرغم من المسافات والتنوع بين شعوب العالم الأوحد، فإنها درست فى كل المدارس، كما دون بها المثقفون من الهند إلى المغرب لأنها لغة القرآن أى اللغة المقدسة التى نزل بها الوحي مما أثر على العماائر الإسلامية فطبعت بطابع مميز هو "روح العائلة"، كما استخدمت الزخارف الكتابية فى الأثاث المستعمل فى الحياة اليومية، فنجد الأثاث المغربى ذا الطابع الشرقى أى الطراز المجلوب من الأراضى المقدسة (الجزيرة العربية) والعامل التجارى بدوره قد لعب دوراً أساسياً، حيث ارتبط بأيام الحج وهى فريضة على كل مسلم أن يؤديها مرة واحدة طيلة حياته مما ساهم فى توطيد وترسيخ أواصر تلك الأمة الإسلامية المترامية الأطراف، وهكذا ظهرت هذه الوحدة جلية فى العمارة الدينية، ولأن الفن كان وقبل كل شيء أعد لخدمة إقامة الشعائر الدينية. والصلاة إحدى أهم ركائز هذه الديانة، ومن أهم دعائمها التى ترمز للخضوع والتسليم لخالق العباد، وتقام خمس مرات من اليوم، فى خمس ساعات محددة يتوجه كل مسلم إلى القبلة أى

"مكة" بعد الوضوء ليقيم الصلاة، حيث يصاحبها الركوع والسجود مع قراءة الآيات، كما يمكن إقامة الصلاة بمفرده.

ولم ترتبط الصلاة بمكان معين شرط أن يتسم بالطهارة، صلاة الظهر واحدة من تلك الفرائض، أما صلاة الجمعة فهي من أهم الفرائض الدينية، حيث تليها الخطبة، ثم الأدعية والابتهالات للحاكم، وهكذا تكون التضارعات الجماعية في المسجد، ولهذا صمم المكان ليتلاءم مع إقامة تلك الشعائر، فالمسجد هو بيت العبادة، وجاء التصميم موافقاً لخدمة الغرض منه وهو إقامة الشعائر الدينية أى الصلاة.

وعند الصلاة يقف المصلون جنباً إلى جنب في صف واحد، ومن ورائهم الصفوف الأخرى، ومن يؤم في الصدارة مديراً ظهره لهم وهم يتبعونه مرتلين معه آيات القرآن، والكل في اتجاه قبلة الإسلام "مكة" بيت الله الحرام.

وهكذا كان يقوم الرسول محمد بأداء الصلاة في منزله بالمدينة، أول مصلى للديانة الجديدة، وقد شيد بجانب صحن المنزل لينأى بها عن حرارة الشمس كما سقفه بالأغصان، ويستند على جذوع النخل.

افتقد هذا الشكل البدائي إلى جميع العناصر المعمارية، إلا أن عناصره كانت تتأكد دوماً وتتألف من الصحن الشاسع الذى يتجه بامتداد جانبي، والتى تتفرج بعرض على الصحن الشاسع، مع ذلك فإن الفروق بين الصحن والقاعة التى وظفت من أجلها تلك العناصر تكاد تكون معدومة، فالصلاة تؤدى فى كليهما وكلها متاحة، والقاعة المعمدة العريضة الممتدة تجاه القبلة أقل عمقاً، ومناسبة لإقامة الصلاة الجماعية، وأهم ما يميز هذا المصلى الخالى من المذبح وقس الأقداس هى النيشة أو "المحراب" المغروس فى جدار القبلة، وعلى

الرغم من بساطة هذا العنصر المعماري فإنه أصبح النواة التي تلتف من حولها جميع الزخارف أى النقطة المحورية التي يشع منها الجمال.

اتسم أثاث المسجد الجامع أيضاً بالبساطة، والمنبر لا يوجد إلا بالمسجد الجامع أى الذى تقام فيه صلاة الجمعة، وقد زخرف أيضاً بكثير من الأنماط الزخرفية، ثم نصل إلى "المقصورة" التي أحيطت بسور فى بعض المدن الكبيرة حيث تقام الصلوات التي يحضرها الحاكم، وننتقل إلى الأثاث فنجد السجاجيد التي تكتسى بها أرضية قاعة الصلاة، وبعض المقاعد والمكاتب لتحفيظ القرآن والمخصصة أيضاً للدارسين، وأخيراً الأثاث المستخدم للإضاءة مثل النجف والقناديل المتدلاة من السقف؛ وهكذا نكون قد وصلنا لعمل سجل لمحتويات المسجد، والذي ألهم الكثيرين من الفنانين المسلمين ليبدعوا فى عمله.

وهناك عنصران مهمان آخران ملحقان ببيت الصلاة وهما المئذنة أو البرج الذى يقف فيه المؤذن لينادى للصلاة، ثم "المبىضة" أو بيت الخلاء أو قاعة الوضوء حيث يتطهر المصلون فيها قبل دخول المسجد، وهذا هو التخطيط المتبع فى بداية القرون الأولى للهجرة.

ثم ننتقل للمرحلة التالية؛ وهى بداية الاهتمام بالمدارس، والخانقاوات، والزوايا، والتي تكون فى معظم الأحيان ملحقة بقبر مؤسسها أو أحد أولياء الله الصالحين.

وهذه العماير أيضاً لم تخلُ من الملمح الدينى، حيث احتوت دوماً على قاعة للصلاة تتشابه مع قاعة المسجد فى بعض الأقطار الإسلامية.

ولا توجد أى عمارة عامة أو بناية خاصة فى أى قطر إسلامى إلا وقد طُبعت بطابع الدين، فالإسلام قد اخترق الحياة الخاصة والعامة، فانبثقت منه تقاليد أثرت على الروح المعمارية والإنسانية فكما فرض على المرأة المسلمة ارتداء الحجاب عند السير فى الطريق، فقد فرض أيضاً ذلك عند بناء الحرمك، فتطابق الاثنان، فأصبح السكن منغلقاً عن العالم الخارجى، حيث يمنع الأغراب من اختراقه، وذلك حفاظاً على خصوصية الحياة الخاصة، والانفتاح أصبح للداخل، أما القاعة الرئيسية والتي سبق أن شرحنا تأثير العامل الجغرافى والمناخى عليها وكيف طُبعت لخدمة العامل الاجتماعى وهو الحفاظ على الحياة العائلية، مع الإشارة أيضاً للتقليد المعمارى السائد المأخوذ من المنزل الرومانى، وهكذا تفاعل العامل التاريخى مع المفهوم الأسرى الملتحم بالدين، والأسرة المسلمة فيها أكثر من ملمح من الأسرة الرومانية، حيث عاشت كلتاها فى بقاع العالم القديم، فوجدنا القاعة التى يتوسطها الصحن فى المنزل، وكان هذا هو الإطار المناسب لمطالب حياتهم.

وتخطيط المسجد قد صمم ليلائم العبادات، أما المنزل فنبتع من الفكر الأخلاقى للمسلم، ولهذا كان علينا الرجوع للعقيدة الإسلامية لفهم الزخارف الإسلامية التى تقوم على التوحيد بالله حيث كانت رسالة محمد قوية وواضحة ضد التعددية، وعبادة الأوثان فى العالم العربى، وأيضاً عبادة تماثيل الآلهة الإغريقية والرومانية، والتثليث فى الديانة المسيحية لأن "الله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد" وهو الروح الطاهرة الذى لا يمكن أن يظهر فى صورة بشرية، وإذا كانت النصوص القرآنية لم تشر صراحة لعباد الأوثان بالزندقة فإن "السنة" قد جاءت لتؤكد هذا وتشرح آيات القرآن، ومن هنا جاء

استناد بعض المتشددین لتحريم التصاوير والوجوه الادمية والحيوانية، كما رأوا أن إقامة التماثيل للآدميين هي رجوع لدين السلف، ونوع من الشرك بالله؛ لأنه هو الوحيد القادر على الخلق وبث الروح، كما كانوا يخشون من الرجوع لبعض عادات السحر والشعوذة السائدة في ذلك الوقت، وعلى عكس الرؤية المتشددة فقد وجدنا أخرى معاكسة لها إلا أن هذا النهى ظهر جليا في زخرفة العمائر الدينية، والأدوات الخاصة بالعبادات، مع تأثيرها الواضح على تطور الفن الإسلامي، فمُنِعَ الفنان من تشكيل التماثيل، كما نُهِىَ عن محاكاة من يقومون بعملها وعن محاكاة الطبيعة.

ومن هنا كان للزخارف الكتابية دور رائد في الفن الإسلامي، مؤكدة للعقيدة ومرسخة لحقيقة التنزيل السماوي للقرآن وما يحتوى عليه من آيات فيها شفاعاة للناس، وقد أكثر الفنان من استعمال الزخارف والنصوص الكتابية في جدران المساجد، وتزيين بعض القصور والمساكن بالأشرطة الكتابية التي تحمل نصوصا من القرآن الكريم، كما وجدناها منقوشة على بعض الأدوات ذات الاستعمال اليومي، وأحيانا كانت تكتب كلمة واحدة تدل على الفأل الحسن، أو صيغة من الصيغ الإيمانية، أو دعوة بالخير والبركة التي غالبا كانت تخاط أو تنقش على الملابس، كما وجدت أيضا على بعض الدروع والسيوف وكؤوس الشراب.

وقد استعمل الخط النسخي السائد، أو الكوفي ذو الطابع العتيق، والصعب قراءته أحيانا إلا أنه كان ناجحا في زخارف العمائر الإسلامية، وهكذا طبع الإسلام طابعه على شتى أنحاء الحياة اليومية، وحتى في الأغراض الجنائزية، وبذلك عرف فن الأقطار الإسلامية بالفن الإسلامي.

تقسيمات الفن الإسلامي

المراحل الكبرى

إن الفن الإسلامي له خصائصه المميزة التي جعلته يختلف عن شتى الفنون الأخرى وهو أمر لا شك فيه، ويكفي أن نذكر أهم خصائصه، وهى "روح العائلة" التي ألقت بين أواصره حيث تظهر للناظر إليها من الوهلة الأولى، فالقاربة واضحة، وقد تختفى حيناً حين نبدأ فى تحليلها، ولا يعنينا هنا أن نتتبع جميع العنائر الإسلامية لمعرفة عناصرها المختلفة، فوحدتها أكيدة، وعناصرها متنوعة، ولا غرابة فى ذلك، فالفن الإسلامى لم يكن متماثلاً يوماً، بل كان متغيراً دوماً؛ لأن الفن مثل اللغة كائن حى قانونه التغير.

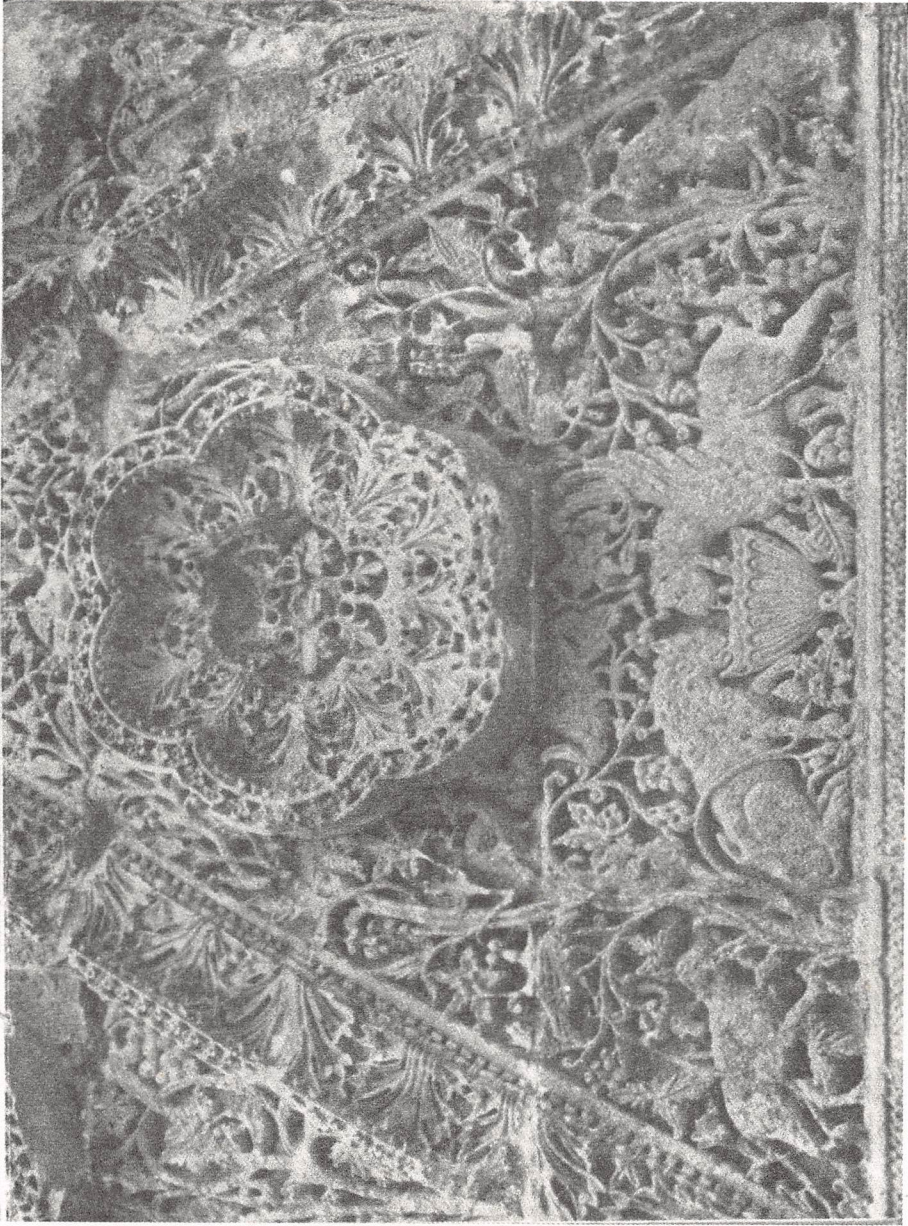
وخلال ثلاثة عشر قرناً مضت على نشأته لم يكف الفن الإسلامى عن تجديد نفسه. كأى كائن حى له تطوره وله تاريخه، والذى مازالت بعض فصوله نجعل الكثير منها، إلا أننا قد استطعنا تحديد مراحل وعقوده.

ذلك أن تاريخ تطور هذا الفن قد تأثر بل وطبع بتاريخ تطور الإسلام السياسى، فالنتاج الفنى يلزمه دائماً نوع من الاستقرار الاجتماعى والازدهار الاقتصادى المرتبط بقوة الإمبراطوريات أو (الأسرات الحاكمة).

وإذا كان الازدهار الفنى فى بلاد أخرى قد استقل عن الازدهار السياسى، فإن ارتباطه وثيق فى الفن الإسلامى.

كما ارتبط الفن الإسلامى بخدمة الأمراء ومن حولهم، ولذلك شيد المعماريون المساجد والقصور للخليفة أو السلطان، ويتضح ذلك من المدارس التى تحمل اسمهم وتلحق بها المقبرة التى سيدفنون فيها، ولذلك نجد أنهم نحتوا لهم الألباستر، والرسامون قاموا بتذهيب المخطوطات لهم، وهكذا إذا ما عم السلام على البلاد، وتتوعد مصادر الدخل فى الدولة، وارتقى المستوى الثقافى لأعضاء الأسرة الحاكمة والحس العالى من تذوق، والميل إلى أعمال البر كان له تأثير مباشر على ازدهار النشاط الفنى والمعمارى، وعلى فن صناعة الأثاث، وقد لاحظنا أن كل أسرة جديدة حاكمة كانت تستحدث تيارات فنية جديدة يظهر فيها إحياء وتطوير كامل أو جزئى للأشكال الفنية السائدة، وقد عرف الطراز الفنى باسم الأسرة الملكية، وهكذا أصبح لزاماً علينا إذا ما أردنا أن نفهم تطور الفن الإسلامى أن نتعرف على الأقل على الخطوط العريضة لتاريخ العالم الإسلامى، والقيام بتحديد أطره مع توضيح المراحل المتعاقبة المؤلفة له، (وهكذا نقول إنه فى خلال الثلاثة عشر قرناً من الزمن على الفن الإسلامى هناك أربع مراحل مهمة يمكن لنا تحديدها، فالمرحلة الأولى تبدأ من النصف الثانى من القرن السابع وتمتد حتى نهاية القرن التاسع، وقد شهدت هذه الفترة ازدهار وانتشار الإسلام فى شتى بقاع العالم القديم، بعد أن ضم المسلمون إليهم الكثير من الأقطار التى دخلوها بعد أن اعتنق الكثيرون منهم الإسلام).

وفى عام (٦٣٧-٦٥١) ضموا إيران وبلاد ما بين النهرين، ومن ناحية أخرى استطاعوا فرض سيطرتهم على ثلثى الدول التى تطل على البحر الأبيض المتوسط مثل سوريا عام (٦٣٣-٦٤٠)، ومصر عام (٦٣٥-٦٤٥)، وبلاد شمال أفريقيا عام (٦٤٧-٦٩٨)، وإسبانيا عام (٧١١-٧١٢)، وهكذا تحول بحر الروم القديم إلى بحيرة تقع تحت الحكم الإسلامى، كما وصلوا زحفهم حتى مدينة كسجارج فى الصين الغربية سنة (٧١٤) إلى أن وصلوا إلى مدينة وانتييه فى قلب فرنسا عام (٧٣٢)، وهكذا دانت كل هذه الإمبراطورية لخلفاء "محمد"، فهو المعلم الأول وصاحب السلطة الروحانية والدينية. بدأت السلطة السياسية والدينية والثقافية الإسلامية فى التمرکز فى منطقة غرب آسيا، أما الخلافة الأولى فكانت فى المدينة، مدينة الرسول وعاصمة الخلفاء الراشدين الأربعة، وهم الخلفاء الشرعيون، ثم انتقلت إلى دمشق بعد ذلك لتصبح مقراً للخلافة الأموية عام (٦٥٨-٧٥٠) ثم إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية بداية من عام (٧٥٠)، وهكذا بدأ شعاع الحضارة الإسلامية يسطع من تلك المدن ليعلن عن مولد فن جديد وهو الفن الإسلامى الموحد.



لوحة (٣) المشتى - زخارف الواجهة

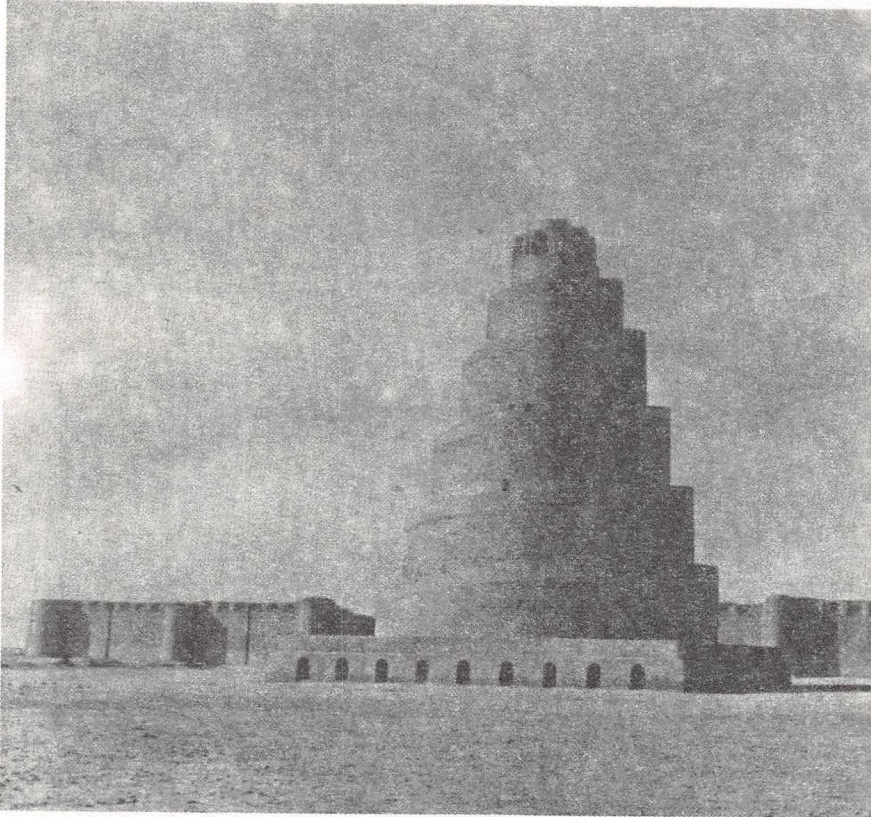
ومع دخول القرن العاشر بدأت المرحلة الثانية من تاريخ الحضارة الإسلامية حيث أخذت الإمبراطورية الشاسعة في التفكك تدريجياً، كما ظهرت بعض الأقطاب الخارجة عن النظام، إلا أن خليفة بغداد ظل مسيطراً على مناطق نفوذه الممتدة في آسيا، والمجابهة لاثنتين من الأسر الحاكمة المناوئة له والتي قد اندثرت قبل زوال خلافته بعد أن عاشت فترة مزدهرة، وهكذا كان الخلفاء الأمويون ورثة حكام دمشق الذين أسسوا الأندلس وجعلوا منها مملكة مزدهرة، ومن قرطبة موطناً للثقافة الإسلامية والذي ظل محفوراً في ذاكرة التاريخ طوال العصور الوسطى، وبالنسبة للخلفاء الفاطميين الذين ظهرُوا في شمال إفريقيا واستقروا في مدينة القاهرة، فقد أضافوا إلى أرض الفراعنة القدامى بريقاً فنياً جديداً يأخذ بالألباب، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية حوالي مائتين وخمسين عاماً، وهكذا خرج الفن الإسلامي من مرحلة البحث والتقليد ليزداد ثراءً بالتيارات الفنية الجديدة، ليضيف مراكز أخرى زادت من إشعاعه الحضارى.

وعلى الرغم من التيارات المتعددة التى ما ج بها العالم الإسلامى، فإن وحدة العقيدة كانت أهم روابطها، كذلك أكد كلٌّ من الشرق والغرب شخصيته.

وقد بدا الاختلاف بوضوح فى المرحلة الثالثة التى امتدت طوال ثلاثة قرون أى (القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) والتى أعقبها سقوط الكثير من الممالك المتناحرة، وعرفت تلك الفترة بعصر حكام القصور والوظائف العليا والذين استطاعوا اغتصاب السلطة التى نزعت من حكامهم، إلا أنهم قد هزموا فيما بعد، وهذه الدويلات ذات العملات النحاسية كانت إحدى إفرازات الوهن الذى أصاب إمبراطورية الخلفاء العظام مما أوقعها فى أخطار خارجية هددت وحدتها.

ففى إسبانيا قام المسيحيون باسترداد جزء من المدن الإسلامية النادرة
المزدهرة، وفى منطقة البحر المتوسط أيضاً فقد الإسلام جزيرة صقلية بعد
أن أصبحت نورماندية، التى صاحبها فقدان سيطرتهم البحرية، وقد دارت فى
منطقة الشرق الأوسط رحى الحرب والملاحم البطولية للحروب الصليبية
التى استمرت لفترات، كما اجتاحت إيران جحافل من المغول بقيادة
جنكيزخان ومن بعده تيمورلنك.

وعلى الرغم من التفتت الذى أصاب جسد الأمة الإسلامية، فإن الإنتاج
الفنى استمر حيث أكثر البلاط الملكى من العمائر المدنية.



لوحة (٤) المولوية - منمنمة الجامع الكبير بسامراء

وقد ظهر ملمح جديد فى الإسلام وهو التصوف والزهد وكان له تأثير سلبى حيث تراجعت العلوم العربية والثقافات الفنية لتكون نهاية العصر الذهبى.

وبدأ العالم الإسلامى فى الانطواء على نفسه منشغلاً ببعض الاهتمامات الدينية، كما أوصد الباب فى أوجه التيارات الغربية خوفاً منها، أو ربما كان يتشكك فى بعضها فابتعد عنها بدلاً من أن يجدد من مساره، وعلى الرغم من حفاظ الفن الإسلامى على شخصيته فإن عوامل الانحدار قد دبّت فيه، وإذا ما انتقلنا إلى المرحلة الرابعة نجده يفتح مرة أخرى على بعض التأثيرات الغربية، وعلى الرغم من التفكك الذى أصابه فى العصور الماضية، فقد ظهر نوع جديد من الوحدة تحت مظلة الهيمنة التركية، فحين خرج العثمانيون من القسطنطينية عام (١٤٥٣) وفرضوا سيطرتهم على جزيرة البلقان، والجزر اليونانية، ومنطقة غرب آسيا حتى وصلوا إلى شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام ثم وصلوا الزحف إلى مصر، وليبيا، وتونس، والجزائر، فإننا لم نتوقع من هؤلاء المغامرين الأتراك الذين جابوا البحار، ولا من حكامهم الذين سبقوهم فى القسطنطينية إحياء للثقافة العربية، فقد ظلت بلاد فارس مستمرة فى الحفاظ على تطورها ونسقتها القومى.

وتجمد المغرب فى ماضيه، والفن الإسلامى فى الأربعة قرون الأخيرة قد حمل الملامح العثمانية التى هيمنت عليه، وقد استطاع العثمانيون من خلال سيطرتهم على العالم المطل على البحر المتوسط نشر أحد أنماط عمائرهم الدينية وهو المسجد ذو القبة الكبيرة الذى استقى أصوله من كنيسة سانت صوفى وهى من الطرز التى ظلت سائدة فى بلاد البلقان.

وتعتبر كلُّ من تونس والجزائر إلى اليوم شاهد عصر على الزخارف التركية والتي مازالت تنتج ونشاهدها إلى اليوم.

ومع المد التركي نكون قد وصلنا إلى العصر الحالي، حيث نعتبره آخر فصل من فصول كتابنا عن تاريخ الفن الإسلامي.

وقد قسمت هذه المراحل الكبيرة إلى حقب من التطور المستمر للفن الإسلامي ليتردى بين خموله حيناً وصحوته حيناً آخر، كما أننا قد تعارفنا على الكثير من الطرز التي نسبت إلى الأسر الحاكمة، لنعود ونؤكد مرة أخرى أن تاريخ الفن الإسلامي قد واكب التاريخ السياسي والاقتصادي للممالك الحاكمة، وعلينا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا الظروف العامة أو الأوضاع السائدة حتى نستطيع أن نستخلص ونفهم النتائج الفنية.

كما بدا لنا طبيعياً أن نضيف للتقسيم الزمني تقسيماً آخر جغرافياً من حيث المسافات الممتدة بين الأقطار، فهناك خمسة عشر ألف كيلومتر نقطعها بين الصين وماليزيا، ثم بين الحجاز واليمن، وهناك نوع من الوحدة النسبية على الرغم من التنوع الإقليمي والظروف التاريخية لكل إقليم وما أصابه من انتكاسة أو ازدهار، كذلك تقاليد الشعوب الراسخة، وتأثير الدول المجاورة وانتقال طرزها، وقدرات الشعوب التي لم يستطع الإسلام تغييرها إضافة لما يتمتع به كل إقليم من مواد خام، ولهذا قمنا بتحديد المدارس المختلفة، والحدود الفاصلة لها، ومن أهم الأعمال التي تحظى بأهمية قصوى⁽¹⁾ هو مؤلف الأستاذ H. Saladin، حيث قارن بين المدرسة السورية-المصرية، والمدرسة المغربية التي تضم تونس والجزائر والمغرب وإسبانيا وصقلية، ثم

(1) Manuel d'art musulman: I.L'architecture (Paris. A.Picard, 1907)

المدرسة الفارسية وتشمل بلاد ما بين النهرين وإيران، ثم المدرسة العثمانية وأخيراً المدرسة الهندية.

هذا الترتيب نراه مقبولاً جداً، ولكن علينا ألا نكون قصار النظر والقياس طبقاً لهذه التقسيمات دون الالتفات لنقطة مهمة وهى عدم وجود حدود سياسية فى العالم الإسلامى، مما أظهر التشابك فى المدارس الفنية، فإن الأقطار المزدهرة فنيا كانت تابعة روحانيا للإمبراطورية الإسلامية كالحجرات داخل المنزل ولهذا أطلق لفظ "دار الإسلام" لدلالته على الروابط الثابتة فيما بينهم، والتطاحن بين الدويلات الإسلامية قد نسج خيوطاً لبعض الملامح البطولية فى التاريخ الإسلامى، كما لم تتأثر التجارة فقد استمر نقل السلع، ومن الناحية الفنية طبعت الطرز بعضها ببعض، وكذلك تبدلت الأفكار، ولم تؤثر الحدود العسكرية على ارتياد التجار لأسواقهم، وذهاب الزهاد لأداء مناسكهم، وتوجه الطلاب لتحصيل علومهم على يد أجل الأساتذة، وهكذا لم تكن المسافات البعيدة عائقاً فى استمرار العلاقات بين أقطار الأمة الإسلامية.

وطدت السياسة العلاقات بين الحكومات المتباعدة الأطراف، أى بين حكام الإقطاعيات، والتحالفات التقليدية بينهما، وبعض الزيجات التى تمت بين ملوك الأقطار المختلفة مما زاد من العلاقات الدبلوماسية فأصبح السفراء والمبعوثون يجوبون أنحاء البلاد محملين بالهدايا، ويبدو أن تلك التحالفات والارتباطات كان لها أجل التأثير على المجال الفنى، فظهرت أنساق فنية جديدة لسد متطلبات الحاشية والبلاط الملكى لتصبح صيغ البلاط صيغاً فنية عامة فى عصره.

وقد لاحظنا انتقال بعض الصيغ فى الأساليب الفنية، فبين الغرب والشرق من جهة، وبين إسبانيا والمغرب، ثم مصر من ناحية أخرى انتقلت الصيغ الفنية مع الفنانين من قطر لآخر والتي نتجت عن الظروف السياسية أيضاً، فهيمنة إحدى الصيغ الفنية على الأخرى ترمز إلى سيطرة إحدى الممالك على الأخرى ليصبح طرازها هو السائد، وفى القرن العاشر انتقلت إلى مصر بعض الطرز المعمارية من تونس على يد حكامها الفاطميين، وفى القرن الحادى عشر أصبح قصر الخلافة الفاطمى فى القاهرة وعادت تونس ولاية فنية تابعة لها.

وكما تعاقبت الأسر تعددت أيضاً المدارس فازدهر بعضها وزال البعض الآخر متزامناً مع تطور أحوال الولاية، إلى أن ظهرت أخيراً المدرسة العثمانية التى قامت على أنقاض المدرستين السابقتين وحلت محلهما، فإن الحاجة لفهم الفعل ورد الفعل، والاختفاء والازدهار، وتداخل الأمور مع بعضها قد أعطتنا الفرصة فى إلقاء بعض الضوء على تعاقب الأحداث، ولذلك لم نضع المدرسة فى المرتبة الأولى التى نبني عليها نظريتنا، فهناك أيضاً التقسيم الجغرافى وتأثيره على النظم وعلى الفن الإسلامى الذى لا يمكن أن نتغاضى عن أهميته، وأخيراً: كيف تزامنت المراحل التاريخية المختلفة وتعاقبت على مدى عقود التاريخ الإسلامى الذى نحن بصدد دراسته وتحليله؟.

الجزء الأول
العالم الإسلامي الموحد

الفصل الأول

الفن الأموي في سوريا (بلاد الشام)

لم يبدأ الفن الإسلامي في العام الأول من الهجرة، عام (٦٢٢) للميلاد كما أنه لم يظهر في نفس الوقت الذي أسست فيه الدولة الإسلامية على يد "محمد"، فالمسجد النبوي بالمدينة أعد لأول مرة لإقامة شعائر الصلاة فيه فلم يكن ليرقى لمستوى العمائر الدينية العظيمة، وربما يكون قد وصل إلى تلك المرتبة حينما قام الخليفة عثمان بن عفان عام (٦٥٦-٦٦٠) بتجديده أو إعادة بنائه، إلا أن أعمال الخليفة عثمان في كل من المدينة ومكة غير معروفة بالقدر الكافي، ولكن بمجيء الخلفاء الأمويين إلى الحكم كانت بداية لتاريخ ظهور العمائر الإسلامية.

وقد نقل مؤسس الدولة الأموية الخلافة من المدينة إلى دمشق عام (٦٦٠) بعد الميلاد ليبدأ المولد الجديد لهذا الفن في (الشام) ليكمل مسيرته في إيران التي تعد جزءاً لا يتجزأ من منطقة غرب آسيا.

وعند خروج الإسلام من جزيرة العرب وجد نفسه أمام إمبراطوريتين متنافستين بعد أن أعياهاما الصراع، فقد بدأ في الاتساع على أنقاضهما فأصبح الخليفة هو السيد على الولاية التي كانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية والمأهولة برعاياها، كما امتدت الخلافة أيضاً لترسى قواعدها على أطلال الدولة الساسانية؛ وبما أن الخلافة الجديدة لم تكن محملة بتقاليد أو موروثات

فنية، فقد استقى الفن الإسلامى من الطرز القديمة لهذه الحضارات والثقافات
والتي تتصل بعالمين مهمين: عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوى.

وهكذا طُعم هذا المولود الجديد "الفن الإسلامى" بتلك التأثيرات كما دمج
بين عناصر الفن المسمى الشرقى، وعناصر الفن الإيرانى، والحق يقال إن
كلا الفنين المسمى الشرقى والإيرانى كثيرا التعقيد ويلزمنا الرجوع إلى
أصولهما لفهمهما فإننا نعلم أن توغل الهلينستية فى منطقة آسيا تؤرخ بحملة
الإسكندر الأكبر الذى استطاع أن يصل إلى بلاد الهند وبلاد بامير
فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد، ثم أقام سبعين مدينة جديدة
لينصب نفسه وبدأ بفرض سيطرته على العالم القديم، بل إن الإسكندر فى
الواقع قد استطاع قبل ذلك الاستيلاء على ملك السلوقيين الذى كان يقع تحت
قبضة روما، ومن هنا بدأ عالم الشرق الأوسط وإيران التأثر بالصبغة التى
أضافتها عليهما الحضارة الكلاسيكية، أما البارثيون الذين حكموا إيران
منذ منتصف القرن الثالث ق.م، حتى بداية القرن الثالث ب.م، فلم ينأوا
بعيداً عن المد الواضح للحضارة الكلاسيكية، فقد وجدنا بعض العمائر
التي شيدها حكامها البارثيون ذوو الأصول الإيرانية وقد طبعت بطابع
الفن اليونانى-الرومانى ثم جاء الساسانيون فى القرن الرابع ليستعيدوا
أوطانهم وقومياتهم المسلوبة، فكان لزاماً عليهم استرجاع جميع التقاليد
والموروثات الفنية الفارسية القديمة، إلا أنه على الرغم من ذلك لم
يحرروا الفن الفارسى كلية من تأثير الفن الكلاسيكى عليه، والفن
الهلينستى بدوره والأفرع المنبثقة منه قد استعارت هى الأخرى الكثير
من التقاليد الشرقية، ولهذا نقول إن الفن البيزنطى ينتمى إلى منطقة آسيا

أكثر منه إلى الفن الهلينستى، وليس من قبيل الصدفة أن نجد المعماريين اللذين شيّدا كنيسة سانت صوفى ولدا فى منطقة آسيا.

وهكذا بدأ شعاع مدينة القسطنطينية يسطع على العالم المسيحى بفنه الجديد المعروف (بالفن الإمبراطورى) نسبة للإمبراطور الرومانى جستينيان، وقد كانت معظم ولايات هذا العالم القديم قبل القرن السادس على اتصال بالشرق، فكل من منطقة آسيا الصغرى، وسوريا، ومصر وشمال أفريقيا ومدينة "سبالاتو" و"رافان" قد استخدمت هذه الطرز فى المعمار وفى الزخارف، وفى منطقة آسيا عرف الفن الهلينستى استخدام القبة والتخطيط المشع والزخارف النغمية المكونة من ثلاث وريقات التى استخدمت فى تشييد الكنائس، وهذا التأثير الفنى هو الذى يخص موضوع دراستنا، كما نلاحظ أن الاهتمام بالجمال فى الخامات لم يكن مهماً، فقد استعمل بكثرة الطوب المألوف للمعماريين الإيرانيين، كما اهتم المعماريون البيزنطيون بزخرفة المساحات كاملة كالرداء الكاسى ما بداخله، وهكذا كان الإمبراطور يصدر الأوامر بتشيد القصور أو البازيليكا شرط أن تبهر الناظرين بعظمتها، وبدأ الفن البيزنطى والمسيحى الشرقى فى البعد عن استخدام الأشكال الأدمية وعبادتها التى عرفت عند الإغريق القدامى، وأخذ من منطقة آسيا الحس الفنى الثرى، كما أتقنوا الأساليب التقنية، فالجدران كانت تكتسى ببلاطات من المرمر المشكلة من صفائح الخزف أو من عجينة الزجاج، ونفس هذه التغطية استخدمت فى أعمال التليط وكسوة الأقبية، ولم تكن هذه الزخرفة تتطلب وقتاً طويلاً ولا أيدى فنية مدربة، بل لمستوى يضاهاى ما عليه من عمال السخرة، والنحت لم يعرف البروزات الشديدة، ولا نماذج التجسيم المتقنة، فقد

كان الأزميل ينقر بشكل لولبي لتصبح الأسطح أكثر صلابة، وبفضل آلاف النقر المكررة ظهر الشكل الزخرفي كالدانتيل المزركش أو من الشرائط المجدولة ليصبح الشكل فريذاً ومميزاً، مما أضاف التنوع في الألوان مع الاعتدال في التذهيب، فجاء الشكل يميل إلى العظمة.

وهذه الملامح المتأثرة بفنون بلاد آسيا قد وجدت بمعظم المدارس الفنية في العالم المسيحي كما نقلت كل من بيزنطة وسوريا هذه الملامح إلى الغرب ويمكن أن نتعرف عليها من كنائسنا الرومانية إلى اليوم وكذلك تأثر بها الفن الإسلامي، وتعد المساجد أهم شاهد عصر عليها حيث تظهر التقاليد الهلنستية في كل من سوريا وفلسطين الواقعتين في القارة الآسيوية بوضوح أكثر من أي منطقة أخرى، وفي هذه البقعة أقام الخلفاء الأمويون الأوائل في دمشق أجل عمائرهم الإسلامية.

العمارة الدينية:

وفي عام (٦٩١) شيد الخليفة عبد الملك في القدس قبة الصخرة التي عرفت بجامع عمر، وفي تلك الرحلة المعروفة "الحرم الشريف" كانت في سالف الزمان معبداً يهودياً قد شيد فوق صخرة مسطحة تحمل في طياتها ذكرى أنبياء الله "إبراهيم" و"محمد"، ويتكون هذا المبنى البديع من محيط دائري مركزي يحمل فوقه القبة وقد أحيط برواقين داخل جدار مثنى، وهذا النمط المعماري مستوحى من الفن المسيحي، وقد وجدنا تخطيطاً مماثلاً له في بعض الكنائس السورية التي تحتوى على تخطيط مركزي مثل كنيسة البصرة، وكنيسة القيامة في القدس، كما نجد القبة والأروقة التي تلتف حول

المبنى، والأعمدة تنتهى بتيجان بديعة شكلت من الأكنس ذى الطراز المعروف باسم "تيودوز" نسبة للإمبراطور الرومانى، ومما أضفى على المبنى روعته الكسوة المشكلة من الفسيفساء المذهبة التى زينت بها القاعدة الأسطوانية، والقبة، والركنيات بين العقود، ودعامات السالكف التى تفصل بينها، وكلها من الأساليب المعمارية البيزنطية وربما قد استعين بعمال سوريين تدريبوا فى ورش عمل بالقسطنطينية، وفى تلك البقعة بالقدس شيد المسجد الأقصى تحت إمرة الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى أو الوليد فى عام (٧٠٥-٧١٥)، وقد ألحق بهذا المسجد الكثير من الأضرار على مر السنين، واستحدث به كثير من التغييرات على يد الصليبيين حيناً، والمسلمين حيناً آخر فى تلك الفترة.

وعلى أى حال فإن الجزء الأوسط على ما نعتقد ما زال يحتفظ بالتصميم البدائى له، ويحتوى على جناح مركزى عريض وتحف به العقود المقامة على الأعمدة، ويحيط بهذا الجزء رواقان آخران أقل عرضاً، وبعمق المسجد نجد جناحاً مستعرضاً كمصالب الكنيسة ترتفع عليه القبة فى الوسط، والترتيب الذى عليه هذا المسجد من الأروقة الثلاثة الممتدة بعمق البناء هو نفس تخطيط البازيليكا وقد نفذت بأيادى بعض مهندسى تلك المدينة، فجاء ملائماً لإقامة الشعائر المسيحية عن الإسلامية، وبالنسبة لضم الاثنى عشر جناحاً مع الثلاثة أجنحة الأخرى المركزية قد أعطى لزواية الصلاة مساحة أكثر عرضاً تلبى شعائر إقامة الصلاة فى الإسلام، (انظر اللوحة ١، صورة ٢)



لوحة (٥) قطعة نسيج من الكتان الملون - فارس

المسجد الجامع بدمشق:

يعد هذا المسجد من أهم عمائر العصر الأموي وأول نجاح كبير للعمارة الإسلامية (سوقاجيه - Sauvaget) وسوف يعطينا هذا المسجد شكلاً جديداً، حيث التحمت فيه التقاليد المسيحية لتخدم الرؤية المعمارية، ويذكرنا هذا الجامع بالمسجد النبوي في المدينة، (انظر اللوحة ١١ شكل ١).

وتاريخ هذا الأثر من أكثر الأمور غموضاً وتعارضاً، وهو يحتل دون منازع موضع أقدم أماكن العبادة في العالم القديم.

فمنذ ثلاثة آلاف سنة كان الإله (حداد) يعبد في سوريا وهو يرمز إلى إله العواصف ويعبد في هذا المكان، ثم بعد دخول الرومان سوريا في القرن الأول قبل الميلاد أقاموا معبداً للإله جوبيتير مكان مقصورة الإله حداد القديمة مع الاحتفاظ بالتخطيط الأولي، والمعبد يتكون من جدارين يلتقيان في مركز واحد "Temenos" (كلمة يونانية تعني بقعة مقدسة) ومساحتها (٣٦٠:٣١٠م) التي تحيط بساحة المعبد القديم (١٦٠م×١٠٠م) التي تحيط بالضريح (الناووس) الذي بداخله تمثال الإله.

ثم نجد بابين كبيرين بهما ثلاث فتحات توصلان (تؤديان) إلى الجانب الشرقي والغربي للفناء الأول (Temenos).

والممران يؤديان إلى الفناء الثاني بواسطة أبواب ثلاثية توصل إلى الناووس المركزي.

وفي القرن الرابع قام الإمبراطور تيودوز بإصلاح بازيليك سان جان بابتستيت Saint-Jean- Baptiste وتقع في الساحة التي تحيط بالهيكل في المعبد

القديم مع الاحتفاظ بالمدخلين الجانبيين، وعندما جاء الحكام المسلمون طوعوا هذه العمارة المسيحية لتلائم إقامة شعائرهم الجديدة فشيّدوا جامع دمشق الكبير، والدخول إلى الجامع من "باب جيرون" وباب محطة الخيل (باب البريد) وكلاهما يوصلان إلى الصحن.

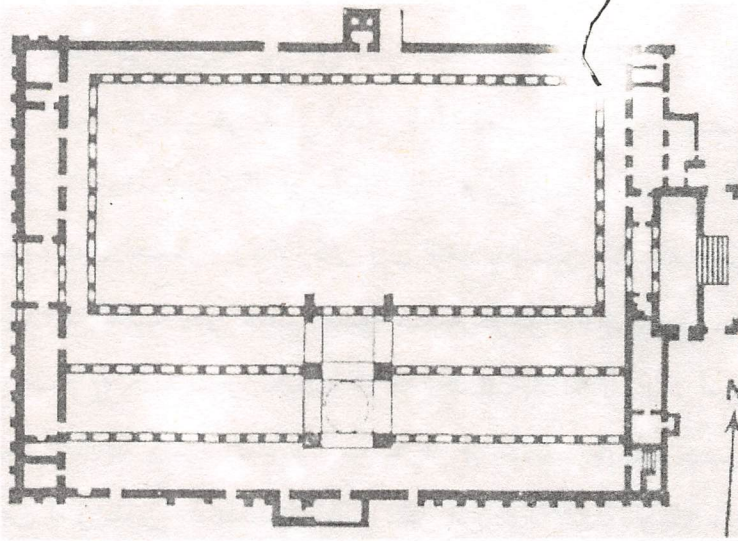
وهذا الصحن محاط برواق من جوانبه الثلاثة، ويفتح الجانب الرابع على قاعة الصلاة، وتحتوى قاعة الصلاة على ثلاثة أجنحة تمتد بتوازٍ مع الجدار العتيق الذى يرجع للعمارة المسيحية الواقعة فى الناحية الجنوبية ليصل بعمق إلى جدار القبلة، وهذا الترتيب للأجنحة الممتدة فى الاتجاه المستعرض الشرقي - الغربى، يقطعه جناح آخر عريض من الجهة الشمالية - الجنوبية حيث تقع القبة المرتفعة وهى قبة النسرة، هذا الجناح الأساسى هو الطريق المؤدى إلى المحراب، والذى يذكرنا بتخطيط البازيليكا الذى قد أدخل على التخطيط السائد فى المدينة ويتسع لصفوف المصلين لإقامة الصلاة.

ويعد الخليفة الوليد أهم وأنشط من أقام منشآت فى العصر الأموى، وإليه ينسب الجامع الأموى فى دمشق عام (٧٠٥)، كما ساهم فى أعمال البر، وقد ظلت ملامح العمارة المسيحية القديمة واضحة فى العمارة الإسلامية التى حلت محلها.

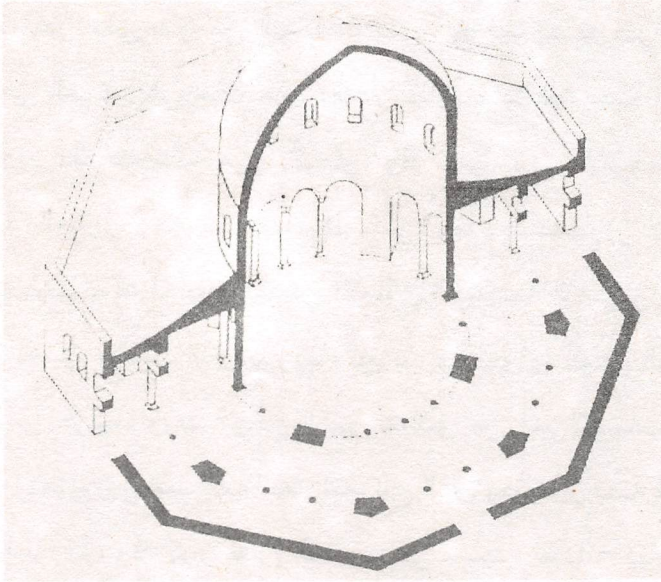
وإذا كان الطابع العام لهذا الجامع من حيث الأروقة المقنطرة، والسقيفات، والأسقف ذات الجوانب المنحدرة لا تدل على أنها كانت كنيسة فى الأصل؛ فإن رواق القبلة الأموى الكبير يعد أحد نماذج العمارة المسيحية التى نقلت إلى مساجد أخرى، والجناح الكبير المتعامد مع جدار القبلة يحتوى على أكثر من ملامح يحاكي فيه القديم.

ثم ننتقل إلى برجين مربعين وهو النمط التقليدي لبرج الأجراس السوري القديم، ويقعان في أعلى جدار القبلة بعد إعادة بنائهما حيث يؤذن للصلاة من أعلاها، وقد شكل برج ثالث يرتفع في وسط الواجهة الشمالية التي تلتف حول الصحن، وهكذا كان أول النماذج للمآذن الإسلامية في الشرق والغرب، وقد تعاقب على جامع دمشق خمسة حرائق متتالية، وكان يرمم بعدها، وقد نتج عنها فقدان تكسيته الرائعة الخالبة للأنظار، وقد استخدمت الفسيفساء المذهبة لكسوة الأسوار على غرار قبة الصخرة، كما حصل الخليفة الوليد من إمبراطور القسطنطينية على كثير من مواد البناء، وعدد من الفنيين المتمرسين في الأساليب التقنية البيزنطية للتعاون مع العمال في دمشق.

وقد عثر على بقايا من البلاطات التي زخرفت بها جدران الأروقة المطلة على الصحن في حالة جيدة بعد أن ظلت محفوظة تحت الكلس، كما نجد تصاوير لغابات عالية من الأشجار، وقد تداخلت في الإنشاءات سواء في القصور أو المنازل وهي ذات نمط هليينستي، كما نجد تصاوير لأمواج هائجة وأنهار ومحيطات قد أحاطت ببعض الأماكن الخيالية التي ربما ترمز لضواحي دمشق والنهر الذي يرويها، ليظهر من حولها أقطار العالم الأخرى والمحيط من حولها، ويعد الجامع الكبير بدمشق من أهم المنشآت الدينية التي تركها لنا الأمويون ليصبح فيما بعد النموذج الذي يحتذى به في سائر المساجد السورية، وقد كرر نفس التصميم في مسجد أميدا - ديار بكر، على الضفة الغربية لنهر دجلة، ويتشابه مع الجامع الكبير الأول في حلب.



شكل (١) تخطيط الجامع الكبير بدمشق.



شكل (٢) قبة الصخرة في القدس.

العمارة المدنية:

وإذا كانت عوامل الهدم والترميم قد أدت إلى صعوبة التعرف على الكثير من العماائر الدينية، ففي العمارة المدنية كان حظنا أوفر في الوصول إلى معلومات موثقة، حيث إن الأجيال المتعاقبة لم تعتن بها.

وفي خلال العشرين عاماً الماضية كشفت لنا أعمال التنقيب عن العديد من القصور الأموية، كما أوضحت لنا الظروف التاريخية الغرض من إنشائها واستمرارها، والأمويون الأمراء من أصل عربي جاءوا ليستقروا في المدن السورية إلا أنهم ظلوا محتفظين بحنينهم وشغفهم بحياة الصحراء، وبعد أن أصبحوا سادة للإمبراطورية الإسلامية داوموا على مواثيقهم القديمة في الحفاظ على النظام الأبوي القديم الذي يمارسه سيد القبيلة في الصحراء، وقد استندوا إلى قبائل البادية، وظلوا على اتصال دائم برجالها ذوي الطابع صعب المراس، ولأن من طبيعة العرب الأمويين حب الرياضة، فكانوا مولعين بالصيد، وكل عام في الربيع كانوا يغادرون المدن لينعموا بنسماته، ويمارسون هوايتهم المفضلة مثل الصيد، كما كانوا مولعين بالشعر العربي، فكانوا يجتمعون ليلاً في خيامهم يتسامرون ويقرءون أبياتاً من الشعر الجميل، وكما أحبوا حياة الصحراء الجدية، فقد عشقوا وسائل الراحة، وإقامة القصور والحمامات ليستريحوا بها بعد النزاهات على الخيل.

وقد استطعنا تحديد قصور الصحراء من خلال الانتقال المتبقية منها في صحارى سوريا التي أرجعناها كلها للعصر الأموي، كذلك أحصى الأستاذ العالم جان سوفيافييه "Jean Sauvaget" ما يقرب من ثلاثين قصراً، وتمتد من الشمال إلى الجنوب مثل قصر الحير الذي يقع شمال شرق مدينة

بالمير، ثم قصر عمرة فى شرق الأردن، وقصر المشتى (انظر لوحة ٣)
وقصر الحرانة، وقصر الطوبة الذى يقع شرق البحر الميت، وحديثاً تناولنا
دراسة خربة المفجر التى تقع على بعد كيلومترين من أريحا، ثم خربة المنية
وتقع على بعد ١٤ كيلومتراً شمال مدينة طبرية.

وقد شيده الخليفة الأموى هشام عام (٧٢٨)، والقصر محاط بأسوار،
وتدلنا الآثار المتبقية منه أنه تألف من قصرين: الأول كبير والثانى أصغر،
ويحتوى على أسوار مربعة بنيت بأحجار مقطعة من الطوب ودعمت بأبراج
نصف دائرية.

وقد أحيط بهذه القصور أرض مسورة تمتد حوالى ستة كيلومترات،
ودعمت بأكتاف بارزة، وغرس فى جزء من محيطها الدائرى فتحات ذات
عقود كاملة، ويمكن أن تغلق بواسطة أبواب من الخشب، كما احتوت على
شبكات من القنوات لتغذية تلك القصور بالمياه للرى، ويمكن أن تستخدم
للزراعة وتسكين المزارعين.

ويعد قصر عمرة أقل اتساعاً من قصر الحير، ويلتف حولهما سور
طوله (٥٠ × ٢٥م)، ويحتوى على حجرات وبعض الدكاكين، وإسطبلات
للخيول، وعلى بعد مسافة من تلك العمارة الكبيرة نجد مبنى صغيراً آخر فى
حالة جيدة وقد أفردت له دراسة كاملة، وهذا المبنى هو الحمام الذى يشبه كثيراً
الحمامات الرومانية التى انبثق منها الحمام الإسلامى، فهو يتكون من قاعة
شاسعة أعدت لخلع الملابس، وتلتصق بها غرفتان منفصلتان: القاعة الأولى
باردة والثانية فاترة، كما يوجد فرن للتجفيف يحتوى بدوره على غرفة الفرن
التي تسمح بتصاعد الأبخرة، والمبنى فى مجمله مقبى بقنطرة نصف

أسطوانية، وقباب صغيرة تظهر من الخارج، إلا أن الشكل الكلى للمبنى يوحى بانتمائه لبلاد ما بين النهرين، ومن أهم ملامح هذا البناء هو التصاوير الجدارية التى زخرفت بها القاعات عن كاملها، ويحتوى أحد التصاوير على اجتماع يرمز إلى بعض الأمراء الذين خضعوا للأمراء الأمويين مما يرجح أنها من قصير عمرة من عصر الوليد الأول الذى يؤرخ بين (٧١١-٧١٥).

وهناك بعض الصعوبة فى تأريخ قصر المشتى واختلاف فى وجهات النظر أيضاً، إلا أن الكل أجمع على انتمائه للعصر الإسلامى لوجود قاعة للصلاة تحتوى على محراب، وأيضاً نص تاريخى يفيد بأنه من أعمال الخليفة الوليد الثانى من (٧٤٣ - ٧٤٤) ولم يكتمل فى عصره.

ويحتوى القصر على باب مصمت على جانبيه برجان ذوا جوانب مهدبة، وقد زخرفت بنقوش ضئيلة، ويؤدى الباب إلى الجدار المحيط الذى يقع فى وسط الواجهة الجنوبية، وقد دعم هذا الجدار بأبراج نصف دائرية محدداً بذلك مربع طول جانبه يصل إلى ١٤٤ متراً، وهناك ثلاث مجموعات معمارية تمتد من الجنوب إلى الشمال والمجموعة الوسطى منها لم يكتمل بناؤها وكانت تتكون من مبنيين يفصل بينهما فناء والمدخل يتكون من بهو عميق يوصل إلى قاعة فسيحة تطل على الصحن الرئيسى.

وتقع مقصورة الصلاة على أحد جانبي المبنى الأول، وفى نهاية الفناء أقيم المبنى الثانى، والجزء الأوسط منه الذى يحتوى على قاعة الاستقبال ذات تخطيط مميز، وتوجد به ثلاث فتحات، الكبيرة منها تحيط بها من الجانبين فتحتان صغيرتان، وتتفرج واجهتها على الصحن وتوصل إلى ثلاثة أجنحة من البازيليكا، والجناح المركزى يؤدى إلى قاعة مربعة تمتد من جوانبها الثلاثة الجانبية والخلفية ثلاثة محاريب نصف دائرية.

وهذا النوع من القاعات ذات الكل النفلى (ذى الوريقات) أو كما اصطلح عليه بالكلمة اليونانية "Triconque" والتي لم تكن معروفة في عمارة الحمامات الرومانية والمقابر الضخمة التي أنتشرت في كثير من الولايات البيزنطية مثل سوريا ومصر، وقد لاقى هذا العنصر نجاحًا كبيرًا في مصر مثل البازيليكا ذات الأجنحة الثلاثية، مما جعلنا نعتقد تدخل بعض المعماريين المصريين في أعمال تطوير قصر المشتى، وسوف نقوم بإبراز المعلومات التي استخلصناها من الزخرفة البديعة في الباب وأيضًا في الأجزاء التي تحيط به.

والتماثل في التخطيط، وترتيب الطوب في الجدران، والأساليب المتبعة في بناء الأقبية، ثم الزخارف المنحوتة في قصر المشتى وقصر الطوبة تشير إلى أنهما متعاصران، ويمكننا أن ننسبهما لعصر الخليفة الأموي الوليد الثاني.

أما قصر الحرانة فيجب علينا مقارنته بالقصور الأموية الأخرى لنؤرخه، فهو يشتمل على جدار مربع مصمت به برجان نصف دائريين، وله مدخل واحد في الجدار الجنوبي، ويتبعه دهليز يوصل إلى الفناء الرئيسي والجزء الخاص بالسكن يحتوى على ٦٠ غرفة كلها تتفرج على الفناء في الدور الأرضي، والدور الأول، والقصر في حالة جيدة من الحفظ.

وعلى الرغم من أن هذه القصور يرجع إنشاؤها إلى خلفاء دمشق فإن بعض التفاصيل المعمارية والزخرفية توحى بتأثيرات بلاد ما بين النهرين أكثر من الطابع السوري أو الهلنستي.

ويقع قصر خربة المفجر على بعد كيلومترين من أريحا، ويتميز بآراء زخارفه المنحوتة في الحجر، وفي استخدام الجص، وتليبيسات الفسيفساء.

وجدار القصر مربع ومصمت به برجان نصف دائريين والمدخل الذى يقع فى مقدمة البناء يوصل بدوره إلى الفناء المركزى، ويحيط بالفناء حجرات متعددة تلتحم من الداخل بالجدار، ويعد الحمام هو أهم عنصر فى هذه العمارة، فهو يتكون من صالة أعمدة، وتبليطات من الفسيفساء، وأقبيته تحمل القبة المعلاة، وفى إحدى زواياه تقع غرفة وقد بلطت بزخارف من الفسيفساء كما يحتوى على عناصر مستوحاة من الطبيعة ترمز إلى شجرة تفصل بين مجموعتين من الحيوانات، وحفائر "خربة المنية" لا تبعد كثيراً عن منطقة طبرية، وتتبع بالكثير من الاكتشافات المستقبلية ذات الأهمية.

الزخرفة:

تعد الزخرفة والأساليب التقنية المنتبعة مزجاً ما بين العنصرين الهلينستى والآخر الإيرانى وأحياناً نجد بعض الأعمال الزخرفية وقد بعدت تماماً عن كلا التأثيرين السابقين، وفى كلتا العمارتين السابقتين سجل للتأثيرات التى تشير إليها، وبالنسبة لأقدم العماائر المؤرخة؛ قبة الصخرة والجامع الكبير بدمشق حيث استخدمت فيهما الزخارف المكونة من مكعبات صغيرة من الفسيفساء وقد شكلت من عجينة الزجاج الملون والمذهب الذى يضيفى الضوء على المكان كالأصداف أو اللؤلؤ.

وبالنسبة للأساليب التقنية، وسجل الزخارف والموضوعات التى تشتمل عليها فهى بيزنطية، مع بعض العناصر المستقاة من التقاليد الهلينستية، وقد طغت الزخارف النباتية على العناصر الأخرى وخاصة زهرة الأكنثس والكرم المستوحى من نماذج النبات الكلاسيكى، والذى استخدم قديماً فى المعابد الوثنية وفى البازيليكا المسيحية.

ويكفي أن نحلل العناصر الزخرفية لنرى الدور المهم الذى لعبه الفن اليونانى الرومانى فى قبة الصخرة، وهناك أيضاً بعض التأثيرات من بلاد فارس كالأجنحة المتماثلة والأشرطة المتموجة.

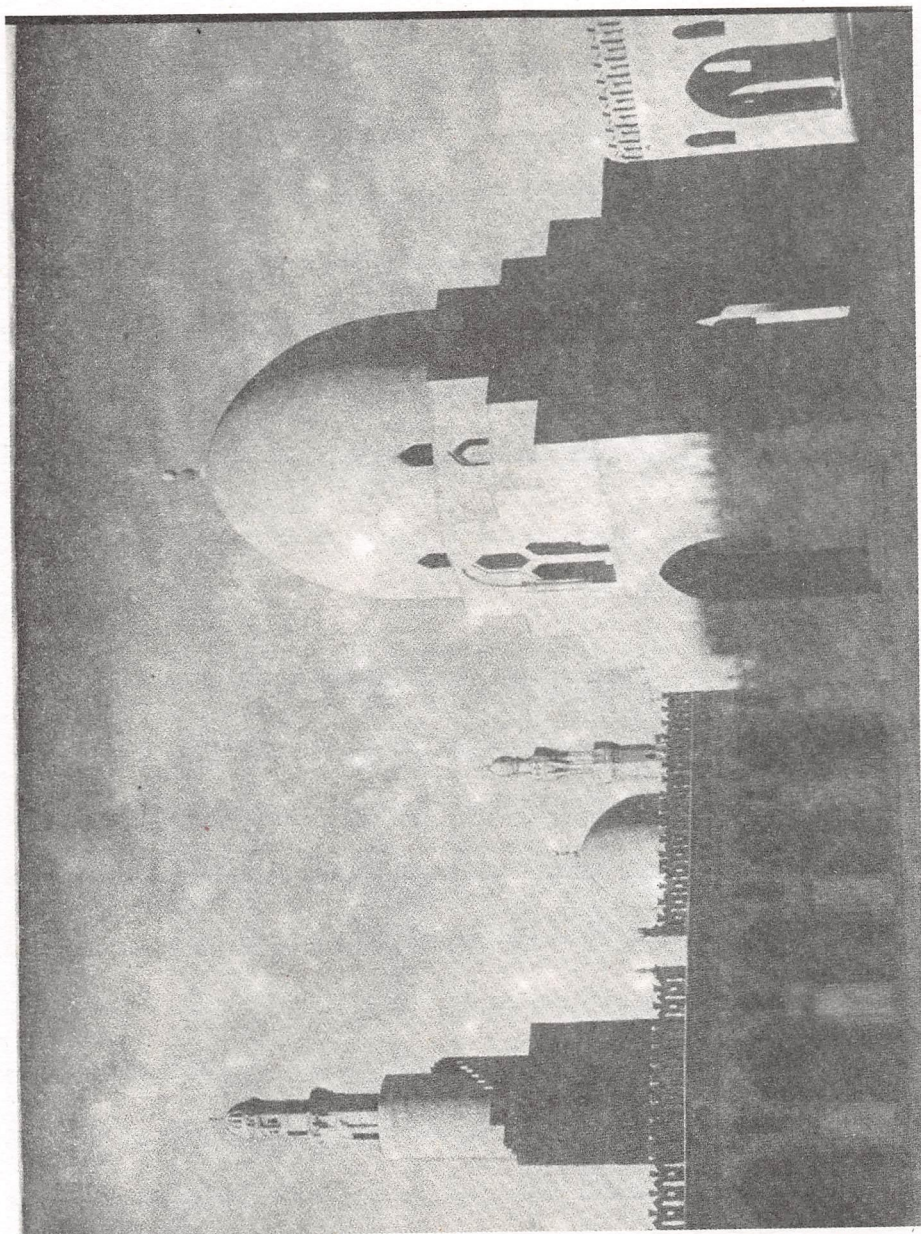
وزخارف الفسيفساء فى الجامع الكبير بدمشق خالية تماماً من أى تأثير إيرانى بعد أن حللنا بعض البلاطات المزخرفة بالفسيفساء، والتصاویر تحتوى على مناظر طبيعية كالأشجار الكبيرة، والعماير الخيالية التى تتشابه مع سجل زخارف مدينة بومبى أو البسكوريال، والمسجد الأقصى بالقدس. يمكننا تأريخ النحت على أخشاب سقف الجناح الأوسط بالعصر الأموى، وفى أعلى الكمرات التى تقطع هذا الجناح قد ثبتت بواسطة ألواح أو لوحات احتوت على رسومات متنوعة، ومن أهم العناصر الغنية بزخارفها هى النيشة أو الفجوة المسطحة من الداخل ذات عقد مزدوج يركز بدوره على عمودين صغيرين ويحيط بالزخرفة النباتية التى تتألف من غصن الأكنثس أو الكرم المغروسة فى داخل السلة أو كأس بعروتين، وبالنسبة لعنصر المقنطرة فقد احتوت على أوراق محورة ترجعنا للفن الهلينستى، كما استخدمت لوحات من العاج تشتمل على موضوعات دينية ذات طرز بيزنطية، مما أبعدنا عن التأثير الساسانى، ويمكن أن نرجعها لأعمال بعض الفنانين السوريين المسيحيين أو ربما يكونون قد أسلموا حديثاً.

وبالنسبة لبعض اللوحات الأخرى، فيمكننا أن نرجح بعض تأثيراتها لفنانين أقباط، ويعد التصوير الجدارى أهم عنصر زخرفى فى قصر عمرة، وقد استطعنا تأريخه من خلال تلك الجداريات التى تحتوى على مجموعة من الأشخاص وقد كتبت أسماؤهم باللغة العربية واليونانية، وربما يكونون بعض الحكام الذين خضعوا للملوك الأمويين.

أما الأستاذ أولج جرابار "Oleg Grabard" فى دراسة حديثة له يرى أن هذه التصاوير الجدارية تمثل حكام الأقاليم التابعة للخليفة مباشرة، وبالإضافة إلى بعض التكوينات الغامضة والتي تحتوى على رموز مختلفة، ومناظر للصيد، وممارسة الألعاب الرياضية المختلفة، والحرف المتباينة، وبعض السيدات العاريات، كما تظهر أيضًا نصف القبة السماوية مع مجموعة النجوم السيارة، وهكذا نجد أنفسنا أمام القائمة الكلاسيكية والتي تألفت منها قائمة الموضوعات الزخرفية التي زخرفت بها حمامات خلفاء دمشق.

وزخارف قصر المشتى التي زخرفت بالزخارف المنحوتة المحفوظة حاليًا بمتحف برلين.

والحليات المعمارية الكبيرة تقع فى الجزء السفلى وبارتفاع نصف الجدار تقريبًا، والفاصل الذى يفصل بينهما مملوء بزخارف من المثلثات الكبيرة المتراسة بجانب بعضها ومن حولها الرصيعات البارزة التي أدمجت فى المركز مع المثلثات، وتتبع منها زخرفة نباتية تتكون من أغصان وعناقيد من العنب تتدلى من أنية زهرية تتوسط الإطار السفلى، كما لعبت بعض المناظر الحية دورًا مهمًا فى نقوش قصر المشتى، مثل الأسود والعنقاء وهى تتشاكس، وبعض المجنحات على غصون الحجنة "زخرف الصراع"، وبعض الوجوه الآدمية، والمخلوقات التى تشبه الإنسان والمستوحاة من الفنون الوثنية مثل السنتور وأبو الهول، وقد اشتقت معظم هذه العناصر من القائمة الهلينستية.



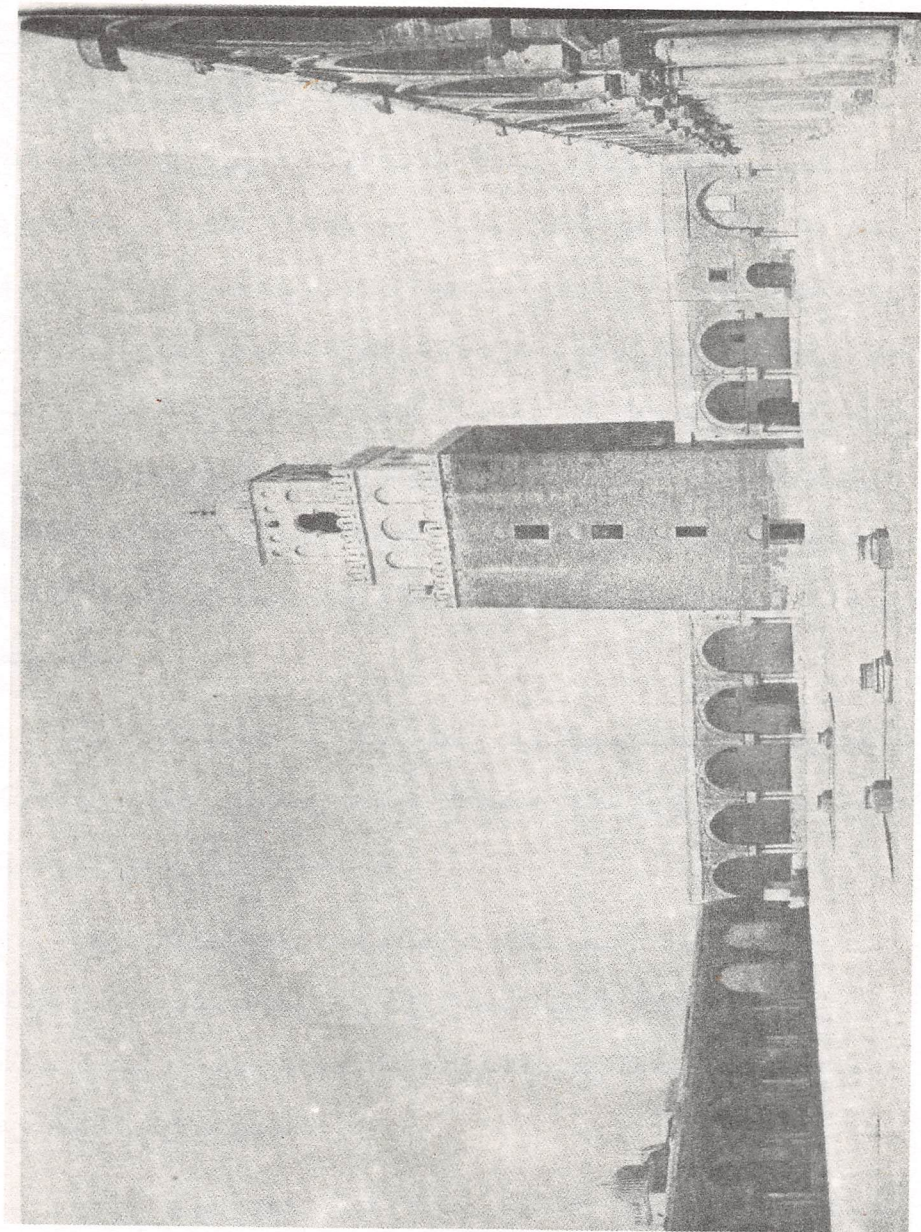
لوحة (٦) مسجد ابن طولون - الصحن والمئذنة

أما التتین ذو ذیل الطاووس وبعض الوجوه الأخرى فهی مستقاة من التقالید الإیرانیة. وقد كان نصیب قصر الحیر وافرًا من تلك التقالید، فقد کسیت الجدران وأرضیات القاعات فی القصور الأمویة بتلك الرسومات، كما وجدنا تصویرًا للتتین - الطاووس الساسانی، إلا أن ما لفت نظرنا هنا هی واجهة هذا القصر، وكانت هذه الواجهة ترتفع حوالی ١٦ مترًا، وبها برجان مصمتان فی المدخل وقد زخرفت عن آخرها بداية من عتب الباب بزخارف نحتیة مقطعة من الجص، كما قسمت المساحات إلى لوحات مستطیلة وملئت من الداخل بمربعات أو مثنیات متجاوزة وزخرفت بعناصر نباتیة متمائلة. وهناك زخارف من الوجوه الآدمیة، والتیجان تتكون من بعض المجموعات الممثلة فی البروز العلویة تبدو وأنها مستوحاة من زخارف التوابیت من مدینة بالمیر.

وفی لوحة الجبهة على الباب یظهر فیها تتویجًا للملك ویظهر فیها التاج یعطوه جناحان، وبعض الملابس كالقمصان والسرایل الفضفاضة وكلها ترجع إلى عصر الملوك الساسانیین.

وقد ترددنا فی نسب هذه الصورة لخلفاء دمشق لأن المجموعة التی تشكل زخارف قصر الحیر تبدو كثیرة التعقید لتداخل التأثير الإیرانی مع التقالید العتیقة والمحلیة لمدینة بالمیر، إضافة للتأثیرات الهلینیستیة المعروفة فی أقطار البحر المتوسط.

وقد بدأ ظهور بعض الخطوط مثل استخدام الجص وتقسیم اللوحات إلى مثنیات، وتحویر بعض العناصر النباتیة الذی يعد بداية لطراز إسلامی بحث.



لوحة (٧) الجامع الكبير بالقيروان - الصحن والمئذنة

الفصل الثاني

الفن العباسي

وبعد أن حل العباسيون مكان الأمويين في منتصف القرن الثامن اعتبر هذا حدثاً جليلاً في التاريخ الإسلامي، فانتقال عاصمة الخلافة من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين؛ أي من دمشق إلى بغداد بعد أن سقطت الخلافة العربية الأموية في يد الفرس وقامت خلافة عباسية جديدة تبدل فيها النظام أيضاً من السلطوي الأبوي القديم القائم على أعراف القبيلة إلى نظام تيوقراطي ذي طابع شرقي، وهذه هي العوامل التاريخية التي سوف تؤثر على تطور الحضارة الإسلامية وعلى شتى مجالات الثقافة والفنون.

والمنشآت الأموية التي شيدت وزخرفت بأيادي عمال سوريين، ومن مدينة القسطنطينية، أو من مصر قد ظلوا أوفياء لتقاليدهم المسيحية القديمة ومتأثرين بالتقاليد المعمارية والفنية السائدة حينذاك في عمارة الكنائس المنتشرة في ربوع الأقاليم المطلّة على البحر المتوسط حيث كان الإسلام مازال حديثاً، أما عمائر العباسيين فقد نفذت بأيادي فنانيين عراقيين وفرس حيث الصبغة الواضحة للتقاليد الإيرانية والتي تنتمي إلى قصور الملوك الساسانيين، ومن أهم ما بقي لنا من العصر الساساني المؤرخ نصف الجزء الأول من القرن الثالث والقرن السابع الميلادي هو "طاق كسرى" أو قصر "تسيفون" الشهير الذي يتطابق مع أحد قصور العباسيين. ودون الدخول في وصف قاعات هذا القصر وقاعات الاحتفالات والغرف المعيشية يكفينا فقط أن نوضح الخصائص الرئيسية التي انتقلت إلى العمارة الإسلامية.

وبينما احتفظت سوريا المسيحية ثم الإسلامية بالتقاليد القديمة فى استعمال الحجر المقطع، وترتيب الحجارة فى الجدران فإن بلاد ما بين النهرين، وبلاد فارس الساسانية لم تستعمل من مواد العمارة سوى الدبش، الأجور والطوب المحروق فى الفرن أو المجفف فى الشمس، وقد استخدم الطوب فى أغراض متعددة؛ فى بناء الجدران، وفى الدعامات المنفصلة، وفى الأساطين التى حلت محل الأعمدة، كما أن خاصية الأجور من خفة وزنه، وسهولة مزجه بالملاط قد ساهم فى استخدامه بكثرة فى تشييد الأقبية التى سقفت بها القاعات، كما أن الندرة فى توفير أخشاب البناء قد استعوض عنها باللجوء إلى استخدام الأقبية المقطعة فى هيئة شرائح مثل القنطرة (القالب الخشبى النصف دائري) وهى أحد أساليب القولية المعروفة فى العمارة البيزنطية، والقصور الأموية التى ترجع إلى أصولها فى بلاد ما بين النهرين المنفذة من الأجور، وكان عامل البناء يقوم بوضع الصف الأول من الآجر عند نهاية الجدار المنتصب ليرسم هيئة القبو الذى سوف يقوم بتنفيذه، ثم يضيف صفاً آخر من الطوب مكملاً للشرائح بطريقة متتالية ليتقدم من أعلى المساحة المطلوب تغطيتها، وهكذا يشكل القبو البرميلى أو النصف دائرى والذى أثر على هيئة العقد الأبيض ذى الشكل الإهليجى والذى عرف بالعقد المنحنى. وهذا المقطع الجانبى قد استخدم بكثرة فى عمل القباب فى العمارة الساسانية، كما شاع استخدام القباب فى العمارة الساسانية، والجدران كانت تقام لتحدد شكل القاعة المربعة، ثم ترتفع القبة بواسطة عقود الزاوية، والعقود عبارة عن نישات تحتل الزوايا ولكنها تختلف عن مثلثات القبة فى العمارة البيزنطية.

ومن أهم طرز القاعات التى استقاها الإسلام من عمارة بلاد ما بين النهرين أو من بلاد فارس والتى لاقت نجاحاً كبيراً فى العمارة الإسلامية هى "الإيوان" وهو عبارة عن قاعة تتفتح إلى الخارج بذون جدار فى الواجهة، ثم نصل إلى مساحة محددة بواسطة ثلاثة جدران على هيئة نيشة عريضة ومسطحة من الداخل، وفى طاق كسرى والقصر الكبير "تسيفون" يظهر الإيوان وقد غطى بقبة يبلغ عرضها ٢٦ متراً، وارتفاعها ٣٤ متراً أعلى من سطح الأرض، وقد أثرتنا أعمال التقيب الأخيرة فى قصر "تسيفون" والمساكن الملحقة به بالكثير من المعلومات عن الزخارف، والعمود فى القصر كان أحياناً خالياً من التاج، وأحياناً تعلوه عصابة بارزة، كما وجدنا تيجاناً أخرى ذات طرز مختلفة، وإذا تناولنا العقود فهى الأخرى كثيرة التنوع، فوجدنا العقد الكامل الشبيه بعقدنا الرومانى، والعقد الحاد، والعقد ذا حدوة الحصان، كما وجدنا اللوحات الزخرفية التى تشتمل على رسوم حيوانية والتى لعبت دوراً مميزاً فى الزخارف المنفذة فى قوالب من الجص، وبالنسبة لعاصمة الخلافة التى بناها المنصور ثانى الخلفاء العباسيين فلم يتبق منها شيء، وقد تعرفنا عليها بالرجوع إلى بعض النصوص التاريخية التى ذكرت أن المدينة كانت محاطة بسور دائرى متكامل يصل قطره إلى حوالى ٣ كيلومترات، ويتوسطه قصر الخليفة، ولم يُقم المنصور طويلاً فى بغداد فقد هجرها ليقوم فى مدينة أخرى وانتهى للأسف لم يتبق منها أى أثر معمارى.

وإذا أردنا التعرف على ملامح العمارة الدينية والمدنية لذلك العصر، فعلينا أن نقطع مئات الكيلومترات باتجاه الناحية الشمالية لدراسة بقايا مدينة سامراء الواقعة على ضفاف نهر دجلة، ثم نقطع مسافة أطول حتى نصل إلى

مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات، وقد استحسن سبع من الخلفاء العباسيين الإقامة في مدينة سامراء بدلاً من بغداد (عام ٨٣٨-٨٨٩)، فعرفت بمدينة الأمراء ثم هجروها بعد إقامة دامت نصف قرن، وقد أرخت عمائر تلك المدينة بدقة متناهية.

العمارة الدينية:

تتمثل العمارة الدينية في عمارتين دينيتين: الأولى هي الجامع الكبير بسامراء، والثانية هي جامع أبي دلف والذي يقع على بعد ١٥ كيلومتراً شمال جامع سامراء، وكلاهما يتميزان بالاتساع الشاسع حيث تتخطى مساحتهما ٢٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب، كما يشتملان على بعض العناصر المتشابهة والتي تميزهما عن مساجد سوريا والتي سبق وأن شاهدناها، وقد بنى السور بجدران قوية من الطوب، ودعم بأكتاف نصف دائرية، والصحن الذي تحيط به الأروقة يحتل مساحة أعلى بكثير من المساحات المغطاة.

والجامع الكبير بسامراء لم يبقَ منه أى دعامة من دعامات الأجنحة، إلا أن أعمال الحفائر قد وضحت لنا تفاصيلها، فالدعامة لم تقل عن عشرة أمتار، وقد شكلت على هيئة دعامة رقيقة مثمنة من الطوب، وترتكز على قاعدة البناء وقد توجت رجل العقد المربعة الشكل، وهناك أربعة أعمدة استقرت في المحور المثمن، وكل عامود كان يتألف من ثلاثة أبدان نقلت من العمائر القديمة وقد ركبت فوق بعضها، والسقف يرتكز مباشرة على دعامة لا تربط بينها العقود (انظر لوحة ٤)

وبالنسبة لدعامات جامع أبى دلف فهي أقل متانة، وقد بقى لنا منها الكثير والتي تعطينا فكرة واضحة للمبنى من الداخل، فهو يحتوى على أساطين ضخمة ومستطيلة مشيدة من الطوب المحروق (بينما السور المحيط بالجامع بالطوب اللبن)، وهذه الأساطين والعقود التى تحملها قد حددت اتجاهات الأروقة مثل أجنحة البازيليكا المسيحية أى باتجاه العمق، وهناك ١٧ عقدًا شكلت خمسة أروقة، والرواق الأوسط أعرض من الأروقة الأخرى، وجدار القبلة الذى غرس به المحراب يحتوى على مجاز يشبه الجناح فى رواق القبلة.

وإذا كانت تلك الخصائص فى تخطيط الجامع تذكرنا ببعض العمائر المسيحية، فإن هيئة المآذن فى كلا الجامعين تشبه (الزقورات) الخاصة بالديانة المجوسية أى الدين القومى لإيران قديمًا، والتى تقام على بعد مسافة بسيطة من المسجد قبالة الجدار الشمالى وتتكون مؤذنة جامع سامراء من محور أسطوانى يلتف من حوله سلم حلزونى وهذه الكتلة من البناء تقل كلما ارتفعت إلى أعلى.

وقد أصاب مؤذنة أبى دلف الكثير من عوامل التلف، وتشبه مؤذنة سامراء، وقد قمنا بمقارنتها "بالآتشجاه" أو الأبراج المجوسية القديمة التى شيدها الساسانيون لعبادة النار والتى ظلت إلى اليوم تحتفظ بذكرى بلاد فارس القديم.

العمارة المدنية:

وكما استقينا من مدينة سامراء نماذج تخطيط المساجد العباسية فقد أمدتنا أيضًا بمعلومات عن أماكن استقرارهم والأبنية المعيشية في العصر العباسي، وعلينا أن نبدأ أولاً بدراسة قصر الأخيضر الذي يقع على بعد ١٢٠ كيلومترًا جنوب غربى مدينة بغداد والذي يمثل تخطيطه مرحلة انتقالية ما بين قصر المشتى الذى بناه الأمويون وعصر سامراء التى شيدها خلفاء هارون الرشيد، ويرى الأستاذ كرزويل أن عيسى بن موسى وهو أحد أمراء العباسيين الذى شيد قصر الأخيضر ثم أقام به عام (٧٧٨)، وتخطيط القصر يشبه المشتى حيث يميل إلى التربع، ويصل طول ضلعه إلى ١٧٠ مترًا ويحيط به سور مدعم ببرجين نصف دائريين ليشتمل على مجموعة مركزية من الأبنية المتماثلة، وعلى بعض العماير الجانبية التى تحتوى على أفنية واسعة، وقد فتح باب فى الواجهة الشمالية من السور يوصل إلى دهليز عميق محاط بمجموعتين سكنيتين، ومن الدهليز نصل إلى الفناء الكبير وقد زخرفت جدرانه الأربعة بفجوات أو نيشات مسطحة تعلوها قباب نصفية، وعند نهاية هذا الفناء الكبير تفتح على قاعات الاستقبال، وفى المحور نجد القاعة المؤلفة من ثلاثة أجنحة مثل الشكل النفلى الموجود فى المشتى وقد حل محله الإيوان وملحق به قاعة مربعة يذكرنا بالإيوان الذى على النمط الإيرانى، وهو عبارة عن قاعة مقببة بقبو برمبلى، ومصمت من جوانبه الثلاثة وينفتح إلى الخارج من خلال الجانب الرابع. ومن الجهة الأخرى نصل إلى فناء نقر فى آخره إيوان أقل حجمًا.

وهذا الجزء الأوسط قد ألحق به من الجانبين اليمين والشمال قاعات وقد رتبت حول أربعة أفنية مربعة وتحتوى هذه القاعات الأربع على إيوانين مجابهين لبعض ويؤديان مباشرة إلى ساحة مكشوفة أو إلى رواق يقع على أحد جانبي تلك الساحة، والمجموعة الأخيرة المؤلفة من الإيوان (والرواق الداخلي) قد شكلت شكلاً تخطيطياً مثل حرف (T) اللاتيني الذى وجدناه فى سامراء، والدور الأول من القاعات يعلو الدور الأرضى، وعلى الرغم من تلك البناية المعوزة، فإن ما تبقى لنا منها أوضح لنا بعض النماذج المتنوعة من الأقبية؛ فهناك القبو البرملى، والمدعم بالعقود الثنائية، والمزخرف بزخارف من النقش البارز، وذو السقف البرملى والمستعرض وقباب مضلعة وأقبية ذات زوايا بارزة، أما عقود الأبواب والأروقة فهى عقود كاملة، وعقود الدخلات أو النيشات قد أثرت على التخطيطات ذات حدة الحصان والأخرى المقطعة فى شكل فصوص دائرية وقد استخدمت كل هذه الأنماط فى الشرق كما استخدمت فى الغرب، وقد تعرضت قصور مدينة سامراء لكثير من عوامل الهدم والتفتت نظراً لما كان يقوم به بعض المنقبين من إعادة استخدام طوب تلك الأبنية، ومن أهم هذه العناصر الجوسق الخاقانى الذى بناه المعتصم بن هارون الرشيد فى عام (٨٣٦)، وقد ظهر هذا المبنى فى شكل مرتفع، ملحق به شرفة تطل على الضفة الغربية لنهر دجلة، ويعرف هذا الجزء من القصر باسم "قصر الخلفاء" أو "تسيفون العرب" والذى يذكرنا بطاق كسرى، كما نفرت فى الواجهة ثلاثة إيوانات، والإيوان المركزى أعد لحفلات الاستقبال التى يقيمها الحاكم لمدعويه، ثم قاعة أخرى عرضها ٨ أمتار، وطولها ١٧ متراً، وقد شكلت قبتها بأشكال مقطعية وبارتفاع ١١ متراً أعلى من سطح الأرض، والإيوانات الجانبية أصغر

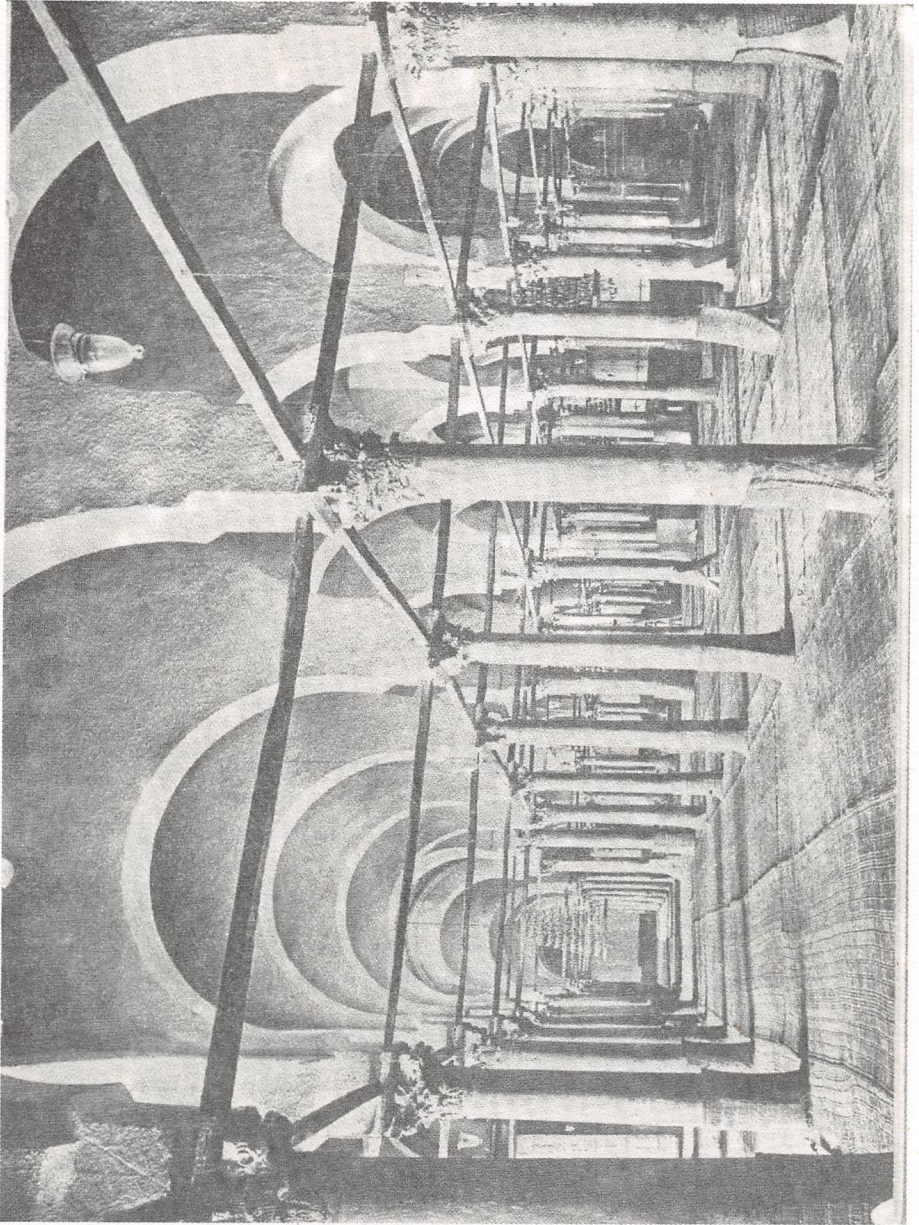
حجماً، وقد غطيت بقباب نصفية استخدمت كسقيفة للقاعات المحيطة بالإيوان المركزي، وهذا الإيوان بدوره يفتح على مجموعة من الحجرات الواسعة، يصل عددها إلى ست حجرات، وقد اصطفت الأبواب الواحد تلو الآخر، ثم نصل إلى فناء مربع وقد زخرف بفسقية، وبعض المنشآت الحديثة ربما تكون حجرات خاصة بالحريم لتلتف حول قاعة مربعة في تخطيط متعامد، ثم ننقل إلى رحبة واسعة محاطة بجدران، وتمر بها قناة وقد ملئت بنباتات الزينة، وفي أطراف هذه الرحبة يوجد نقب محاط بأروقة، وخلوات أو أكواخ مقببة ربما استخدمت كسراديب أرضية، وحجرات تحت الأرض ليستظل بداخلها من لهب الحرارة في أيام الصيف، وأخيراً نصل إلى مضمار للسباق الذي تمارس فيه لعبة البولو وبذلك نكون قد وصلنا لنهاية هذه المجموعة المعمارية.

وننتقل إلى القصر الثاني والذي عرف باسم "بلكوارا" الذي شيده على الأرجح الخليفة المتوكل (عام ٨٤٩-٨٦١) هذا القصر يتشابه مع تخطيط قصر المشتى، والأخضر والجوسق الخاقاني، ويتألف من سورين متتاليين، يقع في أوله الجزء الأوسط وبه فناءان مستطيلان، وعند التقاطع بينهما ترتفع المقصورة، والثاني يتألف من مجموعة معمارية متماثلة وينتهي بفناء، وتتألف تلك العماائر من الإيوانات الثلاثة التي تفتح على الواجهات الأمامية والخلفية والجزء الذي يفصل بينهما تقع به أربع قاعات مستطيلة، وقد خطت بشكل متعامد حول قاعة مربعة مثل الجوسق، وفي القاعات نجد الممرات وقد قطعت بزواوية قائمة غرس بها بعض الفراغات التي ربما تكون جهزت لنباتات الزينة.

وعلى الضفة الغربية من نهر دجلة وأمام قصر الخليفة يقع قصر العشاق والذي أُرُخناه بعصر الخليفة المعتمد (٨٧٨-٨٨٢)، وقد أخذ هذا البناء شكل القلعة أكثر منه سكنى للحاكم. ويتكون من سور مستطيل تبلغ أطواله (٩٠×١٣٠ مترًا)، وقد توج بكتلة ضخمة شكلها الإنسان ثم زودت بقنطرة يجتاز منها الخندق الموصل بين أحد الجوانب الصغيرة للمستطيل، والسور الرئيسى كان محاطاً ببروز مستديرة، وقد نقرت بينها النيشات بطريقة متتالية ليظهر العقد الرئيسى وقد قُطع فى شكل فصوص، وبالإضافة إلى عمائر الخلفاء التى مازلنا نفكر إلى الكثير من المعلومات بشأنها، فقد أمدتنا حفائر سامراء بالكثير من المعلومات عن العمائر والمنازل السكنية الخاصة والتى لا تقل أهمية بالنسبة لنا، وقد اتسمت تلك المنازل بالمساحات الكبيرة، كما ألحقت بها أعداد وفيرة من الحجرات، ويبدو أن هناك تخطيطاً عاماً قد أخذ به معظم المعمارين، فنرى المدخل والدهليز يوصلان للشارع أو إلى طريق غير نافذ إلى الفناء المستطيل والذي تتفتح عليها الحجرات، وقد استخدمت كثير من القاعات كمركز تلتف حوله الحجرات، ولا يظهر فى هذا التخطيط أى إشارة لوجود طوابق، بل كانت توجد كهوف أعدت كسراديب للوقاية من قَيْظ الصيف، وعلى أحد الجوانب الصغيرة المطلة على الصحن توجد دائماً قاعة على هيئة حرف (T) اللاتينى مثل قصر الأخيضر، ثم ننقل إلى جزء عريض يمتد بطول القاعة، وقد شكل على هيئة القضيبي الخارجى لحرف (T) بينما ظهرت رجل الحرف (I) فى جزء ضيق ليشكل التجويفة المنغرسه فى وسط الجدار الكبير المواجه للقاعة، وتوجد غرفتان فى الزوايا التى تزيد عن ١٨٠ درجة وتقع على جانبى التجويفة لتكون بذلك المستطيل الذى يحتوى على المجموعة المعمارية، وسوف نتتبع هذا التخطيط الذى انتشر فى شتى أنحاء الممالك الإسلامية.

الزخرفة:

احتوت القصور والمنازل على الزخارف الثرية، وأيضاً فى بعض دور السكن الخاص كانت النقوش الجصية البسيطة تزين أسفل الجدران المشكلة من الطين، وإطارات الأبواب وربما الأفاريز والأسقف المصنعة من الأخشاب المنحوتة والملونة، كما عثرنا فى أحد القصور على أعداد وفيرة من التصاوير الجصية، وقد كان المزخرف ملماً ببعض الطرز الزخرفية مثل الفسيفساء المصنعة بطريقة المكعبات الصغيرة، أو المقطعة من الأصداق، والخزف ذو البريق المعدنى، والصفائح المكونة من مربعات خزفية، وممن الإرث القديم انبثق شعاع فترة جديدة أطل بنوره على الفن الإسلامى ليلتحم بكيانه الداخلى كله.



لوحة (٨) الجامع الكبير بالقيروان - من الداخل

وسبق أن شرحنا الأنواع المتعددة من العقود وأشكالها المتنوعة المستخدمة في العقود بعد أن تم تطبيعها لتتلاءم مع الشكل الزخرفي وليس المعماري فقط، فظهرت العقود الكاملة، والحادة، والنظلية (ذات الثلاث وريقات)، والمتعددة الفصوص، والمقطعة، والعقد الباروكي الذي استخدم في الفتحات، وفي دخلات النيشات، وقد أمدتنا الآثار الباقية من أنقاض مدينة سامراء ببعض أنواع التيجان، كما عثرنا على تيجان أخرى من مدينة الرقة والتي تنتمي في أغلب الأحيان لنفس الفترة، وهذه التيجان ترجع في أغلب الظن لأصلها الكورنثي، وهي تتألف من ثلاث إلى أربع وريقات منتصبة إلى أعلى ثم تتحنى بشكل عصا الأسقفية لتحمل الزوايا الأربعة لعصابة تاج العمود، والحنية هنا عبارة عن جذع صنوبري أو مخروطي أو جرسى مسطح، والأوراق ناعمة ونادراً ما تكون مقطعة، والمساحة كانت تغطي كلها بواسطة الزخارف النباتية أو الزهرية المحورة حيث يظهر سعف النخل والوريدات في شكل مقطعي وكأنها خطوط متعرجة، أما الزخرفة ذات الخطوط الغائرة فسوف تظهر في الزخارف الجصية.

وقد قام الأستاذ " هرتزفيلد Herzfeld "، بدراسة شاملة لأنواع مختلفة من هذه الزخارف الجصية وقد صنفها في ثلاثة أنماط ذات أصول متباينة:

الطراز الأول ينتمي إلى التقاليد الهلنستية التي تأصلت في بلاد ما بين النهرين من عصر البارثيين، والعناصر الكلاسيكية فيها متعددة؛ فهناك الأوراق النباتية الناعمة المنتصبة والمستوحاة من الأكنتس وفصوص اللؤلؤ، والأغصان، وكيزان الصنوبر غير أن الأجنحة النخيلية ذات الأصل الإيراني

التي كانت منتشرة، والتحوير في الأشكال الزهرية، مع غزارة الزخرفة لا تنتمي إلى التقاليد الكلاسيكية، وأيضًا سعف النخيل والوريدات التي تلتحم مع بعضها بدون سيقان ولا تحتوى بداخلها على عناصر زخرفية ثرية بل تلتصق مع بعضها كما تتداخل الأشكال فيها ولا يفصل بينها سوى خط غائر، وقد كانت المساحات المطلوب زخرفتها تقسم إلى مصلعات متنوعة، كما كان يحيط بكل مصلع شريط وقد ملئ بالحبيبات، وهذه المصلعات أصبحت أكثر تنوعًا في الطراز الثاني، فظهرت المربعات، والمعينات، والنجميات، والفصوص المتعددة التي أصبحت تشكل المساحة الكلية للإطار.



لوحة (٩) إناء من السيراميك - نيسابور

وقد احتوت هذه الأجزاء على زخارف هندسية تتألف من أشكال نباتية محورة عن الطبيعة وقريبة الشبه بزخارف الطراز الأول، ولكنها تظهر هنا أكثر جرأة، وقد نفذت على مساحة مصغرة، كما ملئ الداخل ببعض المربعات المصطنعة والمركبة مثل تركيبات القرميد أو على هيئة بعض الزخارف الخرسانية مثل قشور حبة الصنوبر، وهذا الطراز ذو تأثير ساسانى، ثم تنتقل إلى الطراز الثالث والأخير والذي يبدو طبيعياً، وعناصره النباتية يسهل التعرف عليها، فورقة العنب المصاحبة لعنقود هرمى الشكل تلتصق بساق لين فى شكل الغصن، وقد اعتبر الأستاذ هرتزفلد هذا الطراز الثالث محلياً من بلاد ما بين النهرين.

وأثناء القيام ببعض أعمال التنقيب حديثاً فى الحيرة، وهى المدينة التى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات وقد ازدهرت فى القرن السابع وجدنا بعض الزخارف الجصية التى تنبئ بالطراز الثالث من زخارف سامراء، وفى الواقع إن هذه الطرز الثلاثة تمثل الخطوط العامة حيث نستطيع أن ننقل من طراز لآخر دون المزج بينها، والأنماط الثلاثة وخاصة الأخير منها؛ فيها أكثر من عنصر من ملامح الزخارف الهلنستية فى القدس، وخاصة فى قصر المشتى، فوجدنا نفس الأشكال، ونفس الفصائل النباتية وخاصة الكروم الذى ظهر فى بعض الزخارف العباسية كما ظهر سابقاً فى الزخارف الأموية، وهنا قد تأكدت شخصية زخارف سامراء باستعمالها لعناصرها التقليدية بشكل مكتمل ومتماسك وباستخدام زخارف مؤلفة من المضلعات التى تحيط بها الأشرطة، وهناك ملاحظات أخرى خاصة

بالزخارف المرسومة، والتي ظهرت بكثرة فى قصر سامراء، فوجدنا الوجوه الأدمية والحيوانات التى لعبت دوراً أكثر أهمية كما نراها أكثر جرأة مما يدل على حرية التفكير الذى تمتع به سادة هذا العصر دون التقييد بالمحظورات والمحرمات التى عاودت الظهور مرة أخرى فى العصور التالية، ومن فصائل الحيوان وجدنا النمر، والأرنب البرى، والكلب، والعنز البرى، والدرباني (وهو حيوان بديي)، والنسر، والحمام، والطيور المائية، والبشون، والكركى، والبط، كما زخرف سرداب القصر بإفريز مزخرف بنقوش غائرة عليها زخرف رسومات للجمال، وبالنسبة للزخارف الأدمية وجدنا مناظر لبعض السيدات والراقصات العازيات الصدر وهن يحملن القرابين، وتصويراً للصيادين، والدود البحرى، كما وجدنا صوراً لبعض القديسين المسيحيين، ومن خلال تلك الرسومات تظهر لنا العناصر الهلنستية التى تختلف قليلاً عن تصاوير الحمامات الأموية فى قصر عمرة، فالألوان هنا كانت أكثر ثراء ولمعاناً وقد استعمل اللون مباشرة على السطح الأملس وخلا من التجسيمات وقد أحيط بخطوط واضحة من اللون الأسود، مما أظهر الرسم أكثر جرأة وبهجة مؤكداً انتماءه لمنطقة آسيا.

فنون الأثاث:

وإذا كان العصر الأموى فى دمشق لم يترك لنا قطعاً من الأثاث تساعدنا على تأريخه فإن العصر العباسى كان أوفر حظاً من حيث القطع التى وجدناها منه.

النحاس والبرونز:

وبقى لنا أن نحدد جميع الأساليب التقنية مع تحديد التاريخ أو العصر الذى صنعت فيه قطع الأثاث والمحفوفة لدينا حتى الآن وهو ما ينطبق على النحاس والبرونز، فالأباريق ذات العروة وبعض الأوانى الأخرى ذات الأشكال الحيوانية كثيراً ما نورخها بالعصر الساسانى وفيها تداخل مع بعض القطع الإسلامية، وبداية من العصر الأموى والعباسى ظهرت صناعة بعض قطع الحلى الذهبية والفضية المطروقة على النمط الساسانى.

النسيج:

بالنسبة للنسيج فقد سهل علينا تأريخه، فهناك قطع مؤرخة عرفت باسم "الطراز"، وهى كلمة فارسية تعنى كل ما يصنع أو ينسج للحاكم ويكتب عليها اسمه وهى دور "الطراز" الرسمية والتي عرفها البيزنطيون أيضاً.

وكان يلحق "بيت الطراز" بقصر الخلفاء حيث تنسج الأقمشة حاملة لاسم الحاكم، ثم يقوم بتوزيعها على كبار المسؤولين فى الدولة وكبار الزوار الذين يستقبلهم من الخارج، وأصحاب المقام العالى من الموظفين. ويعد "الطراز" و"دور ضرب النقود" من الامتيازات التى تتمتع بها السلطة الملكية الحاكمة.

وقد عرف "الطراز" منذ العصر الأموى بدمشق إلا أنه لم تصل إلينا سوى قطعة واحدة تحمل اسم أحد الخلفاء الأمويين، بينما وصل إلينا أكثر من ٥٨٨ قطعة نسيج كتبت عليها أسماء الخلفاء العباسيين كما كان يصاحب هذه الأسماء بعض الأدعية بالسعادة والهناء وقد خطت أو نسجت بالخط الكوفى،

فى هيئة أشرطة كتابية مذهبة وملونة تلتصق بملمس القماش ذى اللون
الأوحد وغالبًا ما يكون من الكتان أو الحرير.

الزجاج:

تركت لنا آثار مدينة سامراء أعدادًا وفيرة من القطع الزجاجية مثل
الزجاجات الخاصة بالعطور، والقناديل، والقصعات، والكؤوس، وقد ظهر
تباين واضح فى الأساليب التقنية وفى الألوان فهناك الزجاج المصنوع فى
قوالب، والمزخرف، والمصقول وقد زخرف بالمينا، كما تم ترصيعه بعجينة
شفافة متعددة الألوان.

الخزف:

يعد الخزف من أهم الفنون التى توافرت لنا بأعداد كثيرة من العصر
العباسى، وفى كل من مدينة سامراء، والرقعة، وسوس، وراجم وجدنا إحياءً
للأساليب التقنية القديمة فى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ويعد من
مفاخر فارس فى عصر الملوك العظماء، وفى بلاد ما بين النهرين عُرف فى
عهد الخلفاء فن الخزف غير المطفى، أو المطفى بالمينا، والمزخرف بواسطة
الحفر، والمختوم بالقالب، والمقطع بأحجام صغيرة، والخزف ذو البروز
المصنعة من الصلصال أو التى رسمت عليها بالريشة بعض النقع المتفرقة
والمحددة باللون الأسود لكل قطعة على حدة حتى لا تمتزج الرسومات مع
بعضها، وقد وجدنا هذا الأسلوب المشابه الذى عرف باسم "cuerda seca"
المنتشر فى بقاع كثيرة من الإسلام.

والخزف ذو الزخارف الزرقاء، والخضراء، والصفراء من الأنماط
الواسعة الانتشار.

ومن أهم وأروع الأساليب التقنية فى صناعة الخزف والتي مازالت
أصولها غامضة حتى الآن هو الخزف ذو البريق المعدنى.

فعلى السطح الخزفى الأبيض لتلك القطع كانت تقطع الأشكال المتنوعة
حيث تتراوح ألوانها من الذهبى الفاتح ليصل إلى الأحمر الغامق والذي ينبثق
منه بريق إذا ما تعرض للضوء.

وهكذا ساهمت سامراء وبعض المراكز الممتدة فى البقاع الآسيوية
بنصيب وافر من الأعمال الخزفية لتكمل ملامح هذه الأسرة الفنية. وبخلاف
ذلك فإن من أثرى المجموعات الخزفية قاطبة هى تلك الإطارات التى
زخرف بها محراب جامع القيروان الكبير.

الفصل الثالث

الفن المصري

العمارة الدينية:

لمعرفة تسلسل الأنماط الفنية من عصر العباسيين العظام مثال ما أمدتنا به من معلومات بقايا مدينة سامراء، وجب علينا أن نخرج من آسيا حتى نصل إلى أفريقيا ثم نتوجه إلى بلاد المغرب.

مصر وإفريقية (تونس الحالية) اللتان لم تتأخرا في أن تلحقا بركاب جيرانها تعترفان بالهيمنة الروحية، والمكانة الفكرية لخلفاء بغداد في القرن التاسع.

ويتضح ذلك من المدينة والتي مازالت منشأتها ضخمة تعود إلى القرن الأول الهجري جامع عمرو بالفسطاط والذي تم توسعته خمس مرات بداية من عام (٦٤٣) والذي وصلت مساحته إلى ما هو عليه الآن عام (٨٢٧)، أى واحد وعشرون عامًا قبل إنشاء مدينة سامراء، على الرغم مما لحق به من بعض الترميمات المهمة منذ القرن التاسع، فإنه مازال محتفظًا بتخطيطه الأول.

وبنى الجدار من الطوب بشكل مستطيل مساحته (١١٠×١٢٠م) ليحيط بالصحن الكبير المربع والمحاط بالأروقة، وبجانب القبلة (أى من الناحية

الجنوبية الشرقية) قاعة الصلاة والتي تحتل بدورها كل عرض الجدار المحيط أى (١١٠م) ويصل طولها إلى (٣٤م).

ويوجد فى الجامع واحد وعشرون صفاً من الأعمدة التى تحمل بدورها السقف والتى تشكل المقصورة الكبرى أى قاعة الصلاة.

والعقود الموجودة فى الأعمدة اليوم تحدد ٢٠ جناحاً متعامداً مع جدار القبلة. بينما كانت تلك العقود فى الأصل تقسم القاعة أو الرواق إلى ستة أجنحة مستعرضة أى بالتوازى مع جدار القبلة على نفس النسق الذى كانت عليه الأجنحة فى الجامع الكبير بدمشق.

وعلى الرغم من التغييرات فى الاتجاهات والتعديلات فى الجامع، فقد احتفظ بصف من الأعمدة بطول الجدار الجنوبي - الغربى والتى تعطينا فكرة عن الترتيب الذى كانت عليه الدعامات فى الأصل وتفصيلها، وكلٌّ من الأعمدة والتيجان مجلوبة من أبنية عتيقة. ويحتوى التاج على صينية سميكة مصنوعة من الخشب تشكل كتف العقد أو طبلية التاج، ويعلوه سطح معمد من الخشب يحتوى على إفريز وكورنيش، وتوجد مشدات للكرامات بداخل الإفريز تمتد من دعامة لأخرى مع الاحتفاظ بالمسافات بينها كما تساعد فى تدعيم البناء، وزخرفة السطح المعمد، وغصنية الإفريز مع نبات الأكنثس الذى يرتفع أعلى الكورنيش تعد من الطرز الهلنستية البحتة والتى تدل على يد الصانع القبطى، ويحتوى الجامع على أربع مآذن تقع فى الزوايا الأربع، وقد شكلت على هيئة أبراج مربعة وهى من حيث الشكل والموقع تذكرنا بمآذن الجامع الكبير بدمشق، وبعد مرور اثنين وخمسين عاماً على بناء جامع عمرو بن أبى بعد عام (٨٧٩) بُدئ فى تشييد جامع أحمد بن طولون، والذى لا

يتشابه بأى شكل مع طراز المعبد السورى فيما عدا بعض الملامح البسيطة إلا أن العمارة فى مجملها مستوحاة من طراز سامراء، وأحمد بن طولون مؤسس هذا الجامع كان ابناً لأحد كبار موظفى الدولة العباسية وقد تربى فى بلاطهم. وقد عهد إليه أن يرأس حملة عسكرية إلى مصر وإدارة شئونها المالية، وعند وصوله أقام فيها سلطة مستقلة عن الخلافة العباسية، كما أجاد إدارة شئون البلاد بتوظيف مواردها بطريقة حكيمة مما جعلها تنعم بالرخاء فى فترة حكمه، ويعد عصر ابن طولون من العصور الذهبية لمصر بعد أن سادت فترة طويلة لم تكن مصر فيها صاحبة قرارها.

كما حرص ابن طولون على استمرارية علاقته بسامراء حيث إنها مسقط رأسه، لذا لم ينشئ على الخلفاء العباسيين وإنما ظل محتفظاً بأصدقائه فيها، كذلك أقام عاصمة جديدة له تقع شمال الفسطاط القاهرة الأولى وهو أول من شيد عمائر تضاهى عمائر الخلافة الإسلامية، وعلى الرغم مما أصاب هذا الجامع من عوامل الهدم فى القرنين السابقين فإنه يعد من أروع الأبنية المشيدة فى مصر قاطبة، والجامع من حيث التخطيط بسيط جداً، ويحتوى على فناء مربع واسع طول ضلعه ٩٢ متراً. وتحيط به من جوانبه الثلاثة أروقة مزدوجة، ومن الناحية الجنوبية-الشرقية يمتد رواق الصلاة، وهو أقل طولاً، ويحتوى على ثلاثة أجنحة مستعرضة وكل جناح يحتوى على سبعة عشر ضلعاً، وقد شيدت العمارة كلها من الأجر، والجدران مثل العقود والدعامات شكلت على هيئة أساطين مستطيلة على غرار جامع أبى دلف العباسى، إلا أن فى جامع ابن طولون نجد الأساطين وقد أدمج بها أشباه أعمدة صغيرة مقطعة من الطوب المحروق (انظر لوحة ٦)

وتظهر العقود الحادة من أعلى في هيئة العقد المزدوج، والتي تحمل بدورها الأسقف والشرفات وهي ذات تخطيط عريض متأنق مما جعل هذا الجامع من أجمل ما عرفته العمارة الإسلامية، كما ساعدت وجود الفتحات بين العقود في أعلى الأساطين من التخفيف من حمولة المبنى دون التأثير على صلابته.

وهناك زخرفة بسيطة منحوتة في الجص قد أضافت نوعاً من الثراء لعناصر البناء الأساسية فراها من أعلى الجدران تحت الأسقف، وحول الفتحات في باطن العقود، ثم في التيجان، وفي الصحن نجد النجديات الضخمة، وقد اخترقت ركنيات العقود مكونة لإفريز وقد توج بزخارف من الحبيبات الصغيرة، وعلى نمط كل من جامع سامراء وأبى دلف نجد سور جامع ابن طولون تحيط به زيادات، وهي عبارة عن أفنية تمتد بطول الواجهة الأمامية. والواجهات الجانبية مثل الساحة التي تحيط بالهيكل عند قدامى اليونانيين، وعند الزيادة الأمامية وعلى بعد بضعة أمتار من الواجهة الشمالية-الغربية تقع المئذنة، هي من حيث الشكل والموقع تدل على تأثرها بعمارة بلاد ما بين النهرين وهي مثل مآذن سامراء القريبة الشبه بالأبراج الفارسية المخصصة لعبادة النار عند الفرس، وتتألف مئذنة ابن طولون من محور أسطوانى يحيط به أحودر حلزونى، وفي تقديرنا أن المئذنة كانت مصنوعة من الطوب على الطراز الإيرانى وقد أعيد بناؤها كاملة من الحجر فى نهاية القرن الثالث عشر، وقاعدتها المربعة فى حجم برج كبير ينتهى ببرج صغير مزجج ذى طابقين وهو طراز مصرى صميم.

العمارة المدنية:

وللأسف لم يتبق لنا أى قصر من القصور التى شيدها أحمد بن طولون و ولاده من بعده فيما عدا بعض دور السكن الخاص التى يمكن أن نؤرخها بهذا العصر، وهناك تشابه كبير بين المنازل الطولونية ومنازل مدينة سامراء؛ المنازل كبيرة وهى تتألف من مجموعات من الحجرات التى تلتف حول الصحن حيث تفتتح من أحد جانبيها عليه، وتوجد ثلاث فتحات فى الرواق المسقوف الذى يقع على جانب الصحن الذى تعقبه ثلاث قاعات مختلفة الحجم والقاعة الرئيسية لا تحتوى على جدار فى الواجهة، وقد غرست على هيئة فجوة كبيرة والتى تؤلف الرواق المسقوف ليأخذ التخطيط شكل حرف (T) اللاتينى مثلما عرفناه فى سامراء، ثم نصل إلى حجرتين أصغر حجماً وتقع مداخلها أسفل الرواق المسقوف لتلتصق بالتجويف الأوسط.

وعلى واجهة الصحن المواجهة للرواق المسقوف غرست قاعة مستوحاة من الإيوان الفارسى، وهناك إيوانان متطابقان ولكن أقل طولاً قد غرسا فى الجدران الجانبية من الصحن. وأضيف فى وسط الصحن عند تبليطه حوضان تصل إليهما المياه بواسطة شبكة قنوات محفورة تحت الأرض، وقد وجدنا فى أحد المنازل عنصراً بديعاً ظهر فى أماكن أخرى أيضاً وهى قناة صغيرة غير مسقوفة، تخترق القبة الرواق المسقوف لتصل إلى وسط الصحن، وأخيراً نصل إلى طابق مخصص للحريم وأحياناً كان يقام فوق قاعات الدور الأرضى.

الزخرفة:

لقد كان للتأثيرات الفنية لبلاد ما بين النهرين دور فعال في التأثير على زخارف العمارة الدينية والمدنية. وعلى غرار ما وجدناه من طرز فنية فى الجص من مدينة سامراء فالزخارف الجصية هنا بدت أكثر استواء، كما لم تعد الأشكال مدمجة بدقة متناهية. ونرى تيجان الأعمدة تظهر فى شكل الحنية مثل باطن الإناء المنتفخ وقد زاد من روعته العناصر النباتية التى نفذت دون إبراز للدخلات أو البروز، ونفس هذه العناصر الزخرفية استخدمت فى باطن العقود فوجدنا الوريدات وسعف النخيل تشغل المساحات المحددة بالأشرطة الصلبة أو المقوسات المتشابكة، وطريقة تكوين المتشابكات كانت مألوفة لعمال الفسيفساء منذ العصر الرومانى فقد استخدموا الشريط الذى يلتف من أعلى وأسفل الجزئية المراد زخرفتها وهو النمط السائد هنا، وهذا العنصر الهندسى انبثق منه كثير من الأساليب الإنشائية والتى امتلأت بالعناصر النباتية الكثيفة لتملأ الإطارات كلها من الداخل.

فنون الأثاث:

الخشب :

والزخرفة الزهرية المنقورة ذات الخطوط المتعددة المنفذة فى التكسيات الجصية، قد لاقت نجاحاً أكثر فى الزخارف الخشبية، ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة من العصر الطولونى ببعض هذه اللوحات ذات الرسومات البسيطة والتى عثر عليها فى حفائر الفسطاط ومقابر منطقة عين الصيرة.

والأخشاب التى وصلت إلينا تتساوى أو تفوق فى العدد أخشاب مدينة سامراء، كما يرجع تاريخ الزخارف الخشبية فى مصر لعصور عتيقة، حيث ظل الأقباط محتفظين بأسرار تلك المهنة.



لوحة (١٠) من اليسار إناء من الخزف من أزنك، ومن اليمين طبق
من اللون الأخضر الفاتح به زخارف ذهبية من فارس.

النسيج:

وقد ظل أقباط مصر محافظين على التقاليد الموروثة في فن صناعة النسيج، والمعروف "بالطراز" عند العباسيين، وقد انتشرت في مصر دور "الطراز" الخاصة والرسمية والتي تنتج النسيج للخلفاء في بغداد تحت إشراف عمال معتمدين من العباسيين، ومعظم قطع النسيج التي وصلت إلينا تحمل أسماء الخلفاء وأيضًا دور "الطراز" في مصر، مما ساعدنا على معرفة بعض المراكز الشهيرة مثل مدينة تانيس والإسكندرية ودمياط.

الخزف:

لعبت مصر دورًا مهمًا في تطوير الخزف الذي نال شهرة واسعة. وقد تعارفنا على الكثير من الأساليب التقنية من خلال بعض شقافات الخزف المعروفة باسم "التمولى" من مدينة الفسطاط حيث وجدت بقايا من الخزف ذي البريق المعدني في الأفران التي تدل على الصناعة المحلية له. وزخارفه قريبة الشبه من زخارف سامراء، والرقعة، وراجس، ولا تختلف تلك الصناعة في مصر الطولونية عن العمارة. والزخارف النحتية في الجص قد جاءت كلها من إيران أو من بلاد ما بين النهرين مهبط الفنون الخزفية، وأخيرًا نصل إلى فن التجديد، فنقول إن مصر قد عرفت فنون التجديد قديمًا كما نجد التأثير القبطي بوضوح، وقد تباينت الآراء حول هذا الفن في مصر إلا أنه تبلور في مدينة القيروان.

الفصل الرابع

فني إفريقية

العمارة الدينية :

بدأ ظهور العرب في إفريقية، والتي كانت إحدى الولايات التابعة للرومان، وهي تونس الحالية بعد أن استطاع العرب الانتصار عليهم وذلك عام (٦٧٠) حين جاء إليها سيدي عقبة ليؤسس مدينة القيروان، ويقيم بها الجامع الكبير، وهناك أسطورة دينية تروى أن تحديد اتجاه القبلة التي تعد من أهم الطرز المعمارية التي سارت على نهجها المساجد الأخرى في المنطقة كانت من وحي الإله، وقد بدأ الجامع بسيطاً جداً، إلا أنه بعد مرور ثلاثين عاماً أعيد بناؤه فيما عدا المحراب المعجزة. وقد تم توسيع الجامع مرة أخرى في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي وهي المساحات التي عليها الجامع اليوم وقد احتوى على مئذنة ظلت قاعدتها قائمة إلا أن الجامع قد هدم بعد ذلك مرتين وأعيد بناؤه مرتين أخريين حتى قيام الحكام الأغالبة ببناؤه والذي بقي لنا حتى اليوم، وظل الأغالبة تابعين للخلفاء العباسيين في بغداد، إلا أنهم حكموا إفريقية في نوع من الاستقلال النسبي مثل الطولونيين في مصر، كما استمر الأغالبة طوال القرن التاسع في عمل كل ما في وسعهم حتى تتمتع مملكتهم في تونس بالرخاء، وشيدوا المنشآت المعمارية لتكون في خدمة العامة، ورمزاً لسلطانهم وحكمهم أيضاً للبلاد، وعلى الرغم من بعض

الإصلاحات وإعادة البناء كان من بينها جامع القبروان الكبير والذي يعد من أهم أعمال الأغالبة والذي ينسب إلى ثلاثة من حكامهم، وقد أضيف على قاعة الصلاة إضافتان وذلك على حساب الصحن (انظر لوحة ٧،٨)

والصحن شاسع ويشغل أكثر من ثلثي المساحة التى طولها الكلى حوالى ١٢٥ مترًا، وقد أحيط بالأروقة من الأربعة جوانب. والترتيب الذى عليه الرواق الشمالى-الغربى قطع من الوسط بكتلة بناء للمئذنة، بينما الرواق الجنوبى- الشرقى الذى يشكل واجهة ضخمة تتألف من قاعة الصلاة قد شكلت على هيئة مجاز ذى ضلعين ويقع قبل القاعة، وتحتوى القاعة على ١٧ جناحًا باتجاه العمق على نمط البازيليك المسيحية، والجناح المركزى يتميز بأنه أكثر ارتفاعًا وأعرض من الأجنحة الأخرى وتحيط به الأعمدة المزدوجة، ثم نصل إلى جدار القبلة حيث يوجد المحراب، والتى تحاذى الجناح البائكة المتعامدة، لننتقل إلى ممر مستعرض يحتوى على نفس المقاسات التى عليها المجاز الأوسط، وقد شكل على هيئة حرف (T) اللاتينى وأجنحته أعرض، مما يرجعنا لتخطيط البازيليك، وهناك قبتان ترتفعان فى أعلى البائكة الوسطى، والقبّة الأمامية تقع أعلى البائكة المتعامدة أى فى مقدمة الجدار المطل على الصحن، والقبّة الخلفية تقع أمام المحراب، والقاعة كلها مسقفة وقد ملئت بالشرفات والجدران التى تحمل هذه الأسقف، فقد شكلت بواسطة عقود مزدوجة تحملها أعمدة من الرخام، وبالنسبة للأبدان والتيجان فكلها منقولة من عمائر قديمة مسيحية أو وثنية، وقد أضيفت بعض العناصر المعمارية بين الدعامات والعقود المركبة فوق بعضها مما ساعد على توحيد مستوى مداميك العقد، ذلك لصعوبة التعديل فى أطوال الأعمدة

المعاد استعمالها، وطبليّة تاج العمود فوقها طبليّة أخرى تخرج ببروز، وقد قطعت من الحجر أو الخشب لترتفع فوقها عصابة أعلى التاج فى شكل الإفريز العلوى، وقد توجت جبهة العقد بكورنيش يستند عليه العقد، وتوجد مشدات من الخشب، وأدمجت من داخل رجل العقد للحفاظ على النسب بين أكتاف العقود المعلّاة، وكلٌّ من المشدات، والأسكف الخشبية، والأفاريز، والكورنيش التى تستند عليها العقود المزدوجة وجدناها فى جامع عمرو بمدينة الفسطاط الذى أعيد بناؤه فى عام (٨٢٧)، وهكذا نجد تأثيره واضحاً فى عنصر أجنحة جامع القيروان بعد مرور تسع سنوات على إنشائه، والقباب يبدو أن عناصرها المعمارية جاءت من العراق، فالقبة التى تسبق المحراب فى حالة جيدة من الحفظ وتحتوى على تكوين بديع من الزخارف النحتية التى خطت فيها العناصر والارتفاعات بنسب معتدلة، وترتفع القبة من الخارج فى شكل ثمرة الشمام المضلعة وقد ارتكزت على كتلة مؤلفة من ثمانية أهداب مسطحة بعض الشيء وترتكز بدورها على كتلة أخرى مربعة مغروس بداخلها النيشات، وتظهر من الداخل مثل القلنسوة ذات التضليعات المشعة التى تتوج الأسطوانة الرافعة بعد أن غرس بها شبابيك، وبالنسبة لعقود الزاوية الحلزونية الشكل فهى عنصر معمارى للانتقال من الأسطوانة الرافعة والكتلة المربعة السفلية بواسطة عقود كبيرة تتخطى الأجنحة، ومن أسفل القبة غرس المحراب وهو عبارة عن نيشة شكلت جدرانها من الرخام، والقبو من الخشب الملون، ويحتوى على عقد كامل حفت به الزخارف البديعة من الخزف ذى البريق المعدنى وقد سبق أن ذكرنا هذا الخزف من بلاد ما بين النهرين وسوف نتحدث عن رسوماته فيما بعد، وتتألف اللوحات المشكلة

من الرخام على زخارف مقطعة ومخرمة مثل إطارات جوقة البازيليكا، والمنذنة تقع مقابل القبلة التى تحتل مساحة شاسعة من الصحن وتشمل على ثلاثة طوابق من الأبراج المربعة، ونعتقد أن البرج العلوى المغطى بقبة لم يكن من العمارة القديمة، وتعد هذه المنذنة هى أقدم ما وصل إلينا من نماذج للمآذن فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى التى انبثقت من أبراج الأجراس السورية الشبيهة بأبراج دمشق التى تحتل الواجهة الأمامية المطللة على الصحن، وعلى الرغم مما عليه هذا الجامع من بساطة فى الخطوط والزخرفة، والطابع الخشن فإنه محمل بالكثير من التقاليد ذات الأصول المتباينة التى أسهمت بعد قرنين من الزمان فى إثراء فننا الرومانى - المسيحى والذى ظهر فى الفن المسيحى بإفريقية، ومنه الهيئة التى شكلت بها الدعامات فى مصر. ومن سوريا أخذت المآذن، ثم القباب من بلاد ما بين النهرين، ومع ذلك فإن هذا التنوع من التيارات لم يؤثر بالسلب على وحدة البناء، ولم يغير من هيئة هذا الأثر وما تركه من أثر فى ذاكرتنا حتى اليوم. وبالنسبة لجامع الزيتونة فى تونس الذى رمم كثيراً منذ بداية القرن التاسع فهو يشبه إلى حد كبير جامع القيروان، ويحتوى على أكثر من ملمح مع جامع تونس، وجامع القيروان يتألف من خمسة عشر جناحاً، الاثنان الرئيسيان شكلا على هيئة حرف (T) اللاتينى، ودعاماته التى تتكون من بعض الأعمدة القديمة، وأكتاف العقود وجبهات الأبواب والقبة البديعة المؤرخة بعام (٨٦٤)، والتى تسبق المحراب ذا الطابع القيروانى، وفى مدينة سوس يوجد بها الجامع الكبير الذى شيد عام (٨٥٠)، ثم زاوية "أبو فتات" والمؤرخة بعام (٨٣٨)، وكلها عمارة تتميز بالخشونة وتتشابه مع

بعض الأربطة وسوف تعاود الحديث عنها فيما بعد، وبالنسبة للدعامات فى تلك الأبنية فقد استبدلت الأعمدة بالأساطين الضخمة ذات التخطيط المتعامد، والأجنحة أكثر ارتفاعاً ومسقفة بواسطة الأقبية البرميلية والتي تحملها العقود المستعرضة، والكاملة المزدوجة.

العمارة المدنية والمنافع العامة:

ونحن نأمل أن تمدنا الأبحاث الدورية للعناصر التونسية بوثائق جديدة عن العمارة الدينية للأمراء الأغالبة، غير أننا لا نأمل كثيراً فى الكشف عن أدلة جديدة يمكن أن تلقى مزيداً من الضوء حول عمارة قصورهم.

وعلى بعد حوالى ٣ كيلومترات من القيروان تقع مدينة العباسية حيث شيد بها القصر العتيق لإقامة الأمراء الأغالبة للبعد أحياناً عن دسائس العاصمة، كما تتميز عمائرهما بالبساطة، وقد شكلت من التراب المدكوك، والطوب اللبن وعلى مسافة من المدينة القديمة تقع مدينة "رقادة" محل إقامتهم وهى تتميز بحوضها الكبير المستطيل الذى يقع فى أحد الجوانب التى تشتمل على بعض الحجرات المعيشية وبها قاعات مبلطة بالفسيفساء التى تشبه قاعات البازيليكا، وزخارف "قصر البركة" الذى شيده الأمراء المسلمون من القرن التاسع فيه إحياء للزخارف الإفريقية من العصر البيزنطى مما يدل على الأيدى العاملة المحلية التى مازالت تستعمل بعض الأساليب التقنية القديمة، وربما ترجع هذه البركة لعصور مضت وقد وجدنا فى تونس الكثير من خزانات المياه التى ننسبها إلى عصر الرومان، إلا أن الأغالبة قد شيّدوا بدورهم الكثير من خزانات المياه والبرك التى أصبحت

من الكماليات الأساسية ذات الطابع الشرقى لحياتهم المعيشية وأيضاً للمنفعة العامة. ومن أهم أعمالهم المميزة البركتان الكبيرتان لتغذية مدينة القيروان بالمياه، والبركة الأولى تحتوى على سبعة عشر جانباً، وتأخذ المياه من السهل الواقع بها لتخزينه فى البركة الثانية وهى أكثر اتساعاً من الأولى كما تحتوى على ثمانية وأربعين جانباً، وكلتا البركتين محاطتان بجدار سميك وقد عضدا من الخارج والداخل بدعامات مستديرة، كما ترتفع مقصورة صغيرة بشكل زخرفى فى وسط البركة الكبيرة، وقد ساعد تأريخ تلك البرك الأستاذ (مارسيل سولينناك Marcel Solignac) على المقارنة بين تلك التى شيدت فى القرن التاسع وما سبقها.

العمارة الحربية:

تعد الحروب الصليبية، والقلق الدائم عند المسلمين لتأمين البلاد التى دخلوها من أى غزو ساحلى لشواطئهم، والرغبة فى الوصول إلى الجزر الأوروبية والحملات العسكرية التى أرسلوها من الأسباب الأساسية لظهور "الرباط" الذى انتشر فى شتى أنحاء الأقطار الإسلامية، وفكرة الرباط قد أعد كمكان للزهد وحصن عسكرى فى آن واحد وهو يشبه إلى حد كبير الحصون العسكرية فى الغرب، وقد انتشر بكثرة على طول الشواطئ الساحلية، وفى إفريقية ظهر الكثير منها ومن أشهرها "رباط المنستير" و"رباط سوسة" وهما فى أتم حالة من الحفظ، وقد شيد رباط سوسة عام (٨٢١) على يد أحد الأغالبة وتمت به بعض الترميمات البسيطة، ويحتوى على تخطيط بسيط يتألف من صحن أوسط يقع فى الدور الأرضى وقد أحيطت به الخلايا التى

يتقدمها الرواق. والمدخل الرئيسى ينفّث من الوسط على أحد جانبي السور، والسور مربع، ومحاط في زواياه محاور الحصون، وقد أعدت إحدى الزوايا لتكون قاعدة أقيم فوقها برج مرتفع لمراقبة قدوم العدو، ثم يتلوّه الصحن الذى يقع فى وسط الرباط فى الدور الأرضى وتحيط به الغرف الصغيرة والنّى يسبقها الجناح، وهذه الغرف أو الخلايا الصغيرة تنفتح على الجوانب الثلاثة النّى نصل من خلالها إلى الطابق الأول، أما الجانب الرابع فتشغله المقصورة الواسعة النّى تحدد الطابع الدينى لتلك القلعة، ومن الجائز أن نجد بعض القلاع الإفريقية من العصر البيزنطى والنّى احتذى بها معماريو تلك الأربطة، كما يجب أن نحدد أوجه الشبه بين رباط سوسة ومقارنته بتخطيط بعض القصور السورية فى العصر الأموى، والسور مربع وله مدخل واحد مصمت به أبراج نصف دائرية، والغرف السكنية النّى تستند من الداخل فى مواجهة هذا السور تنتهى بفناء واسع ومن خلال بعض الدراسات الحديثة يتضح لنا انتقال هذه العمارة من الشرق إلى الغرب لتظهر فى مدينة تاهرت النّى تقع جنوب غرب الجزائر لتصبح فيما بعد عاصمة لإحدى الأسر المغتصبة للحكم فى القرن التاسع، وقد شيدوا قلعة تشرف على المدينة من أعلى وتحتوى على تخطيط مشابه لتخطيط القصور السورية.

الزخرفة:

احتفظت اليد العاملة فى إفريقية بالكثير من الأساليب التقنية من التقاليد الفنية المسيحية المحلية والنّى ظهرت فى التبليط بالفسيفساء فى رقادة وأيضاً فى الزخارف النحتية، وبخلاف العديد من التيجان التى جلبت من الأبنية الوثنية والمسيحية، والنّى قد نقل بعضها إلى الجامع الكبير بالقيروان،

والبعض الآخر صنع بأياد محلية تونسية. وهى عبارة عن تيجان تتألف من أعمدة صغيرة تظهر فى القبة، وتميزت هذه الطرز من التيجان ببساطتها وتشبه زخارف التيجان القبطية المقطعة من الخشب، وتحتوى على الأوراق الملباء بشكل الكروشييه أى المتشابكات من أسفل عصابة تاج العمود التى تذكرنا بتيجان الأكنتس الكورنثية، والواقع أن الأكنتس يعد من العناصر الزخرفية التى استعملت قليلاً حيث طغى عنصر الكروم الزخرفى ذو الطابع المسيحى على الزخرفة فنجد أوراقه المنثورة تحتوى على خمسة فصوص متماثلة تلتوى عند التجاريق الوسطى، لتظهر على هيئة ثلاثة فصوص ملتحمة مع بعضها مؤلفة للحواف، وأحياناً تلتحم بالغصون والعناقيد ذات الشكل الهرمى لتملأ الغصنيات، وقد شاهدنا من قبل الدور الريادى لزخارف الكروم فى المرحلة الأولى فى واجهة قصر المشتى ومراحل تطوره، إلا أن الأوراق وعناقيد الكروم فى الزخارف التونسية لا ترقى لزخارف الكروم فى القصور السورية التى استعملته بوفرة.

وكان النحات حين يبدأ فى زخرفة المساحة المطلوبة يقوم بتقسيمها إلى لوحات مستطيلة ومصغرة ليؤلف كل قطعة على حدة قبل تجميعها، وبهذه الطريقة تمت زخرفة محراب القيروان والواجهة الحجرية لمسجد الأبواب الثلاثة.

إلا أن الطريقة السهلة التى اتبعتها النحات لم تفرض على الرسام الذى لم يجد ضرورة لتقسيم المساحات قبل رسمها. وفى محراب الجامع الكبير بالقيروان احتفظت نيشته بالزخارف المرسومة التى تشتمل على قبة نصفية والمؤرخة تقريباً بالقرن التاسع.

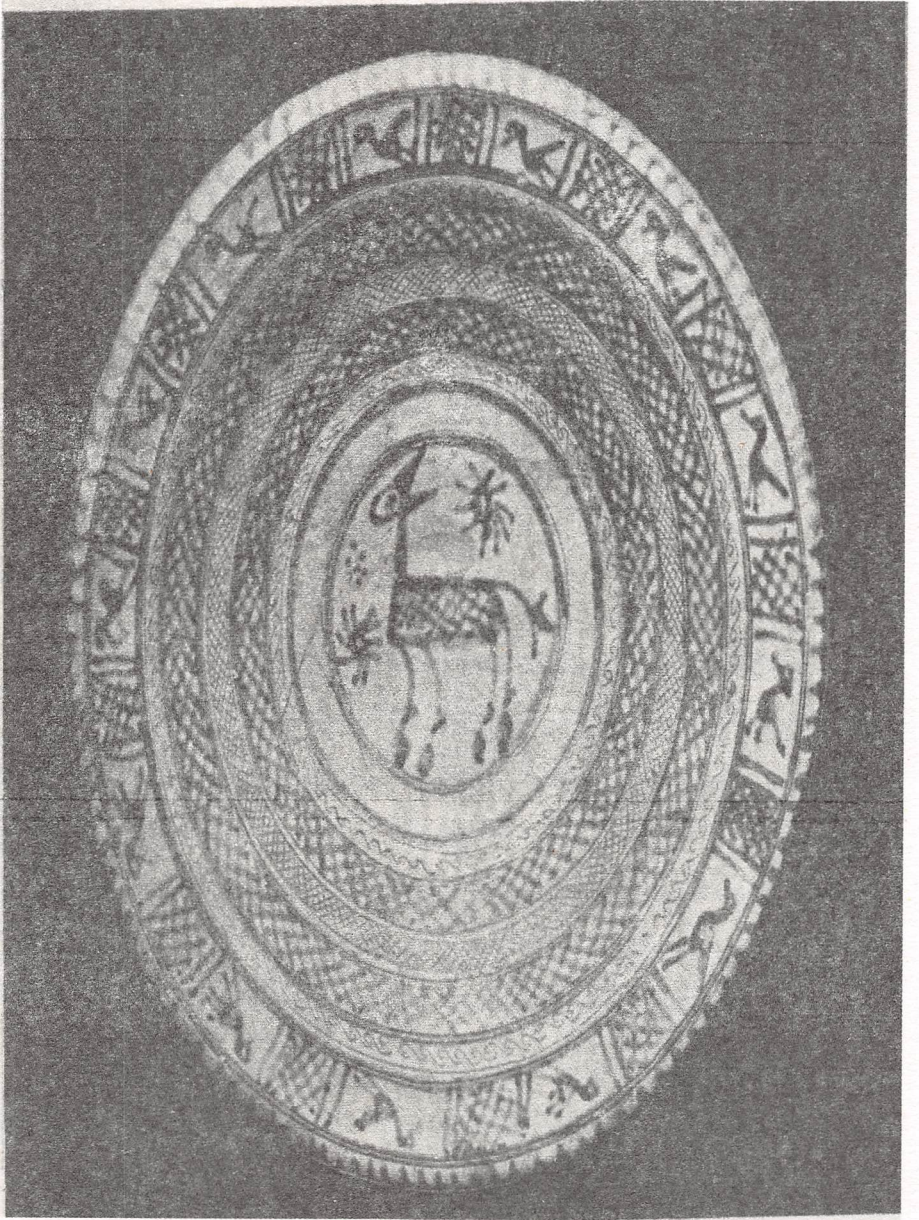
وعلى أحد الجدران المقعرة لهيكل من الألواح الخشبية المدهونة بالطلاء، توجد زخارف من الكروم المؤلفة من الأغصان الملففة بشكل حلزوني وعناقيد العنب التي تحف بها الأوراق، وهى من التكوينات المستقاة من الفن الهلينستى والتي تذكرنا بواجهة قصر المشتى. ومن الزخارف التي وجدناها فى هذا الجامع أيضاً بعض الكمرات المرسومة عليها والتي تؤرخ بتلك الفترة. والزخارف الزهرية التي تظهر فيها الأجنحة النخيلية، والثمار المنتفخة مثل برعم اللوتس ترجع إلى زخارف بلاد ما بين النهرين، والتي تظهر التقاليد الإيرانية، وهكذا نجد الازدواجية فى العناصر الزخرفية التي ظهرت أولاً فى العمائر الأموية فى فلسطين وسوريا لتعود وتظهر مرة أخرى بعد قرن من الزمان فى مدينة القيروان.

فنون الأثاث:

وهذه الازدواجية فى العناصر الزخرفية ظهرت بوضوح فى النحت على الخشب وخاصة فى منبر الجامع الكبير بالقيروان، وهو من أهم ما وجد من قطع للأثاث فى ذلك العصر، وقد شيد هذا المنبر تحت إمرة الأمير الأغلبى أبو إبراهيم عام (٨٦٣) واستخدم فى صناعته خشب النك المجلوب من الشرق، ويعد هذا المنبر الرائع من أقدم المنابر المؤرخة التى وصفت إلينا، كما يظهر بشكل كرسى العرش ويتألف من مقعد علوى نصل إليه بواسطة إحدى عشرة درجة، ويحف بهذا الدرج درابزين من الجانبين وحاجزان يتألفان من لوحات قد جمعت مع بعضها بواسطة الأكتاف

والعوارض، وقطع هذا الأثاث تتكون من اللوحات. والواجهة العمودية للسلم، وصندوق الخزانة، ومسند المقعد، وكلها قد زخرفت عن كاملها بواسطة المتشابكات الزهرية والهندسية والزخارف النباتية.

وكلا الطرازين يظهر فيهما الاختلاف البين سواء فى الطابع أو من حيث الأصول التى ينتمى إليها الفنانون الذين نفذوا تلك الأعمال والمنابع التى استوحوا منها أعمالهم، والمتشابكات الهندسية تتألف من أشربة صلبة ومقوسة وقد اشنت من الضفيرة أو الدقران، وزخرفت بها معظم اللوحات ويمكننا أن نرجعها إلى التقاليد المسيحية المحلية، لأن الزخرفة النباتية اقتصرت على عنصر الكروم، كما استعير عن النقص فى سجل الزخارف النباتية فى التنوع الثرى من الزخارف المحورة ذات الأشكال المختلفة، وهذا التباين فى زخارف المنبر يجعلنا نفترض وجود تعاون بين فنانى الشرق وآخرين من إفريقية.



لوحة (١١) صحن من الخزف-منطقة آمول

الخزف:

والخزف الذى وجدناه فى محراب الجامع الكبير بالقيروان يعود بنا إلى الافتراضات السابقة، وقد تناولنا من قبل مجموعة الخزف الرائعة ذات البريق المعدنى من عصر الخلفاء العباسيين، وربما لم يأت معظمها من العراق لأن بعض النصوص التى تؤرخ تلك القطع تفيد بجلب بعضها من الخارج والآخر صنع محلياً، وقد عرفت بلاد إفريقية فى القرن التاسع صناعة الفخار، كما عثرنا على المزيد من الشقاقات الخزفية ذات اللون البنى الداكن والأزرق والأخضر مدفونة فى أحد المواقع الأثرية وهو "العباسية" القصر الذى أقام به الأغالبة.

التجليد:

ومن ضمن ما وصلنا من أثاث مؤرخ بعصر أمراء مدينة القيروان "فن التجليد"، وقد احتفظ الجامع الكبير بالقيروان بأكثر من ستين كتاباً مجلداً، وبالنسبة لأكثر النسخ من القرآن فقد كتبت بالخط الكوفى والمؤرخ بالقرن التاسع، وهذه النسخ تشبه ألبومات الرسومات التى نستعملها اليوم ولكنها أعرض، وكانت تغلف بواسطة لوحين خشبيين صغيرتين كسيتا بالجلد، والجزء الأسفل ينتهى بحواف رأسية لتشبيك الصفحات، وقد زخرف الجلد بشرائط متشابكة، والجداول، والصفائر، وسلاسل من نسيج الكتان.

وطرز التجليد لا تختلف كثيراً عن الزخارف الهندسية للوحات المنبر التى تتشابه أيضاً مع الرسومات الجدارية فى بعض الأديرة القبطية، والمستوحاة من زخارف الفسيفساء الرومانى، ونظراً للجودة والأعداد الوفيرة المحفوظة لنا من تلك التجليدات بالقيروان مع استمرارية هذه التقاليد الفنية لقرون عديدة فقد أعطيت لعاصمة الأغالبة الريادة لتكون المركز المشع لازدهار هذا الفن فيها.



لوحة (١٢) إناء متعدد الألوان من الخزف - فارس

خلاصة:

وخلال هذه الفترة الزمنية التي امتدت قرابة قرنين ونصف من الزمان، أقرت فيها جميع الدول الإسلامية بريادة خليفة واحد عليها حيث أقام في "دمشق" ثم انتقل فيما بعد إلى بغداد ليكون إيداناً بولادة فن جديد، وهذا المولود الفني الجديد لم تكتمل شخصيته في المرحلة الأولى بل يبدو أن من عوامل تطوره ترجع إلى عبقرية تلك الشعوب بعد أن آلت تلك الأقطار لسيطرة المسلمين، فالإسلام حين خرج من أرضه لم يكن محملاً بأى تقاليد فنية إلى أن وصل إلى أقدم البقاع الحضارية القديمة في العالم كله، وهنا كانت بداية ازدهاره حين التقى بعالمين مهمين، الأول هو عالم البحر المتوسط، والثاني هو العالم الآسيوى فاستقى من الأول الفن الهلنستى، ومن الثانى كان تأثره بالفن الإيرانى، وبعد أن طبع بالطابعين معاً، فنجدهما إما مترامين، أو متعاقبين، وأحياناً كان يحل فن مكان الآخر.

ومن خلال ما مررنا به من أعمال فنية فقد وجدنا التقارب بين العنصرين، أو سيطرة طراز على الآخر، ونظراً للتحليل الكمى فى دراستنا فقد يتسرب بعض الملل، إلا أن الظروف التاريخية قد أسهمت بدورها فى إظهار التأثير الإيرانى جلياً، ذلك بعد انتقال العاصمة السياسية للإسلام من سوريا إلى العراق، ليصبح الخليفة المسلم وريثاً لملوك "تسيفون"، فظهر التأثير الساسانى فى أكثر من ملمح؛ فى طريقة ترتيب الطوب لبناء الجدران والقباب، واستخدام الجص والطينة المطلية بالمينا كإحدى المواد المستخدمة فى زخارف التكرسية، و"الإيوان" كأحد عناصر التخطيط، والزخارف

المحزوزة والمستخدمة فى الأخشاب المنحوتة، وحين ننظر إلى الإرث من التقاليد الإيرانية نرى فيها بوضوح التأثيرات الهلنستية التى أضافت الكثير للفن الساسانى نفسه ونعرفه بالفن "الهلنستى-الإيراني" حيث يعد الفن الساسانى أحد روافده، وقد شاهدنا من قبل التأثيرات الكلاسيكية على الزخارف الزهرية بسامراء، وخلال رحلة تكوين الفن الإسلامى الأولى قد تشبع بالتقاليد الهلنستية ربما دون قصد، وحيث بدأ مده متأثراً بعالم البحر المتوسط المسيحى الخاضع لروما ثم بيزنطة التى كان لها أكبر الأثر عليه، ولا ننسى أهمية العامل البشرى والدور الذى لعبه الفنان السورى والقبطى والبربرى فبعضهم قد اعتنق الإسلام، وظل الآخرون على دينهم، إلا أن الكل انخرط فى بوتقة العالم الإسلامى فشيّدوا المساجد والقصور لإقامة حكامهم الجدد. وهكذا كان لهم النصيب الوافر فى التأثير على الطابع العام لهذا الفن ليكون امتداداً للفن المسيحى -الشرقى القريب من الفن البيزنطى، والقبطى، وفن إفريقية، والفن القوطى فى أسبانيا الذى يعد الأخ الأكبر للفن الرومانى الذى ظهرت بداياته فى إحدى الكاتدرائيات التى شيّدت بعد ثلاثة قرون على أرض فرنسا.

الجزء الثاني

الخلافاث الشالاة المانافسة

الفصل الأول

الفن الإيراني

على الرغم من عصور الازدهار التي عرفتها كل من عاصمة الخلافة في بغداد وسامراء، فإن علامات الوهن قد بدأت تدب في جسد الخلافة العباسية، ومحاولة البعد عن العاصمة إنما يدل على بعض الصعوبات التي بدأت تواجه الخليفة العباسي من قبل جنود المرتزقة الأتراك الذين تمت الاستعانة بهم، ولم يمهل الوقت كثيرًا للخليفة لتميل الكفة في صف بعض الأقليات المؤلفة من بعض القواد العسكريين الأجانب الذين قد نعموا بلقب أمير الأمراء ليصيروا فيما بعد رؤساء للحكومة أو حكام القصر، وقد أدى هذا الوضع السيئ لظهور دولة البويهيين بعد أن استولت على بغداد عام (٩٤٥)، والاستخدام المتزايد للمرتزقة الأتراك. والبويهيون ذوو الأصل الإيراني ليسوا أول من تظاهر من سكان البلاد الأصليين ليعلنوا عن استقلالهم عن الحكام العرب أصحاب الخلافة، فقد ظهر في القرن التاسع أيضًا الطاهريون (٨٢٠-٨٧٣) وكانوا حكامًا لإقليم خراسان وقد أعلنوا استقلالهم ليؤسسوا أسرة فارسية حاكمة، ثم جاء من بعدهم الأسرة الصفوية والسمانية وكلهم من أصل إيراني، وقد ظلت إيران الإسلامية معترفة بالريادة الروحية للخلافة الإسلامية إلا أنهم استقلوا في إدارة شئونهم الخاصة كما فضل حكامهم العودة لتقاليدهم القومية.

وعلى الرغم من فقدان الخلافة للكثير من الأقطار فقد ظلت محتفظة بريادتها الدينية، والبويهيون بدورهم بعد أن استقروا في بغداد وعلى الرغم من انتمائهم لأحد المذاهب الشيعية فإنهم لم يعترضوا على الريادة الروحية للعباسيين بعد أن آلت إليهم السلطات وأصبح العباسيون حكومة ظل فقط، وظهور الأتراك على الساحة السياسية قد أوقف هذا التناقض الظاهري، لأن الانقسات في البيت البويهي قد ساعدت على انتصارهم، ففي عام (١٠٥٥) استطاع طغرل بك التركي وهو من عائلة سلجوقية وكان حاكمًا لبغداد السيطرة على مملكتين متاخمتين للطراف الشرقية لبلاد فارس؛ الأولى هي مملكة الأتراك الغزنويين، وكانت غزنة عاصمتهم، والثانية هي مملكة الغوريين الإيرانية، وتعد هذه الحملة على بلاد أفغانستان والأقطار المجاورة لها هي أولى مراحل انتصار السلاجقة والتي امتدت لتسيطر على باقي ممتلكات الخلافة العباسية في آسيا، فوصلوا إلى أرمينية، وسوريا ثم بلاد الأناضول أي إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية وقد عرف السلاجقة بأنهم أقوام حرب، ومن أشهر قادتهم كان طغرل بك، وألب أرسلان، وملك شاه، وباركياروك، وسنجر، وهم مسلمون ومن أشد المدافعين عن العقيدة، كما عرفوا بشغفهم لبناء المساجد، والمدارس لتدريس العلوم الدينية والتي لعبت دورًا مهمًا في تاريخ الفن الإسلامي الذي نحن بصدد دراسته الآن.

العمارة الدينية:

لقد اختلف عدد كبير من العماثر في إيران والمشيدة من الطوب المحروق والطوب اللبن نتيجة للإهمال والعوامل الطبيعية مثل الزلازل الأرضية حيث لم يتبق لنا أي أثر من عماثر الإسلام الأولى، وأقدم ما وصل

إلينا من هذه العمانر مسجد "طارى خان" والمؤرخ بعام (٧٥٠-٧٨٦) فى منطقة دمغان وتقع جنوب-شرق بحر قزوين، ويتطابق هذا الجامع من حيث الشكل فيما عدا نسبه الضئيلة ببعض المساجد العباسية الأخرى فى سامراء وأبو دلف التى شيدت بعده بقرن من الزمان، فهو على الأرجح مستمد من تخطيط البازيليكا المسيحية بعد تطويره ليلائم إقامة الشعائر الإسلامية.

والصحن مربع، ويحاط من جوانبه الثلاثة بأروقة بسيطة وفى جناح القبلة تقع قاعة الصلاة وتحتوى على سبعة أجنحة باتجاه العمق، وكل جناح به ثلاث مسافات بين العوارض، والجناح الأوسط أكثرهم عرضاً، وإذا كان تخطيط هذا الجامع مثل عمانر السوريين والأمويين والعباسيين فى بلاد ما بين النهرين أو الأغالبة فى إفريقية، التى أمدتنا بالمبانى المميزة بالملاحم الإيرانية والتى أثرت فيها اليد العاملة الفارسية، وقد شكلت كل هذه العمارة من الطوب وغطت الأجنحة بأقبية برميلية والمجهزة بواسطة قطع عمودية، والدعامات شكلت بواسطة الأعمدة الأسطوانية من الطوب بدون تيجان، كما جهزت طبلية تاج العمود من الخشب الذى تركز عليه مداميك العقود، والعقود والأقبية إهليلجية الشكل.

وجامع "تاين" فى شرق مدينة أصفهان يرجع لنفس الطراز القديم، وعن طريق طرز زخارفه الكتابية استطعنا تأريخه حوالى عام (٩٦٠) والذى تتساوى مقاييسه مع جامع دمغان وربما يكون أصغر قليلاً فى الأصل قبل الإضافات والتوسعات التى تمت به، وعموماً التخطيط القديم مازال موجوداً وهو من الطراز الكلاسيكى، يتألف من بهو أعمدة يسبقها صحن محاط بأروقة من الطراز البازيليكي، وقد شكلت الدعامات من الطوب المختلف

الشكل، وتعد أقدمها هي الأسطوانية القصيرة، وتاج العامود يحتوى على عقود بارزة تظهر في شكل عقد صغير مستدير يمتد بزوايتين؛ الأولى رأسية، والثانية مائلة لتصبح فيما بعد إحدى خصائص العمارة الفارسية.

الطراز البازيليكي للجوامع والذي نطلق عليه اسم "المسجد العربي" والذي انتقل بدون شك من العراق إلى فارس واستمر لفترة طويلة وعند وصول الأتراك السلاجقة وفرض سيطرتهم انتقل معهم نمط جديد في تخطيط المسجد، والذي بالأحرى كان في التخطيط الأساسى فى العناصر التي عدلت تمامًا في الشكل.

وقد تمت دراسة هذا التطور في الجامع الكبير بأصفهان والذي يطلق عليه اسم المسجد الجامع، وكان تخطيط هذا الجامع الرائع فيما يبدو بسيطاً عبارة عن مستطيل مساحته 225×84 م يتوسطه صحن كبير ويحيط به أجزاء مسقوفة، وفي اتجاه القبلة تمتد صالة الأعمدة وتحتوى على ١٩ ممراً (جناح أو عوارض) بالطول، و٦ ممرات بالعرض.

وهذا التخطيط كان عليه الجامع حتى عام (١٠٣٠)، ويبدو أنه قد شيد من الطوب اللبن وغطى بالخشب، وفي عام (١٠٧٢) مهدت مساحة أمام المحراب، أقيم في هذا الجزء المصلى صالة مقبية على هيئة كشك يراها الأستاذ أندريه جودارد Godard أنها مستوحاة من بعض المقاصير أو الهياكل الإيرانية المكرسة لعبادة النار، والمقصورة كانت مخصصة للحاكم وكانت محددة بالدعامات الضخمة والتي لا يفصل بينها سوى بعض الفتحات الضيقة، كما أضيفت قاعة مشابهة أمام المسجد لتؤلف الجزء الخاص المهيب للمدخل وفي عام (١١٢١) شب حريق بالجامع دمر هياكل البناء، والدعامات

المشكلة من اللبن وأعيد بناؤها من الطوب المحروق، كما غطيت الممرات بقباب صغيرة شكلت بواسطة عقود متوترة في كلا الاتجاهين، ومن الأسباب التي أعطت للمسجد السلجوقي هذا الشكل العظيم هو إضافة أربعة إيوانات كبيرة تفتح في الوسط على جدران الصحن الأربعة، وهذا التخطيط المتعامد ربما استقى من العمارة المدنية والذي أصبح فيما بعد النمط التقليدي للمساجد الفارسية، ثم بعد ذلك انتقل إلى تخطيط المدرسة الفقهية والتي ظهرت معها في نفس الوقت.

والاهتمام بعبقرية التخطيط في المدارس لا يقل عن اهتمامنا بالأساليب الإنشائية لقباب المساجد، ويعد الطوب من المواد التي استخدمت في الكثير من التكوينات؛ في القبو البرميلي، والقبو البارز، والمعمد المسقوف، والقبّة ذات الزوايا البسيطة، والمركبة، والتي تسمح بالانتقال من التخطيط المربع إلى التخطيط ذي ٨ أضلاع، والتخطيط ذي ١٦ ضلعاً، وفي الحنيات المؤلفة من المنحنيات التي سوف تنبئ بميلاد المقرنص، ويحتوى الجناح الكبير بأصفهان على قباب مؤلفة من عقود متقاطعة من الطوب المشكلة للهيكل، وقد شاهدنا في إسبانيا من القرن العاشر قباباً ذات تعاريق يبدو أن أصولها ترجع لبلاد فارس.

العمارة الجنائزية:

لقد لعبت القبّة دوراً ملحوظاً في العمارة الدينية ابتداءً من عصر السلاجقة كما احتوت على الأساليب البارعة في طرق البناء المختلفة، وتتألف

الأضرحة القديمة فى إيران من قاعة مقبية تقع فى وسط المبنى المربع حيث غرس باب فى كل واجهة منه، وهذا النمط المربع يشبه "الأكشاك الفارسية القديمة" والتي مازال يستخدمها الجبريون إلى الآن، كما توجد فى بعض المقابر فى سوريا المعروفة باسم "Kalybe" من العصر المسيحى ثم انتشرت بعد ذلك فى كل من الشرق والغرب لتعرف بالقبة أو التربة فى العمارة الإسلامية.

ومن أول هذه الأضرحة فى إيران هى قبة إسماعيل مؤسس الدولة السامانية فى مدينة بخارى وقد توفى عام (٩٠٧)، وقد زخرفت هذه الكتلة من البناء بزخارف بارزة من الطوب وغير المألوفة، وهناك ضريح آخر يقع فى منطقة يزد ومؤرخ بعام (١٠٣٧) أى قبل مجيء الأتراك السلاجقة بانثى عشر عامًا، وتظهر فيه عقود الزوايا وقد ركبت بداخلها المثلثات الكروية الصغيرة، والتجويفات من القباب النصفية والتي تعد الخطوط الأولى لتكوين المقرنص.

وتدل الأبحاث الخاصة بتلك القباب على متانتها ضد الزلازل والاستخدام المنطقى للطوب لإيجاد صيغ مختلفة وبارعة فى عمائر هذا العصر المزدهر، وقد استخدمت هذه الأساليب الإنشائية فى مقبرة سنجر وهو آخر الحكام السلاجقة بمدينة مرو، على الرغم مما أصابها من عوامل الهدم الخارجية، وتبدو زخارف القبة من الداخل بها تعاريق بارزة ومتشابكة فى هيئة قباب صغيرة توجد بينها العضادات والعقود التى تحدد بعض الخلايا الفارغة التى تخفف من حمولة البناء وتحافظ عليه من التشوه، وقد وجدنا هذا التسليح فى القباب الرومانية فى البانتيون (مجمع الأرباب عند القدامى)

وأيضًا في (Minerva medica (H.Saladin، وقد صاحب ظهور هذا الطراز في المقابر التي تحتوى على قاعة مربعة في إيران في القرن الحادى عشر ظهور طراز آخر من العماائر الجنائزية التي تتكون من برج ذى قاعدة مضلعة، أو به بروز وتعلوه قلنسوة أو كوز صنوبرى.

كما عرفت نفس الفترة تحديدًا نماذج أخرى من المآذن لتحل محل الشكل المربع المستوحى من الطرز السورية والشكل المثلث، وابتداءً من القرن الحادى عشر شكلت المآذن الإيرانية على قاعدة أربعة أو ثمانية جوانب لترتفع عاليًا، وهى ذات تخطيط دائرى معظم الأحيان والذى يصغر كلما ارتفعنا إلى أعلى، ويزين بداية الجزء الرابع من الارتفاع إفريز مجوف يحمل الشرفة التى يؤذن منها، وإفريز آخر، يبرز ويتقدم التاج قبة صغيرة والتي اختفت فى معظم الأحوال.

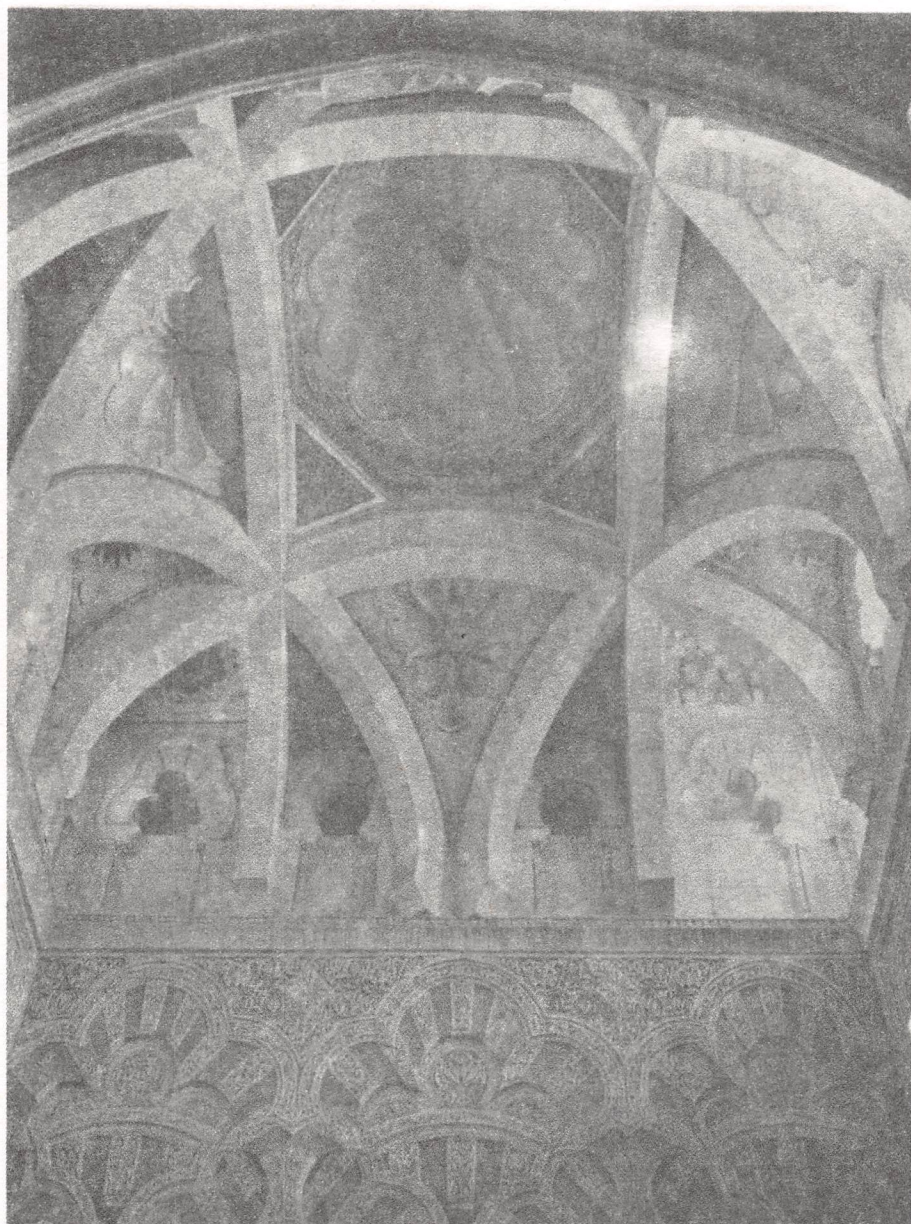


لوحة (١٣) الجامع الكبير بقرطبة

الزخرفة:

لعب الطوب دوراً أساسياً فى العمارة الإيرانية فقد استخرج منه المعماريون الكثير من الأساليب الإنشائية كما أبدع المزخرفون فى التكوينات والتشكيلات المؤلفة منه؛ فاستخدم داخل القباب، وعلى أسطح الأبدان الخارجية للمآذن، والأضرحة، وفى المآذن كان يتم ترتيب صفوف من الطوب بميل بشكل معاكس ليظهر اللون الأحادى فى الزخرفة حيث يضى عليه نسبة من الأضواء والظلال الموحدة، والتي تغطى بها المساحات الكبيرة، كما كانت تضاف أحياناً صفوف من الطوب بطريقة متعاقبة فيظهر ببروز حيناً وفى شكل دخلات حيناً آخر والزخرفة كلها فى لون أحادى إلا أن الظلال هنا تظهر فى درجتين، كما استعين بوصلات من الطوب من لون أفتح فى درجة اللون بين كل صفين من صفوف الطوب الوردى الفاتح لتظهر التجسيمات والكسوة الخارجية فى درجتين من اللون، وتحتوى الكتابات على أحرف تنتهى بنهايات مقطعة ومسننة وقد شكلت من الطوب والتي تلتف حول البدن لتفصل بين اللوحات الهندسية، واحتوت الكتابات على الزخارف الزهرية وتتبعها المتشابكات الهندسية التى تشكل الزخارف الداخلية المنحوتة فى الجص، وقد استطعنا تأريخ جامع "نايين" بفضل زخارفه الكتابية التى تشير إلى بنائه عام (٩٦٠)، كما تظهر الأحرف من أعلاها بأشكال مقطعة لتنتهى بوريدات صغيرة، وهى من أهم عناصر الخط الكوفى المورق، والزخرفة الزهرية تشبه إلى حد كبير زخارف سامراء، وبالنسبة للأشكال النباتية فقد تكدست مثل النقر المحزوز، وهناك تباين فى بعض

عناصر الزخرفة بجامع "تايين" جعلنا نرجح انتماءها لأصول أكثر قدمًا من سامراء بل ربما تكون هي الأصول لزخارف سامراء، وأن تكون العمائر التي نقب عنها في منطقة الحيرة الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات هي الجزع المشترك بينهما، وأيًا كان مصدر هذه الزخرفة فإن تقاليد بلاد ما بين النهرين واضح أثرها في "تايين" وظلت باقية في إيران طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ويمكننا تتبعها في الزخارف الجصية الموجودة في جامع "كيرمان" عام (١٠٨٤)، أو في "أردستان" وفي "زواره" عام (١١٣٥) كما وجدناها في لوحات مختلفة تتألف من شخصيات من منطقة "راجز"، وقد استخدمت نفس هذه الزخارف في المنحوتات الخشبية.



لوحة (١٤) الجامع الكبير بقرطبة - القبة المقامة على الأضلاع (العروق) الخشبية

فنون الأثاث:

الخزف:

ومع استمرار الخزارف المعمارية المنحوتة فى الجص، ظهر الخزف الفارسى من القرن العاشر، والحادى والثانى عشر، امتداداً لعصر العباسيين العظام، وقد ظلت دور صناعة الخزف فى كلٍّ من "راجس وجرجان" وغيرهما من دور الخزف الأخرى فى إنتاج الخزف ذى البريق المعدنى الذى يطلى به باطن الأوانى والأطباق، رسمت عليه بعض الأشكال الآدمية والحيوانية، وفى منطقة "نيسابور" ظهر نمط جديد من الأقداح المزخرفة بالكتابة السوداء المحفورة على سطح لونه سكرى، (انظر لوحة ٩-١٢) وفى أحدث الاكتشافات من مدينة نيسابور عثر على مجموعات مبعثرة تحتوى على زخارف زهرية محورة، وأخرى مؤلفة من زخارف شبه كتابية وحيوانية معاً، والتى ترجع بنا إلى سجل الحيوانات العتيق لبلاد فارس، ومن الطرز الأخرى فى جنوب روسيا الحالية وهى (منطقة أفراسياب أى سمرقند سابقاً) وفى بعض المواقع المطللة على سمرقند، "أميداريا" وفى "لشكارى بازار"، والتى تتماثل أكثر مع خزف "تانج" من منطقة الشرق الأقصى.

وبالنسبة للزخارف المرسومة، فقد عرف طراز "الجبرى" وتغطى القطعة بطلاء من الطفلة البيضاء ثم تصقل جزئياً، وتبلل بدھان شفاف فيظهر اللون داكناً للأشكال المنقوشة من تحت هذه الطبقة الشفافة كما كانت تلوّن أحياناً ببقع من الألوان المختلفة.

البرونز:

استخدم النقش في الوجوه الحيوانية التي شكلت عناصر الزخرفة على أسطح البرونز من العصر الفارسي، وهي لا تضيف أى تعديل من الداخل فالآنية تحتفظ ببساطتها وعرضها، مثال الأباريق ذات العروتين، والسطل ذو المقابض، والجرن والمرايا والقناديل، وأحياناً نجد المعدن قد ثقب مرة أخرى وخاصة في الشمعدان، والقناديل والمباخر وقد شكلت بأشكال ذات أقدام رباعية، والزخارف تظهر كصورة ظلّية على سطح غامق أو فاتح.

الزجاج:

عرفت إيران صناعة الزجاج المصنوع في قوالب والمنقوش، إلا أننا أحياناً نخلط بينه وبين الزجاج المصنوع في مصر من تلك الفترة.

الأقمشة:

لا يوجد دليل لدينا حتى الآن عن مصادر الأقمشة الحريرية المؤلفة من شرائط من الكتابات الكوفية والتي صنعت في "الطراز".

الفصل الثاني

الفن الفاطمي

فى مواجهة خلفاء بغداد، والذين بقوا منهم مسلوبى قوتهم مؤقتاً تحت حماية البويهيين ثم الأتراك والخليفة الفاطمى المنافس الذى استقر فى مصر وقد سانداهم خلال قرنين من الزمان من عام (٩٧٢) حتى (١١٧١)، ويرجع هذا الخليفة فى الأصل إلى بعض قبائل البرابرة من مدينة قسطنطينة الحالية.

وقد استطاع هؤلاء الأجلاف الجيليون أن يحققوا النصر فى الدفاع عن القضية الشيعية انتى تعطيتهم الشرعية فى الخلافة من آل بيت السيدة فاطمة ابنة الرسول "محمد" وصهره "على"، وقد قاموا بتنظيم قوة محاربة وابتداءً من القرن العاشر استطاع أحدهم تنصيب نفسه حاكماً، فقاموا بانتزاع إفريقية من يد الأغالبة؛ ذلك بعد أن مكث الفاطميون ستين عاماً حتى نقلوا مقر إقامتهم إلى حوض نهر النيل، وقد أمدتنا الأبحاث الحديثة بالكثير من المعلومات الثرية عن تاريخ حكم هذه الأسرة.

العمارة الدينية:

نشأت مدينة المهديّة المحصنة على أحد السواحل التونسية التى أقامها المهدي مؤسس هذه الأسرة ومازالت تحتفظ إلى الآن ببعض تحصيناتها وقصورها، كما شيد بها أول جامع وقد أعيد بناؤه مع باقى أجزاء المحراب،

ومدخله الضخم الذى يوصل إلى الصحن. ويظهر هذا المدخل من خارج السور، ويذكرنا هذا العنصر المعماري بأقواس النصر الرومانية والإيوانات الفارسية، والمدخل يظهر فى شكل فتحة واسعة غرس بها عقد كامل مزدوج، ومحاط بها صفان من النيشات تنتهى بإفريز.

الجامع الكبير بصفاقص:

ويبدو أن هذا الجامع قد أعيد بناؤه كاملاً عام (٩٨٨)، أى بعد خمسة عشر عاماً من رحيل الخليفة إلى مصر، وتمتد أجنحته باتجاه العمق، وقد غطيت بأقبية بارزة بدلاً من الأسقف المنفذة فى جامع القيروان الكبير، وبالنسبة للدعامات فهى تتألف من الأعمدة والأكتاف وأرجل العقود التى تركز بداخلها المشدات الخشبية مثل جامع القيروان، والمئذنة تذكرنا بمآذن الجامع الكبير من عصر الأغالبة، كذلك تظهر مآذن القيروان فارغة، وتتكون من ثلاثة طوابق متطابقة وقد أحيط كل طابق بزخارف مؤلفة من الحبيبات، ومن الطبيعى أن يظل الفاطميون محافظين على ذكرياتهم من بلاد إفريقية مسقط رأسهم حتى بعد مجيئهم إلى مصر، وأهم شاهد على ذلك تشييدهم لمدينة القاهرة لتكون المقر الجديد لهم، والتى تقع على مقربة من مدينة الفسطاط القديمة، ويعد الجامع الأزهر أول عمائرهم الدينية، شيد سنة (٩٧٢) وقد تمت به الكثير من التغييرات والتوسيعات التى وظفت ليصبح "جامعة"، وما يهمنا هنا هو تخطيطه الأول؛ ويتألف من صحن مستطيل، تحيط به الأروقة المعمدة من جوانبه الأربعة، ثم رواق يشبه المجاز الموجود فى الجامع الكبير بالقيروان الذى يسبق رواق القبلة (قاعة الصلاة) التى تتألف

من خمسة أجنحة مستعرضة على غرار جامع ابن طولون. وهذا الترتيب يقطعه جناح رئيسي باتجاه العمق يصل إلى المحراب، والعقود التى تحدد الأجنحة وتحمل الأسقف ترتكز على كرائش وعضدت بأعمدة قديمة مثل جامع القيروان. والبائكة الوسطى تحاط بها أعمدة مزدوجة، والقبتان تقعان فى نهاية الجناح الرئيسي؛ الأولى تسبق المحراب، والثانية أعلى الرواق الأمامى، وهكذا نجد فى أولى عمائر الفاطميين فى مصر الجامع الأزهر الذى يظهر فيه جليًا التأثيرات المعمارية من إفريقية والتى تزامنت مع التأثيرات المحلية من العصر الطولونى.

ويظهر العنصر الطولونى المحلى فى العمارة الفاطمية الثانية وهو جامع الحاكم بأمر الله الذى بدأ فى تشييده عام (٩٩٠) وانتهى منه عام (١٠٠٣) وقد استعار المهندس المعماري من تخطيط ابن طولون الصحن المربع الواسع والمؤلف من خمسة أجنحة مستعرضة، وعقود حادة ومزدوجة وأساطين مستطيلة من الطوب أدمج بها أشباه أعمدة صغيرة وأيضًا الفتحات الصغيرة بين العقود. والجناح الرئيسى الممتد بعمق والمعاكس لاتجاه الأجنحة الخمسة التى تحمل القبة عند النهاية تذكرنا بتخطيط الأزهر، وسوف نعاود الكلام عن المدخل الذى يوصل إلى الصحن، والمئذنتين المرتفعتين عند العقود الأمامية للمسجد لأهميتهما من حيث الزخرفة، وكلٌّ من المئذنة والمدخل مهمان أيضًا من حيث الزخارف التى تحتوى عليها، وأهم ما يميز جامع الأقمر المؤرخ بعام (١١٢٥). الزخارف النحتية فى المدخل والواجهة، وجامع الصالح طلائع هو آخر عمارة دينية من عصر الفاطميين إلا أنه حظى بتخطيط جعله ينفرد عن سائر الجوامع المصرية، والجامع يقع فوق

دكاكين ويحتوى على واجهة يسبقها رواق مسقوف يؤلف بين مقدمتى البناء، وتشتمل قاعة الصلاة على ثلاثة أجنحة مستعرضة، وضلع محورى عريض يصل بعمق إلى الممر المؤدى إلى المحراب، ومن خلال سردنا للمساجد الفاطمية، يبقى لنا جامع يختلف تمامًا عن المساجد الأخرى لأنه احتوى على طراز جديد ويعرف باسم "الجامع الجبوشي" المؤرخ بسنة (١٠٨٥) ويقع خارج القاهرة على هضبة الجبل المقطم التى تشرف من أعلى على وادى النيل، وهذا المشهد مكان للزيارة والتبرك به، وضريح دفن به مؤسسه أمير الجيوش بدر الجمالى، والعنصر المركب قد ظهر جليًا فى هذه العمارة حيث يحتوى على ثلاثة أجزاء متسلسلة، والجزء الذى يقع فى مقدمة البناء يتألف من بهو مربع ترتفع فوقه مئذنة، ومحاط عن يمينه سلم يصعد منه إلى المئذنة، وعن يساره توجد قاعة الوضوء، وفى الجزء الأمامى يفتح الصحن بين حجرتين أعدتا لاستقبال الحجاج أو الزائرين الذين جاءوا للتبرك، وأيضًا كسكن لخدام الضريح، والجزء الخلفى به قاعة للصلاة، وتحتوى على مقنطرة ثلاثية توصل إلى القبة الكبيرة التى تسبق المحراب، ويلتصق بهذه المقصورة قاعة أخرى مقببة حيث يرقد بها مؤسسها، وأهم عنصرين فى هذه العمارة الدينية والتى يجب التوقف عندها؛ المئذنة المشيدة على هيئة برجين مربعين، وبرج مثنى غطى بقلنسوة، وهذا الطراز الجديد قد لاقى انتشارًا واسعًا فى مساجد القاهرة، والقبة الكبيرة فى المقصورة بدورها أصبحت من أهم العناصر الأساسية فى العمائر الجنائزية (الأضرحة) والتى أثرت على هيئة القباب فظهرت بشكل مدبب كأحد الملامح العامة والمميزة فى العمارة المصرية. وهكذا شيد الفاطميون الأضرحة المقببة على نفس الطراز الإيرانى،

ومن أقدم هذه العماائر بعض الأضرحة التى نشاهدها بين المقطم والفسطاط، والمعروفة باسم "السبع بنات" وقد شيدت سنة (١٠١٦) على يد أحد الوزراء الذى يرجع أصله إلى مدينة بغداد، واستخدم فى عمارتها الدبش كما احتوت على تخطيط مربع ثقت به فتحة على كل جانب من جوانبها ومغطاة بقبة، وهذه الأضرحة التى غالبًا ما يضاف لها محراب استخدمت كمصلى، وقد انتشرت فى النصف الأول من القرن الثانى عشر.

والضريح المعروف باسم "إخوة يوسف" يؤرخ بحوالى عام (١١٠٠) ويحتوى على قبة محملة على أربع من عقود الزوايا بشكل القبة النصفية، وفى كل من ضريح الجعفرى والسيدة عاتكة المؤرخان بعد عام (١١٠٠) نرى عقود الزوايا فيهما أكثر تعقيدًا حيث استخدمت كعنصر معمارى وزخرفى فى آن واحد، ويتكون من طابقين من التجويفات المقوسة والمركبة على نمط العماائر الفارسية مثل جامع يزد المؤرخ بعام (١٠٣٧)، والجامع الكبير بأصفهان سنة (١٠٧٢) وقد احتوت على الكثير من التنويعات البارعة. ومن إرث إيران الذى ظهر فى عماائر الفاطميين ظهور المقرنص وهو من الزخارف الإسلامية البحتة التى أفرزت الكثير من الأساليب البارعة التى امتدت حتى وصلت إلى الغرب.

العمارة الحربية:

كان لكبار الحكام ذوى الأصول العراقية من مدينة بغداد دور مؤثر على العمارة الجنائزية المستقاة من الطرز الإيرانية، وفى العمارة الحربية كذلك كان لوزير الدولة الفاطمى أمير الجيوش بدر الجمالى تأثيره الواضح

فى بناء التحصينات الحربية وإليه ينسب الجامع الجيوشى، وقد عينه الخليفة المستنصر عام (١٠٧٤) وإليه يرجع الفضل فى كثير من الإصلاحات التى أنقذت البلاد من الأوضاع السيئة التى كانت تمر بها، وبدر من أصل أرمنى ولد فى أحد الأقطار الساحلية التابعة للقسطنطينية، وقد أسند هذه الأعمال لبعض المهندسين المعماريين من المدينة اليونانية "إيداس" حيث تظهر بعض الأحرف اليونانية كعلامات استخدموها فى الأحجار، والرجوع للتقاليد البيزنطية الواضحة فى أكثر من ملمح.

وقد شكلت الحصون بقطع غير مصقولة من الدبش بين حواف الأحجار، وبها فواصل مقطعة بشكل مشطوف، وأبدان الأعمدة المائلة مغروسة بسُمك الجدار، والأبراج مربعة ومحرودة ومحاطة بظاهر الجدار وتظهر من الداخل ب بروز قوية.

وهناك ثلاثة أبواب ضخمة منقورة بالجدار؛ باب النصر، باب الفتوح، وباب زويلة وملاصقة للأبراج المربعة أو المستديرة وهى مداخل للمدينة، وتعد من أجل عمائر القاهرة، ويحتوى الباب على بهو مركزى مغطى بقبو بارز، وأحياناً بقبة نصف كروية، ومعظم التخطيطات الإنشائية للأسقف والفتحات استخدم فيها العقد الكامل، والزخارف بسيطة ومستوحاة من الزخارف الهلنستية، وفى باب زويلة نجد الركنيات وقد زخرفت بالدروع والسيوف ذات الطابع الرومانى.

العمارة المدنية:

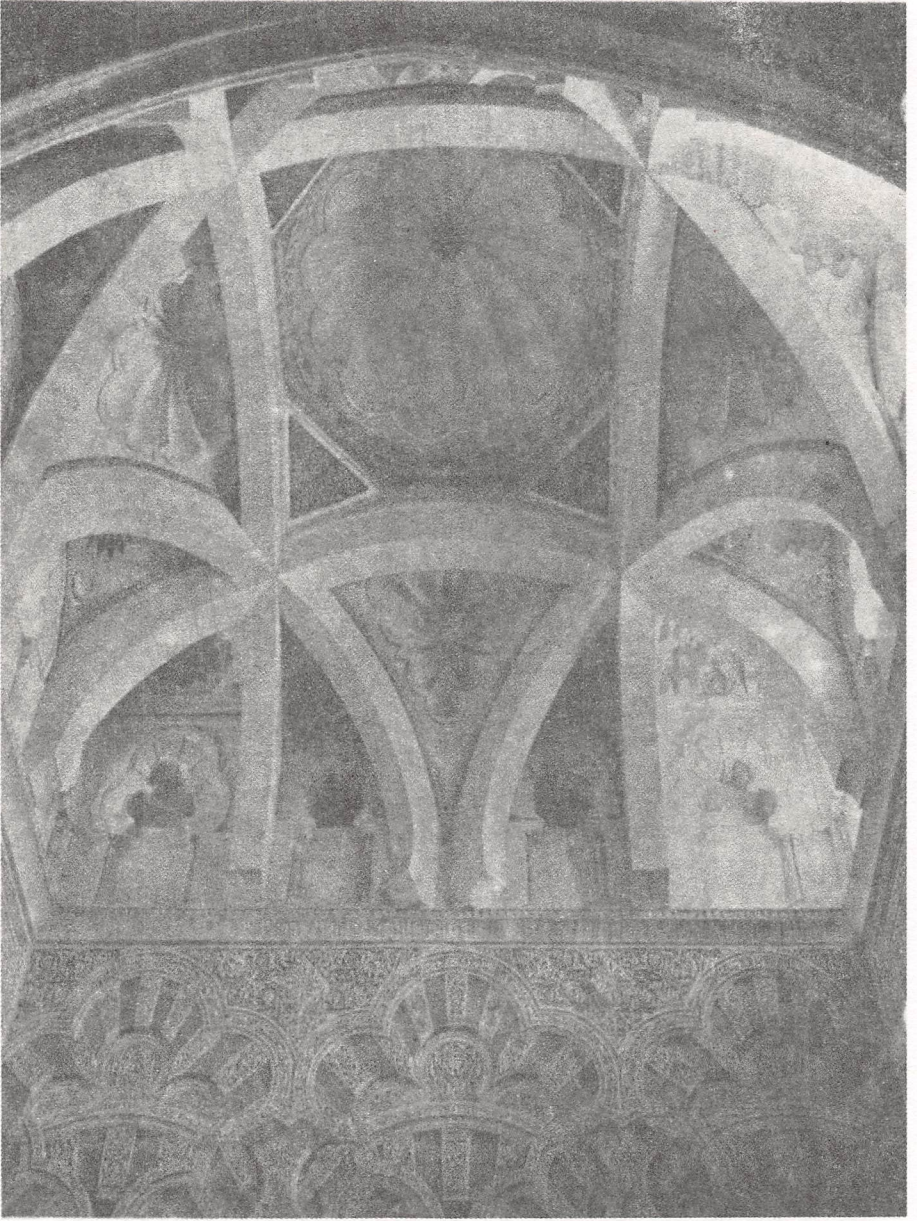
لم يتبقَّ في القاهرة أى من الدور الفخمة التى كان يقطنها الخلفاء، لاسيما القصران القابعان المواجهان لبعضهما بوسط المدينة، وللتعرف على عمارة الفاطميين المدنية كان لزاماً علينا الرجوع إلى شمال إفريقية ودراسة أولى العمائر التى شيدها بنو زيرى وبنو حماد، وفى المهدية استطعنا تحديد المكان الذى أقيم عليه قصر المهدي المؤرخ بعام (٩٠٨-٩٣٤) والذى حل محله قلعة تركية، وبالقرب منه أظهرت الحفائر بقايا قصر القائم والمؤرخ بعام (٩٣٤-٩٤٦) والمدخل فى حالة جيدة من الحفظ ويخرج ببروز عن الواجهة، والبهو مسدود والدخول عن طريق الأبواب الجانبية المؤدية إلى الأفنية والقاعات.

وتحتوى إحدى القاعات على زخارف من بلاطات الفسيفساء، وهى من الأساليب التقنية القديمة التى عرفها مؤخرًا المسلمون.

كما عثرنا على تخطيط أحد القصور فى مدينة صبرة-المنصورية وتقع عند أعتاب القيروان التى بناها المنصور ابن القائم عام (٩٤٧)، وبالنسبة لتخطيط القاعات فهى تتألف من قاعة مستطيلة وعريضة تحيط برحبة تؤدى إلى ثلاث قاعات طويلة تتفتح جنباً إلى جنب على واجهة الرحبة، والقاعتان الجانبيتان تحيطان بالقاعة الوسطى العريضة وبدون جدران فى الواجهة على هيئة الإيوان، والقاعات الثلاث الأخيرة تتفتح من الخلف على قاعة تشغل مساحة العرض كله، وترتيب هذه القاعات يذكرنا بالمنازل الطولونية فى الفسطاط، كما جعلتنا نفترض إمكانية اتباع المعماريين التونسيين لبعض

الأساليب المعمارية المصرية وبلاد ما بين النهرين مبكرًا، ونجد أن هذا التيار الفنّي قد بدأ فى الشرق ووصل إلى الغرب على يد البرابرة الفاطميين، وانتقال تلك الأشكال الشرقيّة إلى إفريقيّة ظهرت فى منطقة "أشير" مهد الزيريين وتقع جنوب مدينة الجزائر، والقصر الذى نقب عنه الأستاذ Lucien Golvin يحمل الكثير من معالم قصر "القائم" فى المهدية، ويحتوى تخطيط هذا القصر على مدخل فى مقدمة البناء ثم بهو مسدود من داخل الأبواب الجانبية تطل على خمسة أصحن محاطة بالقاعات بترتيب دقيق. ويؤرخ النويرى هذا القصر وقصرًا آخر بعام (٩٣٥) وقد شيّدا على يد أحد المعماريين من إفريقيّة.

كما استمرت التأثيرات الشرقيّة مستعملة حوالى مائة وستين عامًا فى قلعة "بنى حماد" ويمدون بالقرابة "لبنى زيري"، وقد تتأثرت بقايا تلك المدينة فى الجبال التى تحيط بمدينة قسطنطينة بالجزائر ولم يتبقّ منها سوى مئذنة المسجد المرتفعة، والبرج المحصن (المنازل) وباقي أحد القصور التى تم تجديد التخطيط الذى كان عليه ويؤرخ بالقرن الحادى عشر.



لوحة (١٥) قصر إشبيلية

وبركة دار البحار مثل قصور أخرى احتوت على بعض التخطيطات التى تتمركز حول صحنين، والصحن الأول واسع وبه بركة كبيرة أطلق عليها اسم دار البحار (أى بيت البحيرة) تطل على القصر، وقاعات للاستقبال التى تفصل بين صحنى القصر، وبالقرب منها توجد الحمامات وهى من الملحقات الضرورية فى منازل أثرياء المسلمين، وباقى الإنشاءات الأخرى قد وزعت بدون تنسيق وتشتمل على الخزانات والحدائق التى تمتد من دار البحار بانحدار حتى تصل إلى أقدام المشارف التى تطل على المدينة، والبرج المحصن "المنار" يحتوى على قاعة مربعة، وكل جانب به تجويفة مقبية مما يعطيها الشكل المتعامد، والأحدور الذى يحيط بهذه القاعة المركزية يوصل إلى الشرفات، كما نشاهد قباب هذه القصور من الخارج فنراها شاهقة، وما يميز هذه القصور أيضاً واجهتها الزاخرة بالمستطيلات المترابطة بشكل متماثل، والمقاصير الطويلة تمتد من أسفل القاعدة إلى أعلى الجدران وتنتهى بمحارة نصف مقبية ملئت بالمقرنصات التى تزين مقدمات البناء والدخلات، ويبدو أن هذا الطراز من الواجهات يرجع أصوله إلى بلاد ما بين النهرين.

كما أدت الغزوات المتكررة من البدو العرب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر على بعض الأفطار القريبة من بنى حماد إلى أن يتركوا قلعتهم ليستقروا فى مدينة "بجاية" والتى للأسف لم يتبق منها أى من قصورهم الجميلة سوى بعض الأسماء والأماكن.

وبخلاف تلك العمائر التى تأكدت فيها ملامح العمارة الفاطمية، فقد بحثنا عنها أيضاً فى العمارة المدنية مثل الكنائس التى شيدها بعض الأمراء النورمانديين فى مدينة صقلية من القرن الثانى عشر، ومن هؤلاء الأمراء

المسيحيين روجر الثانى، وچييوم الأول، وچييوم الثانى والذين عاشوا محاطين بالمسلمين، وقد ظلت الكثير من التقاليد الإسلامية سائدة ببلاطهم، وفى مدينة بالرمو وضواحيها شيدت الكثير من القصور الجميلة التى تحمل أسماء عربية، وقد ساعدتنا حفائر قلعة بنى حماد على فهم التخطيط الذى كانت عليه تلك القصور التى ذكرناها من قبل؛ وهذه القصور هى قبة Cuba، والعزيزة La Ziza والتى شيدها الملك جبيوم الثانى.

وفى عمائر بنى حماد كانت واجهات البناء مستطيلة، ويحتوى قصر العزيزة على قاعة مربعة تشبه البرج المحصن فى القلعة، وهى منقورة من الداخل وتحيط بها الممرات التى توصل إلى الطابق العلوى، والمقرنصات بدورها أعطت للزخرفة تأثيراً مميزاً وغير مسبوق يجمع بين الملامح البيزنطية والإسلامية معاً، مما زاد من ثراء الزخارف الفاطمية التى تأثرت بالطرز الإسبانية أو المغربية.

الزخرفة:

لقد حظى تاريخ الزخارف الإسلامية فى العصر الفاطمى بمكانة فريدة ليس فقط من حيث الكم فى المجموعات التى وصلت إلينا بل الكيف فى التدقيق عند اختيار العناصر المؤلفة للزخرفة وطريقة استخدامها، ومن خلال المجموعات التى وصلت إلينا فإن أهم ما يميزها بساطتها مثل الدهليز المسقوف، والدخالات، والمقنطرات، والنيشات التى شكلت أهم عناصر الزخارف الخارجية فى جامع المهدية.

والنيشات والعقود الصغيرة الملتحمة بواسطة الكورنيش ذى الطنف التى تتوالى بطول الواجهة الجانبية لجامع صفاقص، والنحت المستخدم فى زخرفة الدهاليز المسقوفة قارب بين جامع الحاكم والأقمر، ويعد طراز الأقمر مثالا للتطور الرئيسى للدهليز المسقوف بالمهدية حيث نجد تجويف عريضة فى الوسط تتفتح على باب ذى عتبة مستقيمة، تعلوها لوحة الجبهة المقعرة والمجزعة من أعلى لأسفل والتى تشع منها الرصيبة المستديرة الملتنقة بوسط الواجهة.

والمدخل يلتصق به ثلاثة طوابق مؤلفة من النيشات، اثنان منها شكلا على هيئة الأصداف ويفصل بينهما الطابق الثالث المملوء بالمقرنصات، ونصل إلى إفريزين يحتويان على زخارف كتابية وحلية ضخمة شكلت الإطار الذى يربطه بباقي زخارف الواجهة.

وفى قلعة بنى حماد قسم بدن المئذنة من الخارج إلى ثلاثة صفوف رأسية مع إضافة صفوف من الدخلات فوق بعضها، والنيشات المنقورة والمسطحة من الداخل تمتد إلى أعلى لتلتقى بالدخلة المحورية التى فتحت بها النوافذ. ومعظم زخارف هذه المئذنة اندثرت ولم يتبق منها سوى بعض التليسات المطلية بالمينا التى كانت تزخرف العقود الصغيرة الجانبية.

الترصيع بالخزف:

عرف هذا النوع من الزخارف تطورا كبيرا فى بلاد المغرب وإسبانيا حيث استخدم بكثرة فى التليط والتليسات فى قصور "القلعة"، فوجدنا متوازي المستطيلات من الطين المحروق، وقد كسى جزئيا بالمينا وأيضا

الكورنيشات التي تحتوى على المقرنصات، وكل من المقرنص والأساليب المعمارية من الخزف مستقاة من الفن الإيراني.

وتخطيط العقود فى الفن الإسلامى يظهر فيه الخيال المبدع للمزخرف أكثر من منهجية المعمارى وهذا ما يميز هذا العصر بطرزه الزخرفية المختلفة، والأجزاء القديمة بالجامع الأزهر تحتوى على عقود حادة تشبه العقود القوطية، وفى جامع الحاكم نجد العقد الحاد يشبه بعض الشيء العقد المنحنى على غرار جامع ابن طولون، كما استخدم العقد الحاد أيضا فى مئذنة "القلعة" وفى بعض العنائر الصقلية المؤرخة بالقرن الثانى عشر، مما جعلنا نفترض انتقاله إلى العمارة المسيحية، وفى غضون القرن الحادى عشر انتصر العقد ذو البتلتين على الأنماط الأخرى وساد استخدامه طوال القرن الثانى عشر، كما تعارفنا على القنطرة وهى عبارة (عن عقد صغير من حلقة تمتد بواسطة خطين مماس) وقد عرف أحيانا باسم العقد الفارسى الذى يدل على منشئه، كما وجدنا أشكالا مختلفة من العقود ذات الفصوص، والخطوط المنحنية الأضلاع المؤلفة من سلسلة من الفصوص المنقطعة بزاوية قائمة، وكثير من التيجان التى تقع على أعمدة الأركان والملاصقة لفتحة المحاريب الفاطمية اندثرت مع الأعمدة نفسها.

وهذا النمط السائد قد أثر بدوره على صفة تاج العمود بشكل جرسى مقلوب فى العمارة الطولونية والمستوحاة من سامراء، وفى بلاد البرابرة عثرنا على بقايا أبدان من المرمر وبعض التيجان الرائعة من مدينة صبرة مقر الأمراء الزيريين وقد أعيد استخدامها فى الجامع الكبير بالقىروان.

وهذه التيجان مستمدة من بغض الطرز من القرن التاسع وتشتمل على أربعة أجنحة نخيلية مثلثة ملتحمة من القاعدة وبها حليات نائثة تشبه ورقات نبات متقوسة، وهناك زخارف مجوفة خيطية تملأ المساحات دون تغيير الشكل البسيط للحنية، والأبدان الأسطوانية زخرفت من أعلاها بحلقات تحتوى على زخارف كتابية أو زهرية أو ذات نقش ضئيل البروز، وقد عرفت صقلية النورماندية هذا الطراز من الأعمدة، وبالنسبة للزخارف الخيطية من العصر الفاطمي كان لها دور رائد فى تاريخ الزخارف الإسلامية، كما عرف هذا العصر بداية ظهور زخارف الأرابيسك حوالى عام (١٠٠٠) فى مئذنتين ومدخل جامع الحاكم، وبخلاف بعض الأمثلة القليلة إلا أن معظم الزخارف كانت نصف مسطحة فى المساحات المستوية أو المنحنية كما لم تتعد المساحة المحددة لها أو تخرج عنها ببروز، وهى تحتوى على تصميمين وختل تمامًا من أى نماذج مجسمة، أو تقطيعات مائلة تلحم فيما بينها، والعناصر الموجودة فى التصميم العلوى لم تخرج عن الارتفاع المحدد، فلا تصل إلى عمق الجدار أو إلى باطن قطعة الأثاث، وقطعت بطريقة تسمح بمرور الضوء إليها، والنسب كان يجب أن تراعى فى الإطار عند استعمال العناصر الفاتحة والخلفيات الداكنة، وبين الأجزاء المملوءة والفارغة، فالإطار يزخرف بالكامل ومن الداخل أيضًا ليتلاءم مع الخطوط المعمارية. وكثافة الزخرفة يجب أن تكون هى الأخرى متماثلة ولكن قد تختلف من لوحة لأخرى فى النسب المتنوعة بين الأجزاء الفارغة والمملوءة، وبين الفاتح والغامق وفى الأشكال العريضة البارزة، وعمق الدخلات فهكذا كان التنوع بين الأساليب المحلية والطبقات المتعددة فى اللوحات.

وقد استخدم الفنان الأشكال الدقيقة وتفادى اللجوء للنماذج الضخمة التي أحياناً تُلطخ الشكل المتمثل مما يفسد الانسجام فيه، ومن العناصر الزخرفية الأساسية؛ الشريط العريض الذي كان يحدد التصور البنائي ويعطى نوعاً من التناغم في التكوين، وأحياناً كان يشكل العنصر الأوحى الذي تقوم عليه الزخرفة. وكان الفنان يضع الخطوط التي سيسير عليها الشريط، وعلى الرغم من تعقيدها فإنها منسجمة مع نفسها، وأحياناً يظهر الشريط متلبداً ومتماسكاً، حتى إن الناظر إليه كان يجد متعة في تتبعه حتى لو تاهت العين في نقاط الالتقاء وهذا ما اهتم به أيضاً مصمم الأرابيسك.

وبالنسبة لعمل الرسام أو الخطاط فكان يتطلب منه المهارة الفائقة، وعدم محاكاة العالم الخارجى لذلك أصبحت الزخارف الإسلامية من الأعمال الفكرية البحتة.

وكان المزخرف يعتمد على ذاكرته، وعلى بعض التقاليد المحلية التي تعلمها في دور الخزف والطرز التي تعرف عليها، وكلها بعيدة عن محاكاة الطبيعة، فهو لا ينقل النبات من الطبيعة مباشرة بل ما تصوره النحاتون وعمال الفسيفساء في زخارفهم؛ أى يقوم بنممة المنمنمات ويستقى منها ثم يغير شكلها؛ وهكذا وبدون قصد تكونت شخصيته وظهرت مهارته ورؤيته الخاصة لمفهوم الجمال وقد احتوى سجل الأشكال الزخرفية على أربعة عناصر؛ الكتابات، والزخارف الهندسية، والزهرية، والحيوانية، أما الزخارف الحيوانية فقد استخدمت بكثرة في بعض قطع الأثاث.

ونعود ثانية لأهمية الأسباب الدينية وتأثيرها على الزخارف الكتابية التي احتوت على نصوص قرآنية وعبارات إيمانية، وقد شاهدناها على جدران أولى العمائر الإسلامية واشتملت على كتابات تعبر عن الحقيقة

الإيمانية، وبعض الأدعية لمن شيدها. والكتابة كانت تنقش على الحجر أو ترسم على الفسيفساء، كما تدون بعض آيات من القرآن الكريم على الرق، فظهر الخط الكوفي المزوى والصلب الذى استخدم فى النقش على العملات واستمر استخدامه حتى القرن الثانى عشر ليحل محله الخط النسخى، وهكذا اختفى الكوفي تمامًا من الزخرفة. وظل الخط الكوفي مستعملًا طوال العصر الفاطمى دون منافس، وعلى الرغم من القيمة الزخرفية لتلك الأحرف الكوفية الصلبة فإنها لم تكن موفقة لاستخدامها فى بعض الزخارف مثل الأرابيسك، فكانت الكتابات تسطر على الصف السفلى من الإفريز أو الشريط ويترك الجزء العلوى منه خاليًا تمامًا من الكتابات حيث ترتفع ذيول الأحرف الطويلة مثل (الألف، اللام، القاف، الطاء)، وإذا ما صادف المزخرف مشكلة ما كان يلجأ لبعض الحيل الزخرفية، فمثلًا يطور من أشكال ذيول الأحرف الطويلة أو يملأ المساحات الفارغة بالعناصر النباتية، ويعد الفنانون المصريون فى العصر الفاطمى من طلائع المبدعين فى مجال الزخارف الكتابية، وترجع أصول الخط الكوفي المزهر المستعمل فى وادى النيل إلى منطقة آسيا، وقد انتشر بعد ذلك فى بقاع أخرى من أقطار العالم الإسلامى، وفى بداية القرن الحادى عشر شهد الخط الكوفي تطورًا مذهلاً فى منطقة "أميدا" التى تقع على الشاطئ الغربى لنهر دجلة، وفى منطقة "رادكان" فى الجزء الشمالى الشرقى من إيران، وحوالى سنة (١٠٢٥) فى مدينة القيروان حيث ابتكر النحاتون على الرخام والخشب، والرسامون على الأسقف طرزًا متنوعة من زخارف الكتابات الكوفية الثرية والتى لا تضاهيها فى جمالها زخارف العمائر المصرية، أما مصر فقد انفردت بتطوير الزخارف الهندسية والتى ظهرت فى مئذنة الحاكم عام (١٠٠٣) مؤلفة من أشربة ولوحات، وشرفات مشيدة من الحجر وزخرفت بتكوينات من الزخارف الخطية ذات ملمح قريب من الزخارف

الهندسية الإسلامية، وبعد مرور مائة وأربعين عامًا وجدنا مثالا لتلك الزخارف فى المحراب الخشبى لصريح السيدة نفيسة المؤرخ بعام (١١٣٨-١١٤٥) ومحراب السيدة رقية حوالى عام (١١٥٠) وقد كسيت عن آخرها بتلك الزخارف الخطية.

وكان المزخرف يقسم المساحة بعد أن يحدد محاورها الرأسية والأفقية حول نقطة التقاء مركزية ليشكل المضلع المشع أى الشكل النجمى والمحدد بواسطة الخطوط الحادة فتتداخل الزوايا المعكوسة والخارجة فيظهر الشكل النجمى ذو الثمانى زوايا المدببة، والزوايا الخارجة بشكل الزوايا القائمة، وتمتد للخارج من جانبي المضلع المركزى لتحديد مساحات أخرى جديدة تلتحم بمضلع آخر متماثل لتكوين الشكل النجمى المشع، ومحيط المضلعات كان يحدد بخط مزدوج وليس بواسطة الخط البسيط والشريط وهو أحد أهم عناصر الأرابيسك الذى يؤلف بين المضلعات وتخرج منه المتشابكات فكان الشريط يمر من أسفل إلى أعلى بتمائل وكذلك جميع الزخارف الخطية التى تنبثق منها الأشكال المستقيمة والمنحنية.

ولا ندرى إن كان الشكل المقوس أو الضفيرة المجدولة المعروفة عند فناني الفسيفساء الهلنستيين كان بداية ظهور المتشابكات، وفى أعمال التجليد ظهرت عناصر زخرفية من المتشابكات المقوسة، كما فى اللوحات المنحوتة فى منبر القيروان، وقد ساد فى العصر الفاطمى استخدام الأشرطة المقوسة والمنحنية الأضلاع الملتحمة بالزخارف الزهرية وتتألف الزخارف الزهرية من عنصرين مختلفين يمكن تتبعهما من جيل إلى آخر، ومن بعض الأشكال العريضة لملء الفراغات مما أعطى نوعًا من الثراء للشبكة التى تقع أسفلها

فنجذ الدعامة مثل الساق، والأغصان كانت تنتهى بأشكال أو أوراق نباتية، ونخيلية ووريدات، والغصن من أبسط العناصر الزخرفية الملتصقة بالساق ويظهر الخط فيه متموجاً وتتبع منه الأغصان الحلزونية التى تزخرف المنحنيات المقعرة وقد أصبحت فيما بعد العنصر الأساسى لزخارف الأرابيسك، والمنحنيات بدورها تشكل فى اتجاه عكسى لتقابل مع أحد المنحنيات الأخرى، وقد لاقى عنصر الضفيرة المجدولة نجاحاً فائقاً فى الزخارف الزهرية.

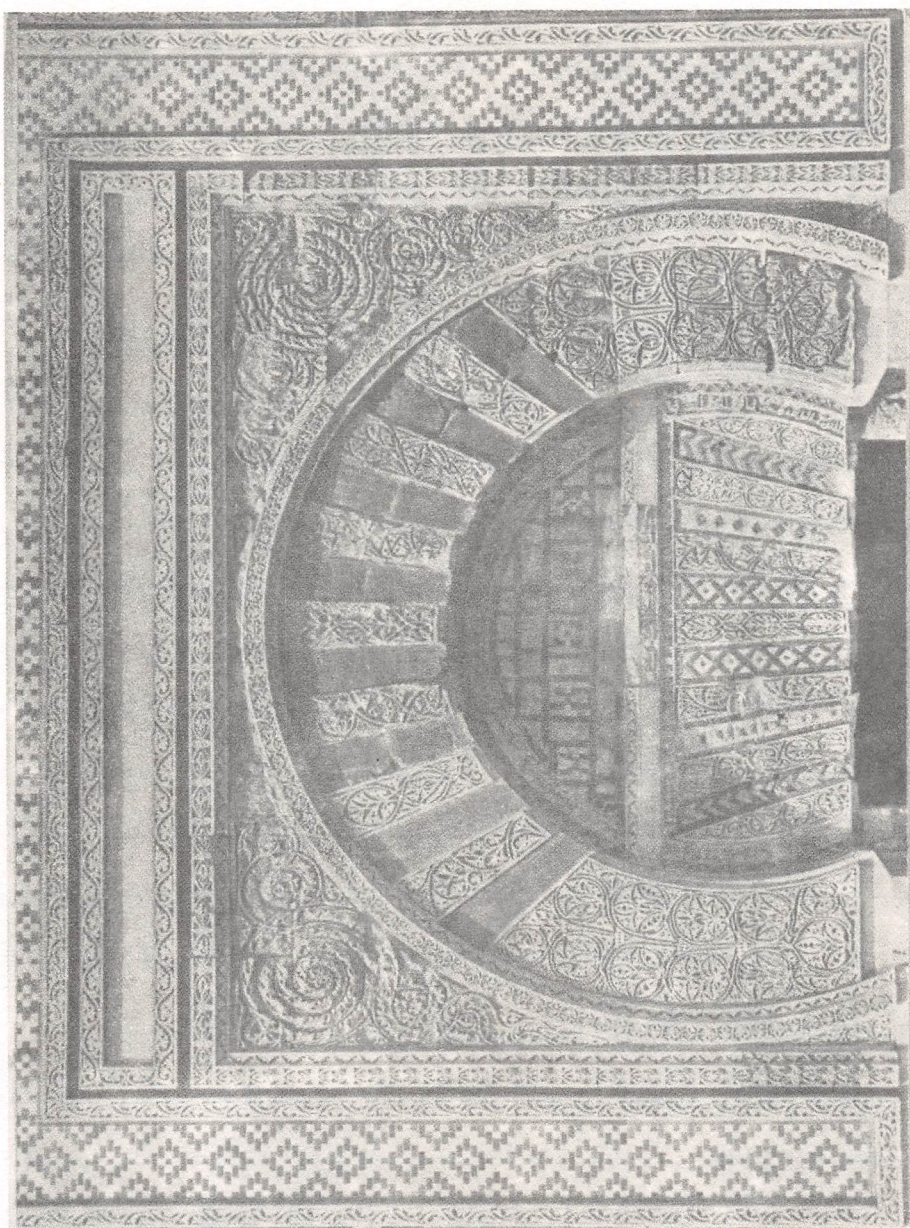
وأحياناً كان يصعب التمييز بين الشريط وهو أحد عناصر المتشابكات ونهاية الأشكال النباتية لأن قاعدة نصل الورقة النخيلية لم تخرج ب بروز عن الساق الذى يحملها، فظهرت الورقة وكأنها جزع الساق الممتد بانحناء بسيطة، ثم تعود وتظهر عند أطراف الساق المقطوعة المدببة، كما يقطع كلاً من الساق والورقة النخيلية خط محزوز تظهر فيه التعاريق من الوسط وتقسم بين الفصوص التى تتألف منها الورقة النخيلية أو الوريدة، ومن أحد الفصوص يمتد الساق أو غصن آخر.

وتدل الرسومات الموجودة فى سقف الجامع الكبير بالقىروان على الحرية التى تمتع بها الرسام فى تشكيله للأرابيسك واستخدامه لشتى أنواع النبات وقدرته على الدمج بينهما. فقد بات من الصعب تحديد شكل النبات فى معظم تكوينات الزخارف النباتية من العصر الفاطمى، فالأوراق النخيلية لم تعد متماثلة والوريدات المتماثلة اشتقت من عنصر الكرم القديم، كما ظهرت بعض الأوراق النخيلية المماثلة لزخارف سامراء؛ فالوريدات ذات الفصوص المتشابكة مستمدة من زهرة اللوتس.

بالإضافة إلى المجموعات المؤلفة من الزخارف الخطية ذات الطابع الإسلامي من العصر الفاطمي، وهناك المجموعة الأخرى المؤلفة من الوجوه الأدمية والحيوانية التي لم توظف في جميع الأغراض الزخرفية مثل العمائر الدينية.

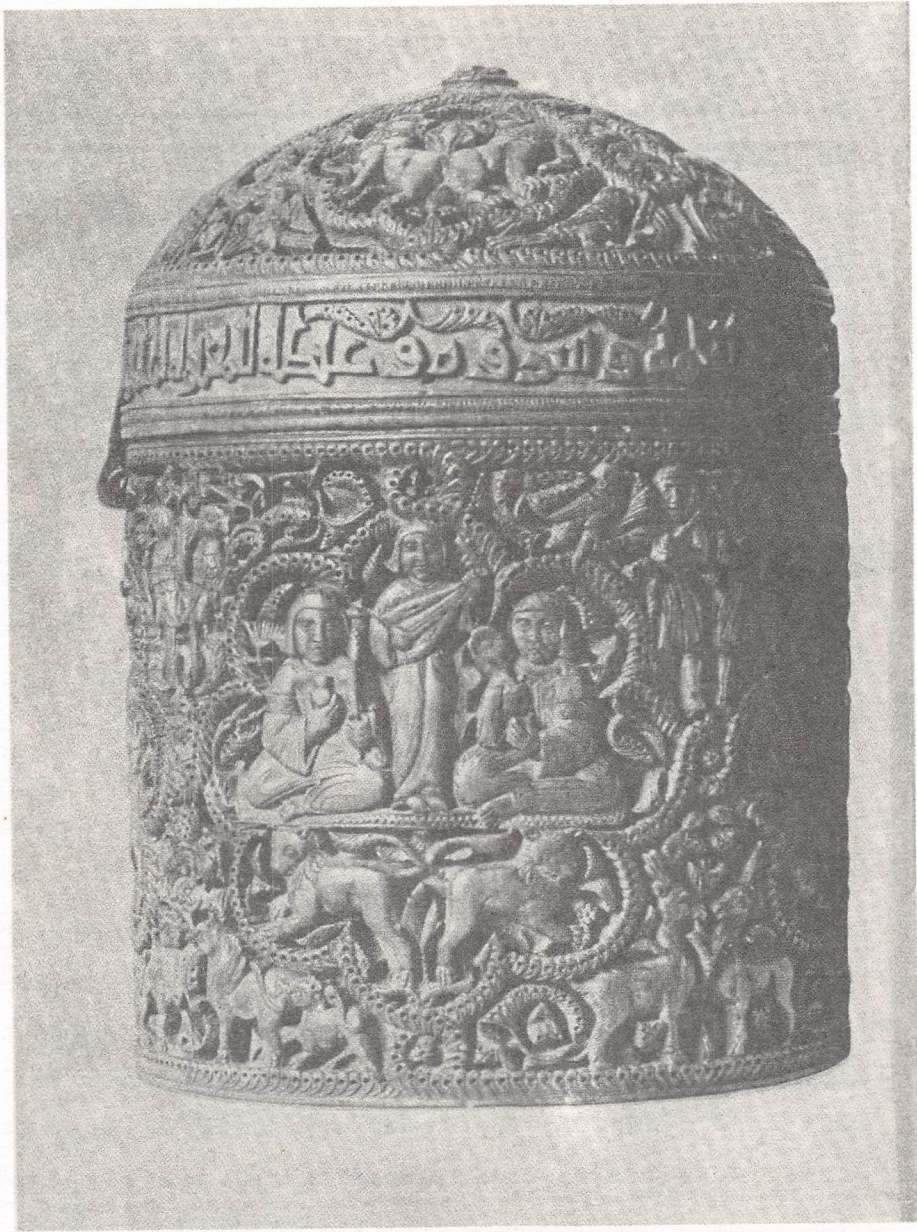
وقد ذكرت لنا النصوص الكثير من تلك الزخارف على قطع الأثاث المختلفة، ومن المجموعات المميزة نذكر على سبيل المثال بعض الأقاريز المشكلة من الخشب المنحوت والمحفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة والذي عثر عليه في القصور الفاطمية، والرصيغات كانت تحاط بشرطين من المتشابكات، وبعض المجموعات المؤلفة من الوجوه المنفصلة عن بعضها والتي تلتصق على سطح محاط بالأشكال الحلزونية النباتية، وهي تتسم بالتعبيرية والحيوية التي أجادت ريشة الفنان إبراز الحركة والخطوط فيها، فوجدنا مناظر الشراب، والموسيقى، والرقص، والصيد، والسباق حتى الأسفار، فقد استوحى الفنان موضوعاته المختلفة من بلاط الأمراء، والقصور، وحياة اللهو والألعاب الرياضية التي كانوا يمارسونها في قصورهم والتي انتشرت بعد ذلك في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

ومما لا شك فيه أن كل هذه التصاویر تعبر عن العادات السائدة في تلك الفترة وكلها مستوحاة من بلاد ما بين النهرين أو من فارس، والوجوه الحيوانية تنتمي للقائمة الآسيوية وخاصة المجموعات التي يظهر فيها أحد الحيوانات أثناء اقتناص الفريسة من رقبتها أو من مؤخرتها.



لوحة (١٦) الجامع الكبير بقرطبة - شكل تفصيلي

وإذا كانت المصادر التي ذكرناها بإيجاز لم تتعرض لمشاكل الزخارف الحيوانية وجميع الزخارف الأخرى من العصر الفاطمي فالسؤال الذي طرح نفسه علينا هو من أين استقت مصر الفاطمية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر طرز زخارفها الكتابية، وعنصر المتشابكات الهندسية، والعناصر المؤلفة للزخارف الزهرية؟، ولذلك قمنا برصد نتائج جميع الإسهامات الإيرانية القديمة والحديثة والتقاليد المسيحية ولاحظنا أن التقاليد الإيرانية حظها أوفر من حيث الثراء كما نرجح أصول الخط الكوفى المزهر إلى منطقة العراق أو بعض الولايات التابعة للفرس وليس مصر، وكان لهما دور الريادة فى ابتكار الزخارف الهندسية التى ظهرت أهميتها فى زخارف سامراء، والمتشابكات المنتظمة لم تطبق إلا فى العصر الطولونى ويظهر فيها التأثير القبطى بوضوح فى استخدام المتشابكات المكونة من الأششرطة، وخاصة فى الرسومات الجدارية المستوحاة من بلاطات الفسيفساء الرومانية، وهى مألوفة تماماً فى الفن البيزنطى، فظهرت فى الدرايزين الحجرى، وفى البلاطات المفرغة التى تقفل النوافذ وتحيط بدرايزين (الجوقة فى الكنيسة) وبخرس البازيليكا، وهو من الأهمية للغاية فقد لاحظنا فى بعض العمائر المسيحية والإسلامية اشتقاق عنصر المتشابكات من الشريط المستقيم أو المقوس الذى استخدم غالباً فى زخارف الحاجز المشبك، والفواصل المقطعة فى الأحجار، وفى الرخام والأخشاب، وهناك مشكلة أثرية تتعلق بالزخارف الزهرية، فالفن الفاطمى قد تأرجح بين قطبين، قطب بلاد ما بين النهرين والإيراني والهلينستى، فالزخارف الزهرية المؤلفة للأجزاء القديمة من جامع الأزهر والمؤرخة بعام (٩٧١) بعد الميلاد قد صبغت تماماً بتقاليد بلاد ما بين النهرين التى جاءت مع ابن طولون، ومن ناحية أخرى ظهر الدور الجوهري للزخارف الزهرية الفاطمية وخاصة فى جامع الحاكم، فظهرت الساق الخيطية الناعمة كأحد العناصر الأساسية المشتقة من الغصن الهلينستى الذى انبثق منه الأرابيسك، وبهذا يرجع إلى الأقباط الفضل فى نقل التقاليد المسيحية إلى مصر من القرن الحادى عشر.



لوحة (١٧) علبه مجوهرات من العاج - قرطبة

وقد احتوت كنيستان من كنائس مصر القديمة، الست بربارا، وأبو سيفين على فواصل أيقونية من العصر الفاطمي وهذه الوثائق من الطراز الأول من حيث الأهمية، والأخشاب التي زخرفت بها الكنائس من أعمال بعض الفنانين المسيحيين تعتبر من الأعمال المصرية الأصلية المنتمية للطراز الإسلامي من العصر الفاطمي، وإن اختلفت وجهات النظر في أصل وتطور هذه الزخارف سواء كانت تأثيرات خارجية أو محلية، فقد أصبح طرازًا إسلاميًا بحتًا، ولا يجب المزج بينه وبين الفن البيزنطي على الرغم من تأثره به في أولى مراحل تكوينه فهو طراز ارتبط ظهوره بالرؤية الإسلامية نفسها، كما أثرت الروح الإسلامية في التجريد والزخارف الهندسية في المتشابكات، وقد استبدل الشريط بالساق في الزخارف الزهرية مع الإيقاع المتوازن في حلزونيّات المتشابكات والأشكال النجمية لابتعد الفنان تمامًا عن النماذج الأصلية التي تحاكي الطبيعة، فهو مزج بين عناصر متباينة بين الزخارف الكتابية والهندسية أو الزهرية في وحدة متجانسة من الإيقاعات الفنية التشكيلية.

زخارف الأثاث:

الخشب:

ومن الأعمال الخشبية التي وصلت إلينا بعض الحواجز الأيقونية من مدينة الفسطاط، ومحاريب مجلوبة من بعض الأضرحة الصغيرة في القاهرة والمؤرخة بالقرن الثاني عشر، وقد ظهر في تلك المحاريب أسلوب تقني إسلامي جديد وهو الترصيع بواسطة تجميع الأعواد الخشبية المشجوبة

بالتساوى والتي تحيط بلوحات صغيرة مقطعة ومنحوتة، وقد استخدم هذا الأسلوب فى كل من قرطبة وفارس ومراكش فى مهارة تامة وسوف نعاود الحديث عنه، وقد احتفظت إفريقية بأعمال خشبية لا تقل فى روعتها عن زخارف الخشب فى مصر. وفى الجامع الكبير بالقيروان توجد أقدم مقصورة وهى المكان المخصص للحاكم لإقامة الصلاة، وتتألف هذه المقصورة من هيكل بناء، ومن أعلاه توجد تتويجة من الخشب المنحوت، وحواجز خشبية محكمة الصنع وهى من أول نماذج المشربيات التى وصلت إلينا، وتحتوى على زخارف كتابية وزهرية على درجة عالية من التقنية، وبها نقش كتابى ينسبها إلى الأمير الزيرى "المعز" (١٠١٦-١٠٦٢) وكان واليًا على إحدى الولايات التى ازدهرت فى القرن الحادى عشر وقد اندثرت بعد غزو الأعراب لها، وكان المعز من الحكام العاشقين لحياة البذخ والفنون كما أعاد لمواجهة جامع القيروان أبهته وروعه بعد أن تناساه الفاطميون ونالته يد الإهمال، واهتم بالمقصورة فأعاد الرونق للكسوات الخشبية الموجودة فى ممر الملحق بها، كما أعاد جميع الرسومات الموجودة على سقف قاعة الصلاة ثم قام بتزويدها بالقناديل والثريات وبعضها مازال موجودًا إلى اليوم، وتعد مدينة صقلية النورماندية امتدادًا للفنون التشكيلية البربرية كما كانت من قبل بالنسبة للفنون المعمارية فوجدنا الأخشاب المنحوتة والمرسومة وقد قطعت بشكل المقرنصات المجمععة لتؤلف زخارف المتشابكات التى ساهمت بنجاح فى الزخارف الداخلية، وقد احتفظت بعض القصور والكنائس من مدينة بالرمو ببعض الأعمال الفنية الثرية الرائعة والتى تنم عن الذوق الانتقائى للفنانين المسلمين الذين عملوا فى بلاط الملوك المسيحيين.

العاج:

وإذا أردنا تحديد طرز العاج نقول إنه يعد من الأعمال المصرية المستوحاة من الطرز الفارسية والملح السائد في جميع الأعمال الخشبية أيضاً، إلا أن النقش على العاج نفذ في مساحات محدودة وذلك يرجع بالطبع لخامة العاج نفسها، كما لم تتوافر لنا كميات من أعمال العاج من إفريقية بل معظمها يرجع إلى مدينة صقلية وهى تحتوى على رسومات ذات طرز فاطمية، فهناك الصناديق المزخرفة المستطيلة من العاج المصقول وتظهر بها زخارف من الكتابات، والحليات ذات المتشابكات الزهرية، والوجوه الحيوانية.

الخزف:

عرف الخزف أزهى عصوره فى العصر الفاطمى، وقد استمر دور الخزف من مدينة الفسطاط فى إنتاج أجمل القطع الخزفية منذ العصر الطولونى وحتى العصر الفاطمى، كما ظلت محتفظة بأسرار صناعة الخزف ذى البريق المعدنى، مع استخدام نمط الزخارف الكتابية والزهرية والحيوانية السائدة.

وهناك أحد المناظر يصور السيد المسيح محاطاً بهالة وهو يمجّد الخالق مما يوضح إسهامات الفنانين المسيحيين فى الخزف، وقد عرفت مصر طرقاً أخرى من هذه الحرفة وفدت إليها من العراق وإيران مثل الخزف ذى القواطع المنعزلة المعروف (Cuerda seca) والمدهون والمنقوش تحت طبقة شفافة من الدهان. وقد انتشر نوع آخر من الخزف الشعبى المصرى المستعمل فى عمل النعارة ذات المصفاة المنقوبة، ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بمجموعة فريدة منها.

إلا أننا لم نعثر على الخزف المتعدد الألوان والذي لا نستبعد إنتاجه في مصر حيث انتشر في عصر الحكام الفاطميين، وقد أمدتنا بعض المواقع مثل صابرا بالقرب من القيروان، قلعة بنى حماد، وفي بجاية، ثم صقلية بنماذج كثيرة من الشقافات لخزف يحتوى على زخارف من لونين البنى والأخضر وأحياناً كان يضاف إليهما اللون الأصفر ثم ظهر مؤخراً اللون الأزرق.

الزجاج :

عرفت مصر كلاً من صناعة الزجاج والخزف منذ فجر التاريخ وأولى القطع المؤرخة من العصر الإسلامى عبارة عن بعض المعايير التى تستخدم فى الأوزان أو فى العملات وتتألف من أشكال مستديرة عديمة اللون وأحياناً تلون بألوان خفيفة وقد دمغت بالأختام الأصلية، وفى العصر الفاطمى نشطت صناعة الزجاج كما صعب علينا تحديد مراكز تطور تقنياته وأشكاله، وهل جاءت من مصر، أم سوريا، أم فارس، أم من بلاد البربر الشرقية وشمال إفريقية؟، وذلك يرجع لظهور نفس الأنماط والتقنيات فى أقطار متنوعة من العالم الإسلامى، ووجدنا الكؤوس، والطاسات، والزجاجات، وقارورات العطور كلها شكلت إما بطريقة القوالب أو النفخ، كما زخرفت بأشكال محفورة على الدولاب ثم أضيفت لها خيوط من الأسلاك الزجاجية مما يزيد من ثرائها، وقد استخدمت كثيراً الزخارف ذات الوجوه الحيوانية، وعلى إحدى الأواني الزجاجية المزودة من الفسطاط يظهر من أسفل الكتابة نقش لعنز برى فى شكل تصامى، وقد احتفظ متحف أمستردام بقدر بديع منقوش عليه سنر وأسدان، كما عرفت مصر بعض دور صناعة البللور الجندلى وهى من

القطع النادرة التي كانت تعمل للحكام أو لكبار الإقطاعيين، وقد ذكر لنا كل من الرحالة الفارسي ناصر خمسرو المعاصر لتلك الفترة، والمؤرخ المقریزی من القرن الخامس عشر عن كنز الخليفة المستنصر (١٠٢٩-١٠٩٤) الذي احتوى على أعداد وفيرة من تلك القطع البللورية، وبقي لنا أن نتخيل بعض القطع القيمة المصنعة من الزجاج والمحفوفة في بعض كنائسنا إلى اليوم، مثل كنيسة سان مارك Saint-Marc في فينيسيا، والذي استطاع رئيس دير سان دينيس Saint-Denis الحفاظ عليها من التلف، وهى عبارة عن كؤوس، وأباريق مثل النيطل (إبريق الخمر) وقد زخرفت من الباطن بأشكال حيوانية منقوشة، وأحياناً كانت المقابض تزخرف بالأشكال الحيوانية المنحوتة.

البرونز:

وصلت إلينا بعض الأعمال الفنية البديعة من البرونز والمؤرخة بالقرن العاشر، والحادى والثانى عشر واحترنا فى تحديد بلد المنشأ مثل المشكلة التى واجهتنا سابقاً فى الأعمال الزجاجية، فالاختيار بين مصر الفاطمية، أو أسبانيا الأموية، دون أن ننسى ما أمدتنا به بلاد فارس فى العصر العباسى من قطع برونزية فريدة قد أوقعنا فى حيرة شديدة. وهناك بعض الأعمال الفنية مثل أصيص الزهور، والمباخر، والنوافير ذات الأشكال الحيوانية المميزة، والمبخرة على هيئة "العنقاء" الموجودة فى كامبو سانتو فى بيزا Campo- Santo de Pise، والتى جلبها معه الملك عامورى ملك القدس، وكل هذه التصاوير ذات الأشكال الحيوانية ذات الأربع أرجل، والعصافير،

والأيل، والأسود، والأرنب الوحشى، والطاووس، والصقر، والطريدة، ومجموعات الحيوانات النادرة وفناء الطيور من الموضوعات التى ترجع إلى التقاليد الإيرانية القديمة، كما نميل إلى وجود بعض التقاليد الهلنستية والبيزنطية فى بعض القطع المستخدمة فى الإضاءة مثل المصابيح اليدوية الصغيرة وتنتهى فى شكل منقار طويل، والثريات المستديرة التى وجد مثلها فى منطقة الجرف بالقرب من غرناطة، وفى بعض الأديرة القبطية وفى الجامع الكبير بالقيروان، والذى وصلنا منه أيضاً ثرباً كبيرة من النحاس المحزوز وقد نقش عليها اسم المعز الزيرى المحسن العظيم من الضريح العتيق^(١).

الحلى:

والحلى كان نادراً إبان العصور الوسطى فى الأقطار الإسلامية لأن قيمته الحقيقية كانت تتلاشى مع عمليات السبك المتكررة للتغيير من شكله، وقد عثرنا على بعض الحلى فى أحد المدافن بمدينة الفسطاط التى أمدتنا بكمية أخرى من الحلى، كما تم العثور على كنز صغير يتألف من بعض العملات الفاطمية المدفونة فى منطقة "كيف" فى تونس والتى تشهد على روعة هذا العصر. وتتألف من بعض الأساور والخواتم، والدلايات المربعة أو المستطيلة، والأقراط بشكل الأهلة أو أشكال نصف دائرية وذات الفصوص الثلاثية وكلها من الذهب المطروق والمزخرف بالصياغة المفرغة من الذهب والفضة.

(١) ويرى الأستاذ رايس أن الاسم الذى تحتوى عليه الكتابة يدل على الفنان وليس الحاكم ، حيث لا يسبقه أى لقب من الألقاب التشريفية، انظر:

D.S.Rice (Studies in Islamic Metalwork, V.B.S.O.A.S., 1955. XVII/2, p215-216.)

الأقمشة:

كان الشغف بالزينة والأبهة والحس العالى فى التنوق من أهم ملامح الحضارة الفاطمية والذى ظهر جلياً فى فن النسيج، وقد ظلت دور الطراز فى منطقة الدلتا تنتج للحكام فى مصر، إلا أن قطع النسيج المطرزة باسمهم كانت أقل من القطع التى تحمل أسماء الخلفاء العباسيين، وقد تنوعت الزخارف الموجودة على الأقمشة وتعددت ألوانها كما تداخلت فيها خيوط من الذهب والى تفوقت على ما سبق من إنتاج من حيث النعومة فى الرسومات والانسجام والتناغم بين أطراف الألوان، ولعبت الأشكال الحيوانية دوراً مهماً فى التكوينات، وقد عثرنا فى مقابر الفسطاط على بعض قطع النسيج التى استعملت كأكفان فى حالة جيدة من الحفظ، ومن أجمل الأنسجة التى انتقلت من الشرق مع الحجاج المسيحيين أو التجار فى فترة العصور الوسطى التى وهبها للكنائس لتستخدم فى تغليف أجساد بعض الشخصيات المبجلة، وأحياناً كرفات للقديسين وقد دخلت ضمن الأثاث الكنسى المخصص لإقامة الشعائر، ومن تلك النفائس قطعة بديعة من الحرير المزخرف بأشكال الطوسان وهى من ضمن الذخائر المحفوظة فى كنيسة سان سرنين Saint-Sernin فى مدينة تولوز Toulouse بفرنسا، وقطعة أخرى من الكفن المعروف خطأ باسم المسيح (Périgord)-Christ de Cadouin فى اليريجور حيث نقش عليها اسم الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤-١١٠١) وأيضاً الوشاح المنسوب خطأ للقديسة سانت آن Sainte Anne فى كاتدرائية أبت Apt وهى قطعة من "الطراز" المصنعة من الكتان والحرير للخليفة المستعلى المخصصة للتشريفات الملكية.

الفصل الثالث

الفن الإسباني والمغربي

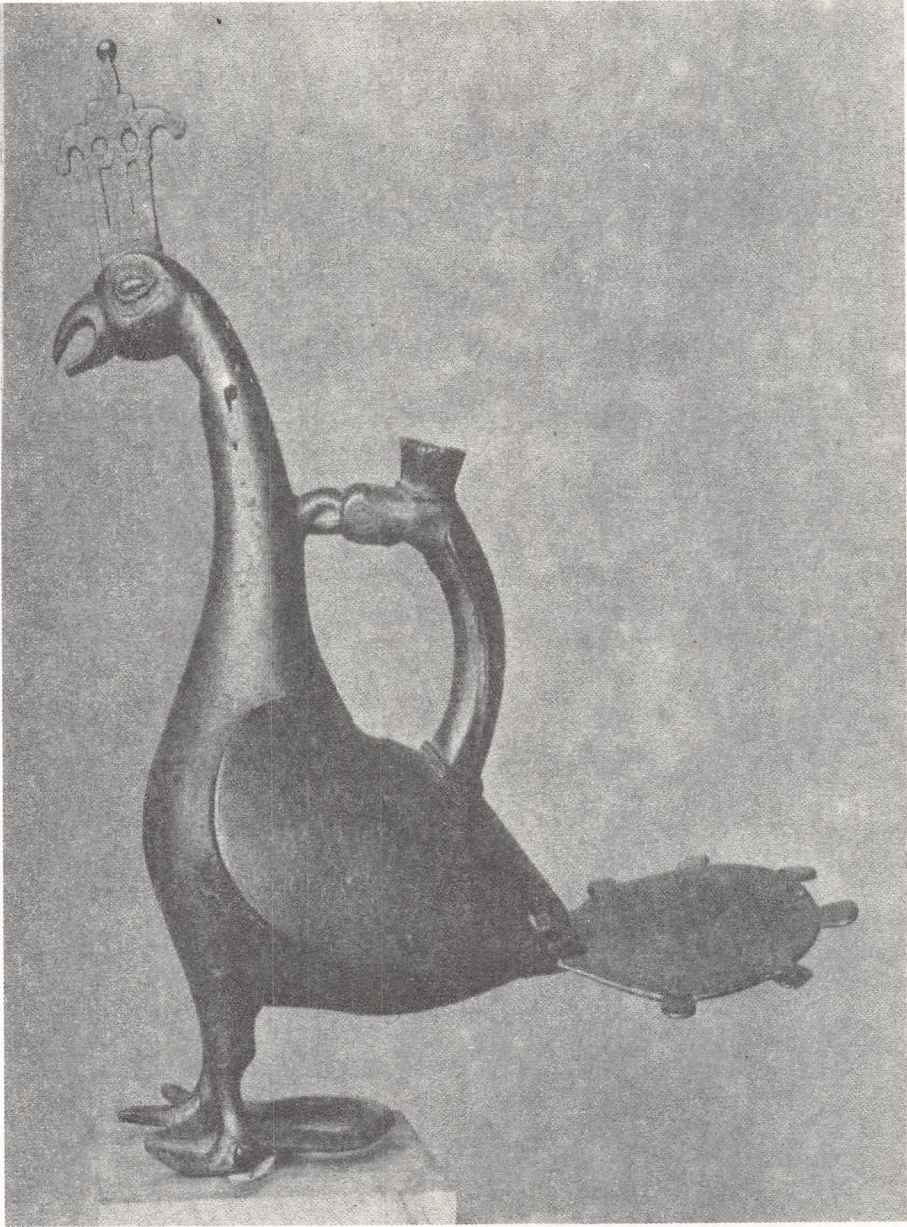
نزع المسلمون من شمال أفريقيا وواصلوا السير حتى وصلوا إلى إسبانيا عام (٧١١) بعد مرور سنين استطاعوا انتزاعها من ملوكها القوطيين لتصبح مقراً للخلافة الأموية الجديدة، وذلك بعد أن استطاع أحد أفراد الأسرة الحاكمة الأموية القديمة في دمشق الإفلات من اضطهاد العباسيين لهم وقد نجح في إقامة دولة جديدة له بعيدة عن مقر الخلافة العباسية، وفي سنة (٧٥٦) استطاع المهاجر عبد الرحمن الأول الاستقرار في مدينة قرطبة والتي أصبحت عاصمة لهم، وابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن والتاسع وبداية العاشر بدأت هذه المدينة في القوة والازدهار كما قام عبد الرحمن الثالث بتنصيب نفسه خليفة عام (٩٢٩)، وهو أول من استطاع من أسرته استعادة هذا اللقب مرة أخرى.

وقد دامت خلافة قرطبة حوالي ثمانين عاماً وهو يعتبر العصر الذهبي للأندلس الإسلامية، والمدينة يحدها الجسر العتيق للوادي الكبير والمعروف باسم "قرطبة"، وقد ازدادت المدينة جمالاً بفضل عمائرها الشهيرة، وفي عام (١٠٠٩) سقطت الخلافة بعد أن عرفت إسبانيا فترة طويلة من الاضطرابات والفوضى، وقد تعاقب على حكمها عشرون ملكاً ضعيفاً من الملوك الضعاف الذين عرفوا باسم "رؤساء الطوائف" الذين تقاسموا فيما بينهم السلطة في

قرطبة، وقد ساهمت تلك الاضطرابات لصالح المسيحيين، والذين قاموا بحركة "Reconquista" الإسبانية أى استرداد الأرض، ولصد هذا الخطر قام بعض الأمراء المسلمين مثل سلطان إشبيلية باستدعاء البرابرة لمساندته وبالفعل تم إبعاد الخطر المسيحي، إلا أن هذه الدويلات التى جاءت لمساندتهم قد أفقدتهم سلطانهم بعد أن ضموا مقاطعاتهم لهم، وهنا بدأ تدافق موجتان متتاليتان من المدافعين عن الإسلام إلى بلاد الأندلس (إسبانيا) وهما ينتميان إلى فرعين من فروع البرابرة وهذا ما أظهرته دراسة عمارة مساكنهم القديمة، وطريقة معيشتهم، والمذاهب التى اعتنقوها، ومدهم التوسعى والذى يمكن أن نصفه بأنه إحدى الحركات الدينية، وأولى تلك الموجات كانت من المرابطين وهم أقوام من البدو الرحل، ويمدون بقرابة لقبائل "التوارج" وقد استطاعوا فى نهاية القرن الحادى عشر مد نفوذهم على النصف الجنوبى من أسبانيا، وعلى غرب إفريقية (البربرية) حتى وصلوا إلى الجزائر، والحركة الثانية وهم المهادر، وهى شعوب جبلية جاءت من أعالي الأطلس المغربى ليؤسسوا فى القرن الثانى عشر مملكة واسعة تضم الأندلس وشمال أفريقيا كلها، وقد استطاع الإسلام بفضل هؤلاء الأجلاف من المغاربة التصدى للمسيحيين الإسبان حتى غمرت الثقافة الأندلسية بلاد المغرب، وهنا وعلى ضفتى المملكة ازدهر نوع من الفن عرف باسم الفن الأسباني-البربرى "Hispano-Mauresque" وهكذا بُدئ فى تشييد المدن فأسس المرابطون مدينة مراکش، كما شيّد المهاد مدينة الرباط، وانتشرت العماثر فى سائر المدن فى فاس، وتلمسان، والجزائر على غرار مدينة إشبيلية وسراقوصطة والتى واكبت فيها العمارة تطور عمارة مدينة قرطبة أو مدينة الخلفاء التى سوف نتناولها فيما بعد.

العمارة الدينية:

يعد الجامع الكبير بقرطبة من الأعمال المميزة في تاريخ الفن الإسلامى والذى لا يقل فى أهميته عن الجامع الكبير بدمشق أو الجامع الكبير بالقيروان، ويقع جامع قرطبة على مقربة من أحد الجسور الكبيرة وهو الشريان الحيوى الذى يؤلف بين التجمعات العمرانية، وينتمى هذا الجامع لجيل من الحكام والذى مازال إلى الآن يشد إعجاب الناظرين إليه، وتطور هذا الجامع امتد طوال حقبة من الزمن تصل إلى مائتى عام، حيث تعاقب عليه أربعة من الحكام الذين زادوا على التصميم القديم ليسمح للأعداد الوفيرة من المصلين بإقامة شعائرهم الدينية (انظر لوحة ١٣، ١٤، ١٦، وشكل ٣)



لوحة (١٨) حوض لغسيل اليدين من البرونز

وربما يكون مثل جامع دمشق قد حل محل كنيسة قديمة بعد أن حصل عبد الرحمن الأول على تنازل من المسيحيين لبناء عمارته الجديدة، وفي سنة (٧٨٥) قام بوضع الأساس الجديد، وقد بنى على الطراز السورى، ويتكون من قاعة للصلاة ويسبقها الصحن الذى يقع على الواجهة التى ترتفع من أعلاها المئذنة.

ومن خلال دراسة حديثة لبعض النصوص التاريخية تصف القاعة باحتوائها على تسعة أجنحة وقد غطت كلها بهياكل من البناء مغطى بالقرميد، كما شكلت الأسقف من القرميد كلها باتجاه العمق، والبائكة الوسطى أعرض من البواكى الأخرى، والعقود كانت تركز على أعمدة مجلوبة من عمائر قديمة مثل أعمدة جامع القيروان العتيقة، وقد أراد المعمارى أن يزيد من ارتفاع سقف القاعة دون المساس بمتانة الدعامات فلجأ إلى أساليب تختلف عن المستخدمة فى القيروان والمتأثرة تمامًا بالأسلوب المعمارى المصرى، والنتيجان تحمل كتفًا عريضًا، وعقودًا ذات حدوة الفرس، ودعامات خفيفة تقع بين المنحنى الخارجى للعقد، ثم تنتقل إلى طابق ثانٍ من العقود التى تجمع الأعمدة وتحمل السقف، والمساحة الموجودة بين صفى العقود خالية من الجدران فى منظور يسمح بالتهوية، كما استوحى المعمارى من قنوات المياه الرومانية أسلوبًا إنشائيًا فى التصميم الداخلى للجامع مما أعطاه هذا الشكل المميز، وهى ترجع لأعمال عبد الرحمن الأول إلا أنه قد تم توسعة هذا الجامع للمرة الثانية سنة (٨٤٨) على يد عبد الرحمن الثانى ليمسح لعدد أكثر من المصلين بإقامة شعائرهم؛ فقاموا بإضافة جناحين على جانبى البناء القديم بامتداد الطول ليصل لأحد عشر جناحًا والتى تتألف منها القاعة،

وجدار القبلة أزيح حوالى ٢٥ مترًا للخلف، وقد زيدت عليه ثمانية أضلاع، ثم جاء خلفاء عبد الرحمن الثانى من بعده وقاموا ببعض التعديلات به وبعد أن وصل الحكم الثانى سنة (٩٦١) إلى الحكم أضاف إليه هذا الرونق البديع الذى مازال عليه إلى اليوم، كما قام بتوسيع القبلة فزادت المساحة حوالى ٥٠ مترًا، وأقام فى الجزء الملاصق لها اثنتى عشرة عارضة حتى بدا وكأنه بنى من جديد، ونعتقد أن المعمارين الأندلسيين قد تأثروا بنسق جامع القيروان وتونس فوجدنا القبة ترتكز على طرفى الجناح المركز.



لوحة (١٩) حوض العماد في سان لويس

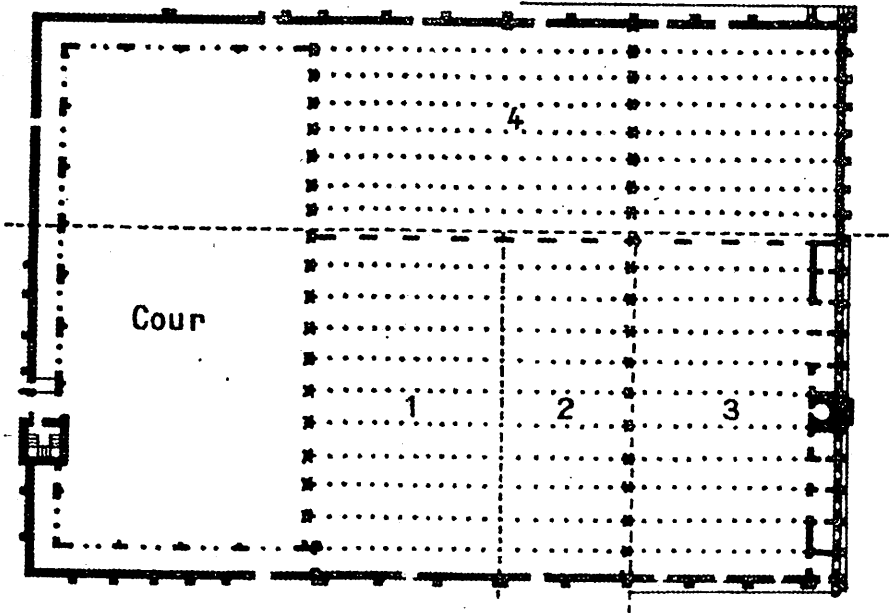
وتلتصق القبة التى تسبق المحراب بقبتين متماثلتين وتظهر فيها العقود المتقاطعة وقد تخطت المساحة المطلوب تغطيتها ليظهر التخطيط فى شكل المضلع وترتفع من أعلاه قبة صغيرة نصف كروية، وقد شاهدنا هذه القباب ذات التعاريق من قبل ويبدو أنها من أصول إيرانية، ومنذ بداية العصر الساسانى استخدمت فارس العقود المتشابكة والتى التحمت مع بعضها بواسطة الأقبية المقوسة.

وقد زاد من روعة عمارة هذا الجامع زخارفه الثرية، فقد احتوت القباب والإطار الذى يحيط بالمحراب، والأبواب المحاطة به مغلفة بالفسيفساء على أرضية مذهبة، وقد طلب الخليفة الحكم الثانى من إمبراطور القسطنطينية أن يمدّه ببعض العمال المهرة والمواد اللازمة لاستكمال بناية هذا الجامع كما فعل جده الوليد خليفة دمشق من قبل.

وقد قام بعد ذلك فنان الفسيفساء بتدريب بعض التلاميذ على فنون هذه المهنة لنراهم قد تفوقوا فيما بعد على أستاذهم، وفى عام (٩٨٧) قام الوزير الملقب بابن أبى أمير والمعروف بالمنصور بعمل الزيادة الرابعة فى الجامع الكبير بقرطبة وكان وزيراً قوياً ذا شأن، وقد أضاف فى الجزء الجانبى من قاعة الصلاة ثمانية أجنحة مما زاد فى اتساعها من الناحية الشرقية أى زيادة عن ثلثى المساحة التى كانت عليها من قبل ثم زاد الصحن بنفس النسب، ويتبقى لنا من العمارة الدينية للخلفاء بعد أن ذكرنا الجامع الكبير بقرطبة هناك أيضاً مسجد صغير فى باب مردوم بطليطة وقد رمم وعدل منه كثير ثم تحول بعد ذلك إلى كنيسة تعرف باسم "del Cristo de la Luz" والجزء الإسلامى المتبقى منها يحتوى على تخطيط مربع، به ثلاثة أجنحة، وثلاثة جملونات مغطاة بواسطة تسع قباب محملة بواسطة التعاريق المختلفة، وإذا ما أضفنا لهذه

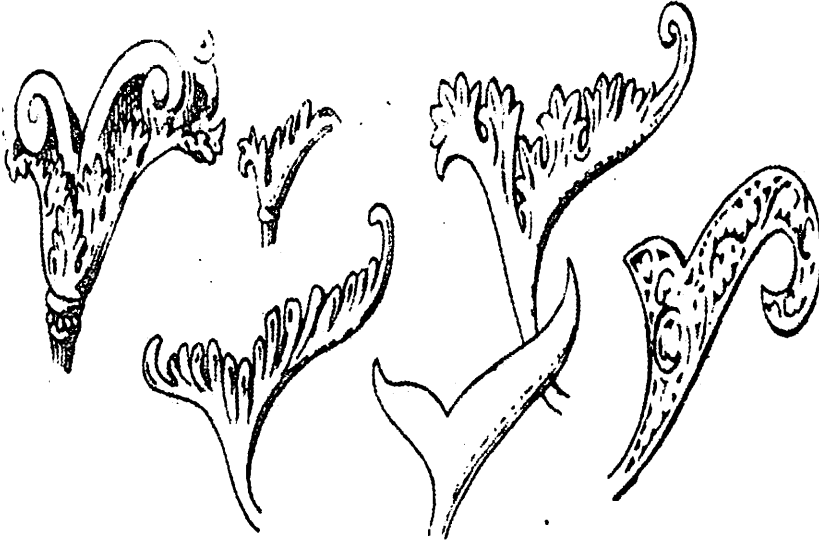
العمارة مئذنتين من الطابع القرطبي وقد تحولت فيما بعد إلى برج الأجراس، والبرج الأول يعرف باسم "San Juan de Los Caballeros" ويؤرخ بعام (٩٣٠)، والثاني معروف باسم سانتا كلارا "Santa Clara" وهو من الأبراج والعناصر الزخرفية المألوفة منذ زمن بعيد، وبهذا نكون قد حصرنا جميع العمائر الدينية من العصر الأموي وحتى يومنا هذا.

رؤساء الطوائف؛ هم بعض من الأمراء من القرن الحادى عشر الذين استطاعوا تقسيم الخلافة فيما بينهم، وقد شيدوا بدورهم بعض المساجد، ومنها مسجد الجعفرية بسراقوصطة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، ويتألف من قاعة مربعة مغطاة بقبة احتوت على زخارف غزيرة مما يحدد ملامح عمارتهم الدينية.



شكل (٣) تخطيط الجامع الكبير بقرطبة

- ١- مسجد عبد الرحمن الأول عام (٧٥٥).
- ٢- زيادة المسجد فى عهد عبد الرحمن الثانى عام (٨٣٣).
- ٣- زيادة المسجد فى عهد الحاكم الثانى عام (٩٦١).
- ٤- زيادة المسجد فى عهد المنصور (٩٨٧).



شكل (٤) تحويرات فى زهرة الأكنتس

وإذا أردنا متابعة التطوير الذى استحدث فى التخطيط والأشكال الإنشائية فى جامع قرطبة، فعلينا أن نعاود الكرة إلى بلاد إفريقية لدراسة ما تبقى من دولة البرابرة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، ذلك أن المرابطين والمهادر عرفوا بشغفهم لبناء المساجد، وفى الجزائر شيد المرابطون ثلاثة مساجد؛ جامع الجزائر حوالى عام (١٠٩٦)، ثم جامع نيدروما وجامع تلمسان، وفى الثلاثة تمتد الأجنحة باتجاه العمق، أى متعامدة فى اتجاه القبلة وقد غطيت بهياكل من البناء وأسقف من القرميد.

الجامع الكبير بتلمسان:

يحتوى على ثلاث عشرة بائكة واثنى عشر عارضاً وأكتاف وقد بُدئ فى عمارته عند وصول المرابطين كما بنوا قصورهم بالقرب منه (انظر لوحة ٢٢).

وتبدو قاعة الصلاة بسيطة وتؤرخ بعام (١٠٨٢)، وقد أدخل بها بعض التعديلات عام (١١٣٦) مما أثر على الجناح المركزى ليأخذ الشكل الأندلسى، وعلى نمط الجامع الكبير بقرطبة شكل محراب تلمسان وأيضاً القبة المحمولة على العروق الخشبية (أضلاع) التى تسبقه وتوجد ست عشرة قنطرة صغيرة اتصلت مع بعضها بواسطة محور مغزلى الشكل من الجص المخرم وقد تداخلت معاً لتحيط بالقلنسوة المملوءة بالمقرنصات التى ترتفع من أعلى، وإذا انتقلنا إلى تخطيط جامع القرويين فى فاس فإنه يختلف تماماً عن جامع تلمسان فى الجرائر، كما يرجع الترتيب الذى عليه الجامع الآن وجزء من زخارفه إلى عصر المرابطين أما التخطيط فهو النمط القديم السائد فى المساجد، ويحتوى على تسعة عشر جناحاً تمتد بتعامد فى الواجهة وفى اتجاه جدار القبلة، وهذا الطراز من المساجد ذات الأجنحة المستعرضة ينتمى إلى طرز العماائر الأولى فى الإسلام وقد شاهدناه فى مصر، وظل سائداً فى العمارة الدينية فى فاس.

كما توجد سلسلتان من العقود التى قطعت الأجنحة بطريقة متعامدة، محددة بذلك الممر المحورى الذى يؤدى إلى المحراب، وهناك سلسلة من القباب ذات الزخارف الغنية والمتنوعة. واحدة من تلك القباب محملة على عوارض (خشبية) والأخرى مملوءة بالمقرنصات، والقبة التى تسبق المحراب تحمل اسم على بن يوسف وهو من المرابطين، وقد شيد أيضاً قبة

الباديين "فى مراكش"، وكانت تحتوى على قاعة للوضوء (مبضأة) وقد ضمت إلى الجامع الرئيسى للمدينة، وقد شيد الخلفاء المهاد الكثير من العمائر الدينية، وقد تعارفنا على خمسة منهما، وأهم جامعين مؤرخين بعبد المؤمن (١١٣٠-١١٦٣)، والذي يعد المؤسس الحقيقى لدولة المهاد. وبالنسبة لجامع تينمال والذي تهدم جزء كبير منه الآن يقع فى أعالي جبال الأطلس، حيث درس فيها "ابن تومرت" مذهب المهاد، ثم ننقل إلى مسجد "الكتوبينة" أى المكتبات فى مراكش وكانت الكتوبية مفتوحة للجميع للاطلاع، وتعد من أجمل الأعمال الإسلامية (انظر لوحة ٢٤)

وفى كلا التخطيطين ظهر تطور فى طراز قرطبة الذى استمر معمولاً به فى مساجد المرابطين، ويحتوى جامع تينمال على تسعة أجنحة غطيت بأسقف من القرميد كما يحتوى جامع مراكش على سبعة عشر مثل جامع قرطبة وتلمسان، والأجنحة كلها باتجاه القبلة، ونجد مجموعتين أيضاً من الأجنحة الجانبية فى تينمال مثل تلمسان، وأربع مجموعات جانبية فى مراكش وتمتد من جانبى الصحن، وهذا الصحن مماثل لصحن جامع قرطبة والقيروان وفاس ويظهر فى شكل يميل إلى أن عرضه أكثر من طوله، والجناح المركزى أكثر عرضاً من الأجنحة الأخرى، ويحمل القبة فى نهايته لتجاور المحراب، وهذا الترتيب شاهدناه فى القيروان قبل ذلك، وقد استوحى من البازيليك المسيحية، كما ترتفع القبة لتقابل الجناح الأوسط والبائكة المستعرضة وهما يحتويان على نفس نسب العرض ثم يمتد الجناح المستعرض بهذا جدار العمق فى شكل المجاز، والمجاز فى الجامع الكبير بقرطبة يظهر بشكل هلامى ويحتوى على مساحتين مربعتين وقد غطيت إحداهما بقبة والأخرى بالمحراب.

وقد قام المعماريون في عصر المهاد بتطوير الفكرة التالية؛ فقد زينوا محراب جامع تينمال بواسطة إضافة ثلاث قباب؛ الأولى تقع في المركز واثنان عند نهاية المجاز، وفي جامع الكتوبية بمراكش وجدنا إضافة أخرى تتألف من خمس قباب متساوية وقد شكلت بواسطة المقرنصات التي وضعت من أعلى الجناح المستعرض عند نهايته، ويتبقى لنا ثلاثة مساجد أخرى إلا أننا لا نحظى بمعلومات وافية عنها سوى تاريخ إنشائها على يد كل من يوسف عام (١١٦٣ - ١١٨٤)، ويعقوب المنصور عام (١١٨٤ - ١١٩٨)، وقد وصلت دولة المهاد إلى قمة مجدها في عصر يعقوب المنصور والذي ظهر في وفرة عمائرهم.

الجامع الكبير بإشبيلية:

وقد حل محله اليوم كاتدرائية، والجامع كان يحتوي على سبعة عشر جناحاً مثل الكتوبية في مراكش ولكنه يمتد بعمق أكثر.

مسجد حسن:

بدأ في بنائه يعقوب المنصور في الرباط إلا أنه لم يستكمل، وتخطيطه بسيط، هذا ما دللنا عليه الحفائر وهو مسجد واسع شكلت جدرانه العالية بالأجور التي تحيط بالمستطيل ويمتد حوالى ١٣٩ متراً من العرض ١٨٨× متراً في العمق كما فتح في الطول، كما فتح في الجدران ١٦ باباً وقد دعمت بأكتاف، والأسطوانة الرافعة شكلت بواسطة الأعمدة وقد قسمت المساحة إلى ٢١ ممراً، يقطع بدوره ثلاثة أفنية مستطيلة؛ واحد أمامي واثنان جانبيين، وهناك ثلاثة ممرات تمتد في جدار القبلة لتشكل المجاز.

وبالنسبة لجامع القصبنة بمراكش فقد شيده يعقوب المنصور أيضاً إلا أنه لم يلاق نفس النجاح حيث أعيد بناؤه من جديد ثم رمم عدة مرات بعد ذلك، وهو يتكون من صحن مركزي وأربعة أصحن أخرى جانبية تسبق القاعة التي تحتوى على إحدى عشرة بائكة قصيرة وبائكة تحمل ثلاث قباب.

وإذا كانت عمارة يعقوب المنصور لم تعطنا إلا القليل عن الترتيب الداخلى لتلك المساجد إلا أنها أخبرتنا عن عمارة وزخارف المآذن. وقد شيدت مؤذنة الكتوبية عام (١١٩٦)، وبالنسبة لعمارة جامع حسن ومؤذنته المشكلة فى هيئة برج لم يتم الانتهاء من عمارته، ودوارة الريح بإشبيلية قد زخرفت بنتويجة مسيحية من القرن السادس عشر وهى من الأعمال الحديثة، كما يروى أنها من عمل أحد المعماريين الإشبيليين واسمه جويفر أو (جابر)، كما اختلفت المآذن من حيث المواد المستخدمة فى بنائها، فمؤذنة الكتوبية البديعة شكلت من الدبش، وبرج حسن الضخم من الحجر المقطع، ودوارة الريح فى إشبيلية من الطوب المرتب بشكل منسق، والترتيب العام والداخلى متماثل؛ فالأبراج مربعة عند السطح والتي نصل بواسطتها إلى أحودر يلتف حول المحور فى شكل حجرات مركبة، ويمتد الجزء المركزى بواسطة قبيبة مربعة والتي مازالت تحتفظ بها الكتوبية إلى اليوم ويعلوها كوز من المعدن يعرف باسم (الجامور) وزخرف بكرات ذهبية، وقد اشتق هذا الطراز من الأبراج السورية والذى استخدم فى قرطبة، وفى مؤذنة الجامع الكبير الذى مازلنا نحتفظ ببعض الصور القديمة له، وتحديد عناصر الزخرفة المؤلفة من مجموعات قد ساهمت فى إبراز وتحديد شخصية المبنى، فقد استخدمت العقود الكاذبة لتحيط بالنوافذ، وتظهر أحياناً منفردة وأحياناً متصلة مع سلسلة

من العقيدات الصغيرة واللوحات المملوءة بالمتشابكات المستوحاة من العقود المتقاطعة، وقد احتوت الكتوبية على زخارف مرسومة والتي أضفت الثراء على التجويفات، أما قسبة مراكش فقد زخرفت بإفريز مطعم بالخزف والذي كسيت به القمة.

العمارة المدنية:

وحتى عام (١٩١٠) لم نكن نعرف شيئاً عن عمارة الأمويين المدنية، حتى قام المعمارى الأسباني يوسكو فالازكيز Bosco Valazquez بعمل حفائر فى مدينة الزهراء الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات من مدينة قرطبة، وقد شيدها الخليفة عبد الرحمن الثالث سنة (٩٣٦) لتصبح عاصمة له مثال سامراء للعباسيين، وسكناً للأمراء فضلاً عن شهرتها بالاتساع والروعة، وتكونت المدينة من ثلاثة أحياء متدرجة على السفوح التى تتحدر عند سطح الوادى الكبير (نهر قرطبة) وقد كشفت الأبحاث عن المدينة الأولى وكانت محاطة بطريق مقبى حيث تقع القصور بها، والمبنى الرئيسى الذى يسبق الصحن المربع يمتد حوالى خمسين متراً من الجانب ويتكون من قاعة واسعة قسمت إلى خمسة أجنحة طويلة وهذه الأجنحة تتصل ببعضها بواسطة فتحات من عقد واحد أو عقد ثلاثى تقع فوق الأعمدة وكانت الأجنحة مسقوفة، وهناك بناء مشابه يقع على مقربة منه، وقد عثرنا على كثير من بقايا الزخارف النحتية التى كانت تستخدم فى الركنيات ومفاتيح أو لينات العقود، ومن داخل النيشات وحول إطارات الأبواب حيث يظهر التناغم واضحاً فى

التصميمات، كما تنبئ عمليات المسح الشامل وأعمال الرفع والبيانات الدقيقة فى كل من مدينة الأميرية المجاورة لمدينة قرطبة عن مستقبل قريب فى الكشف عن العمارة المدنية الأموية فى إسبانيا، وربما نكتشف يوماً ما عمارة رؤساء الطوائف لأن التغييرات العديدة التى حدثت فى قصر إشبيلية قد أضاعت ملامح تلك الفترة، وبالنسبة للجغرافية فى سراقوصطة فقد تبقى منها الجزء الخاص بالصلاة والذى سبق وأن شرحناه، وبالنسبة لقلعة مرسية فمعلوماتنا مازالت قليلة إلا أنها تنبئ عن أهميتها، وقد استطعنا تأريخها بالقرن الحادى عشر والثانى عشر من خلال النصوص التاريخية وبعض الزخارف النحتية التى وصلت إلينا، وقد احتوت على تخطيط مستطيل وقاعات تحيط بصحن واسع، على غرار القصور الأموية فى سوريا، إلا أن قاعات القلعة تتسم بالعرض أكثر من الطول، كما فتحت بها فجوات تظهر من الخارج على هيئة مقدمة البناء، لتذكرنا بأشير وقلعة بنى حماد وبالرمو، ومن الداخل توجد الحديقة الداخلية وبها ممران متقاطعان، ومقصورتان تخرجان ببروز على كلا الجانبين على غرار قاعة الأسود فى قصر الحمراء بغرناطة.

العمارة الحربية:

أقام الأمويون الكثير من القلاع والمراكز العسكرية الحصينة، والتى بقى البعض منها حتى الآن إلا أن معلوماتنا مازالت قليلة لنشر بحث منفرد عنها، ومن أقدم القلاع الحربية Le Conventual de Mérida أو "دير مريدة" والتى شيدها عبد الرحمن الثانى عام (٨٣٥) كما أمده بجسر يصل إلى "وادي

عانة" أو Guadiana. ويحيط به سور مربع من الحجر المقصوب وأبراجه المستطيلة محاطة بجدار بين استحكامين، والأبراج مربعة عند الزوايا، وبها باب واحد فقط بدون مرفق ويسبقه بربخ أو حصن أمامي يسلك منه إلى الجسر والعمارة في مجملها بيزنطية، وقد احتفظ القرن العاشر بأسلوب ترتيب الحجارة المقطعة في الجدار، وتمتد الكتل الحجرية المربعة لتتداخل مع حجر الربط حتى تصل إلى عمق الجدار، وهكذا شكلت أسوار مدينة الزهراء كما وضعت المتاريس في أماكن دفاعية لتحمي الحدود، أما الحصون والأبراج المخصصة لحراسة الشوارع داخل المدينة فقد شكلت جدرانها من التراب المدكوك أو من الكلس الجيري المدكوك، وأحياناً كانت تدعم قاعدة الجدران بالدبش، وقد توجت هذه الجدران بشرفات من الجص وتنتهى ببعض الأشكال الهرمية الصغيرة.



لوحة (٢٠) سجادة من فارس - القرن السادس عشر

وابتداءً من القرن الحادى عشر انتشرت العمائر الحربية فى بلاد المغرب، وبعد أن بسط المرابطون سيطرتهم على تلك السهول فبنوا التحصينات لتحميهم من الغزاة الجبليين الذين فى النهاية انتصروا عليهم، وقد أسسوا مراكش وقد لعبت دوراً استراتيجياً طوال حقبة حكمهم، ومن الآثار المتبقية أولى القلاع التى شيدها "سور الحجر" والمؤرخة بسنة (١٠٦٢) وقد دفنت فى الأرض التى أقيم عليها "جامع الكتوبية" فيما بعد، أما المجموعة المعمارية المتكاملة التى بقيت لنا من عصرهم فهى "قلعة أميرجو" التى أعدت لمراقبة المناطق الواقعة فى شمال المغرب الخارجة عن سيطرتهم، والسور مضع ويشرف على الهضبة الممتدة ومحاط به برجان مستديران، والباب يسبقه حصن أمامى، والعمارة كلها شكلت من الأحجار غير المقطعة، وكلها من الخامات المألوفة فى عمائر البربر مثل قلعة بنى حماد، وأشير وبجاية.

كما عثرنا على تلك الأحجار مستخدمة فى بعض الأجزاء القديمة من سور "طازا" وفى قلعة "تاجيموت" الواقعة جنوب شرق مدينة مراكش وأيضاً فى قواعد البناء مع خلطها بالدبش، وفى تلمسان استخدمت تلك الأحجار فى "باب الكرمدين" من عصر المرابطين، واستمرت طوال القرن الثانى عشر فى معظم عمائر المهاد ذات الأهمية حيث عثر على أعداد وفيرة منها مثل القسبة المعروفة باسم "باداخوس" و"قلعة جواديرا" الواقعة على بعد خمسة عشر كيلومتراً من إشبيلية، وسور إشبيلية يحتوى على "برج الذهب" وتخطيطه مؤلف من اثنى عشر ضلعاً، وكانت تلقى منه الإشارات للسفن للإبحار فى النهر الكبير، وما تبقى من سور إشبيلية كان مشيداً من التراب المدكوك وملحقاً به أبراج محرودة قبل مقدمة الجدار الذى يقل ارتفاعه عن

السور، والذي يحيط بدوره بالجدران بين الاستحكامين وبين الأبراج، وفي المغرب وجدنا الجدران مشيدة من التراب المدكوك، وفي الأبراج المدعمة في "تينمال" و"مراكش"، وفي السور الضخم بالرباط، ويبدو أن مقدمة الجدار لم تكن من الأساليب الإنشائية المتعارف عليها، أما البوابات الضخمة في العمارة الحربية فكان لها مكانة فريدة في الفن الإسلامي؛ مثال "باب الرواح" و"باب "أوداية" في الرباط، وفي مراكش باب "قصبه" أو باب "أجناو"، وقد جهزت الأحجار المقصوبة في جزء واحد من السور الذي ساعد على تنفيذ زخرفة نحتية عريضة تحيط بفتحة في شكل حدوة الحصان الكاملة أو الحادة، وهناك طنّف قد اندثر كان يتوج الأفاريز المؤلفة من العقيدات الصغيرة، والإطارات التي تحتوى على الزخارف الكتابية، والركينات وحنيات العقد ذات أسلوب إشعاعي، وكل هذه البوابات الضخمة ترمز إلى عظمة الحاكم وتعد من أهم ملامح فن المهادر.

الزخرفة:

عرف المزخرف الكثير من المواد الأخرى بخلاف الأحجار والنحت على الرخام، فمنذ العصر الأموي استخدم الترصيعات من الطين المحروق أو المخلوط مع الحجر الأبيض على النمط الفارسي والذي ظل متبعاً في أعمال الزخارف النحتية في المآذن. ومن التأثيرات الشرقية التي وصلت إلينا عن طريق إفريقية الترصيع بالمينا والذي التصق التصاقاً وثيقاً بزخرفة المآذن.

وقد تعارفنا على تخطيط العقود من خلال دراسة العمارة فظهر العقد الكامل المزدوج، والعقد المشجوج إلى فصوص مستديرة في أجنحة قرطبة وظل مستعملاً في كل من عصر المرابطين والمهاد، والعقد الكامل والمزدوج يستخدم في فتحة المحاريب إلى الآن مما يدل على حفاظ الفن المغربي على تقاليده.

وهناك أشكال متنوعة للعقد المفصص الذي ازدهر في عصر المهاد مثل العقد المروحي الشكل، والمنحني الأضلاع، والمهدب، وقد استخدمت كلها في زخرفة مفاتيح العقود البارزة المستوحاة في أغلب الظن من المقرنس، والوصلة بين الفص السفلي للعقد واتساع الدعامات يتم بواسطة تاج بناء حلزوني والذي استقاه المزخرفون في عصر المهاد من الفن الفاطمي، وقد سبق أن ذكرنا ظهور الزخرفة الشرقية المعروفة بالمقرنس وتتبعنا مراحل تطورها، وبخلاف التخطيطات المختلفة للعقود، واستخدام مفاتيح العقود ذات الألوان المتداخلة التي تأثر بها الفن الروماني في مدينة Auvergne، هناك طرز أخرى من المساند البارزة ذات الحلقات الحلزونية نفذت في الجامع الكبير بقرطبة التي انتقلت فيما بعد إلى الفن الروماني، كما وجدنا بعض التصميمات لحوامل الأفاريز العتيقة المزخرفة بزهرة الأكنيس منفذة في المساند البارزة الخشبية والتواصل بين كلا الفنين الإسلامي في أسبانيا والمسيحي قد تم بواسطة الفن المستعرب. والتيجان في مدينة قرطبة منقولة من الطرز الرومانية، وفي بعض أجزاء من المسجد الذي بناه الحكم الثاني والمنصور نجد طراز التيجان الكورنثية المستوحاة من أساليب معمارية متعددة، وقد عولجت بطريقة التقطيع وخلت من أي تفاصيل داخلية،

وهذه التيجان وجدناها فى مدينة الزهراء، وقد زخرفت بواسطة المنحوتات المتقوبة التى فصلت بين نصل الأوراق الزهرية، كما خفضت من النقش الغليظ فى الأضلاع (العروق) وفى القرن الحادى عشر ظهر نوعان من التيجان ذوى طرز عتيقة مستوحاة من أصول متباينة، فبدأ التغيير فى الشكل الخارجى وفى العناصر الزخرفية الزهرية التى شكلها الفنان بحرية تامة. ومن أجمل النماذج وجدناها فى "الجعفرية" بمدينة سراقوصطة، وفى المعبد اليهودى بطليطلة، والذى تحول إلى كنيسة مسيحية فيما بعد وعرفت باسم سانت مارى لابلانـش Sainte-Marie-la Blanche، كما انتقلت تلك النماذج إلى تيجان المهاد بـتينمال، وفى الكتوبية بمراكش، ذلك بالإضافة إلى بعض النسق المستقاة من بعض سجلات الزخارف القديمة مثل فصوص اللؤلؤ، والفريرة، وشكل القلب المقسوم يسهم، كما تضمنت عناصر الزخارف الخطية ثلاثة طرز والتى سبق وأن شاهدناها؛ الزخارف الكتابية، والهندسية، والزهرية، وقد لعبت الكتابات دوراً مهماً فى زخارف الجامع الكبير بقرطبة، واستخدم الخط الكوفى البسيط، والأحرف تنتهى بأشكال نباتية عند أطرافها، وفى مدينة الزهراء ظهرت الأشكال الزخرفية فى ثراء ومماثلة لزخارف إفريقية الفاطمية، ثم تنتقل إلى زخارف جامع تلمسان التى ازدادت ثراء، كما استخدم الخط النسخى ويؤرخ هذا الجامع بعام (١١٣٦)، والزخارف الكتابية من عصر المهاد قليلة نسبياً، وهى ذات طابع عتيق وصلب وبعيد تماماً عن الخط الكوفى البديع فى تونس، والزخارف الهندسية كانت محدودة للغاية فى الفن الأموى؛ فظهرت فى زخارف الدرابزين فى مسجد قرطبة، وفى بلاطات الرخام المخرمة وزخارف الشرطة المملوءة بالمتشابكات، وقد شاهدنا فى

مصر زخارف المتشابكات الهندسية والتي تطورت في أساليب استخدامها على الأخشاب. كما زخرف منبر جامع قرطبة بالمتشابكات على نمط منابر المهادر والمرابطين، وابتداءً من القرن الثاني عشر ساد طراز محاريب كل من تينمال والكتوبية، كما سيطرت الأشكال الزهرية على الزخرفة في الجامع الكبير بقرطبة وفي مدينة الزهراء، وكم أدهشتنا هذه الزخارف في طابعها ومن المصادر التي استقت منها، ويعتبر نبات الكروم أهم عنصر من عناصر الزخرفة في إفريقية؛ فظهر العنقود وملحقاته المتنوعة، أما الأكنيس فقد استخدم في التاج الكورنثي كعنصر رئيسي ويتألف من مجموعات من التصبيغات وتفصل بينها زهور القرنفل والأهلة، كما صور الأكنيس بمقطع جانبي، وينحني عند العروق (الأضلاع) المركزية، أحياناً أخرى يشكل الأكنيس على هيئة فصين ضخمين ومثلثين ومتباعدين توحى بشكل القرنبيط، التي تحمل الزوايا ومحاور طبلية تاج العمود في التاج الكورنثي، وقد لعبت الورقة النخيلية المزدوجة للأكنيس الدور الرئيسي في الزخرفة الزهرية من عصر المرابطين والمهاد، والاختلاف كان طفيفاً بينهما، والزخرفة الزهرية في عصر المرابطين كانت أقل تنوعاً من زخارف العصر الأموي بعد أن اختصر منها مثل باقى الطرز الزخرفية في تلك الفترة التي نفذت في مساحة مدمجة فظهرت أكثر كثافة حتى باتت غامضة.

وتتسم الزخارف النباتية في عصر المهاد بالبساطة كما تشغل مساحة أعرض مما ينم عن نقشف هذه الطائفة من المهاد فظهرت المساحات خالية تماماً من أى نقش مما يعطى الإحساس بالافتقار أحياناً مثال محراب تينمال، كما فقدت ورقة الأكنيس الكثير من تفاصيلها الزخرفية الداخلية المميزة لها

فظهرت بشكل مقطعى أشبه بنماذج إفريقية الفاطمية، وهذه التيارات الشرقية قد مرت علينا سابقاً فى العمائر الأموية فى إسبانيا، والأسقف فى قرطبة ملئت بالزخارف المنحوتة والمرسومة التى تحمل تقاليد الفن الفاطمى فى مصر الذى تأثر بالفن الطولونى، وقد ساعد سهولة انتقال قطع الأثاث من مكان لآخر على انتشار الطرز الفنية وتأثرها ببعض، ونضيف إلى الزخارف النباتية التصاوير الآدمية والحيوانية التى التحمت أحياناً مع بعضها، وقد عثرنا على بعض الأجزاء لوجوه مجمدة مستوحاة من التقاليد العتيقة فى مدينة الزهراء، كما زخرفت الأحواض الرخامية ببعض الأشكال الآدمية فى القصور الأندلسية من القرنين العاشر والحادى عشر، وبحلول القرن الثانى عشر اختفت تماماً تلك الزخارف التى لم تعد تتلاءم مع زهد وتكشف المهادر.

فنون الأثاث:

العاج والأخشاب:

ويعد النحت على العاج من مفاخر عصر الخلفاء ورؤساء الطوائف وهو يختلف عن النحت على الرخام، وقد عرفت كل من قرطبة وكوينكا بإنتاجهم للخزائن وذلك لوجود دور رسمية لإنتاج العاج ومن أجل قطع الخزانة المحفوظة فى كاتدرائية Pampelune، والعلب المستديرة لحفظ العطور والحلى، وتتألف الزخرفة من شريط من الكتابة الكوفية يلتف حول أسفل الغطاء والذى كان يحمل فى أغلب الأحيان تاريخ واسم الأمير المخصصة له، والزخرفة كانت تقسم إلى رصيعات أو حلقات بيضاوية،

والوجوه ذو ملمح شرقي، كما احتوت على مجالس الشراب والطرب، والصيد، وتصوير لبعض الأفيال الآسيوية، أما الوريقات النباتية فكانت تزخرف من الداخل، وهناك تشابه بينها وبين الزخارف الموجودة على بلاطات رخامية والتي تدل على الصناعة المحلية (انظر لوحة ١٧)

ويبدو أن النحت على العاج لم يستمر في ازدهاره طويلاً إبان حكم البرابرة، كما نفذ النحت على الأخشاب ولكن في أضيق الحدود فقد استمرت دور النجارة في إنتاجها وقد وصلت الأعمال الفنية في القرن الثاني عشر لقمة تفوقها، ويعد منبر القرويين في فاس، والكتوبية وقصبة مراكش من الأعمال الأندلسية المستوحاة من المنبر الشهير بقرطبة، وتحتوى على زخارف من المتشابكات الهندسية والمؤلفة من العيدان بالرصيعة وقد أحاطت باللوحات ذات الزخرفة النباتية، وتعدد هذه الأعمال من حيث روعتها، وعبقريتها والإتقان في أساليبها التقنية من أروع ما أخرجه لنا الفن الشرقي.

البرونز:

عرفت إسبانيا في عصر الخلفاء أعمال سبك البرونز مثل بلاد فارس ومصر في العصر الفاطمي، وعلى الرغم من التأثير الطفيف بين قطع البرونز الإسبانية من عصر الخلفاء والقطع الفاطمية فإن الكثير من الآثاريين لم يستطيعوا التفريق بين القطع البرونزية المصرية والإسبانية، وقد ظهرت بعض الأشكال الحيوانية في أعمال البرونز في العصر الفاطمي، وإلى إسبانيا ننسب لها الأيل من البرونز وقد عثر عليه في حفائر مدينة الزهراء

والمحفوظ الآن بمتحف قرطبة، وإبريق لغسل اليدين على هيئة رأس أسد والمحفوظ فى متحف اللوفر فقد جاء من مدينة بالنسيا، وأيضاً الطاووس المحفوظ باللوفر وعليه إمضاء "عبد الملك المسيحى"^(١) (انظر لوحة ١٨) مما يدل على أصل الفنان المسيحى، كما وجدت ثريات فى مدينة أيبيرا بالقرب من مدينة غرناطة وبمقارنتها ببعض الثريات المحفوظة فى بعض الأديرة القبطية تجعلنا ندرك الدور المهم الذى لعبه المسيحيون فى البرونز وفى ممارسة هذا الفن المعدنى وانتقاله من مصر إلى إسبانيا، كما زخرفت بعض القطع بطريقة التفرغ المعدنى، وهناك خزانة مصنعة من الفضة المذهبة والمطروقة ومؤرخة بسنة (٩٧٦) وتعد من أعمال المعادن النفيسة.

الزجاج والخزف والنسيج:

لقد أمدتنا حفائر مدينة الزهراء بكميات وفيرة من الزجاج والخزف والذى عثر عليه فى مدينة أيبيرا من عصر الخلفاء، كما نرى تماثلاً بين الخزف الأندلسى والخزف الذى تنتجه إفريقية إلى اليوم، وكان الفنان يبدأ بالرسم على الفخار المدهون بعد تغطيته بطبقة من الدهان اللامع ولا يستخدم معه إلا اللون الأخضر واللون الأسمر الداكن من أكسيد الماغنسيوم، كما كثرت التصاویر الحيوانية، والسيراميك المزخرف بطريقة (cuerda seca) وأيضاً الخزف ذو البريق المعدنى، وقد عرف المغرب فى عصر المرابطين والمهاد فنون صناعة الفخار، ومنه الخزف المختوم بدون دهان وأحياناً كان

(١) وهناك نسخة مماثلة لهذا الطاووس محفوظة فى أحد المتاحف بإيطاليا وقد زخرفت بكتابة من اللغة اللاتينية: Opus Salomonis rat.

يزخرف بالمينا من اللون الأخضر وهو الطراز السائد، وقد عثر الأستاذ Alfred Bel على إحدى دور صناعة الخزف في "أغادير" بالقرب من تلمسان، كما وجدت مجموعات من خرزة البئر من عصر المهادر في الطريق الممتد إلى مراكش الذي يستمد المياه من الخزان الكبير.

وقد خصص لخلفاء قرطبة "دور الطراز" الخاصة بهم مثل خلفاء بغداد والقاهرة، وتحفظ كنيسة سانت إتيان دوجورماس Saint-Etienne de Gormas (Soria) في إسبانيا بوشاح من الكتان وقد غزل بخيوط من الحرير المتعدد الألوان وعليه اسم هشام الثاني ومؤرخ بعام (٩٧٦-١٠١٥) وتحتوي هذه الزخارف على وجوه حيوانية داخل حلقات بيضاوية والتي تشبه بعض قطع النسيج الفاطمي المتأثر بالتقاليد القبطية، وتعد مدينة "الميريا" أهم مركز لصناعة النسيج في القرن الثاني عشر، وقد تفرعت منه أكثر من ثمانمائة فرع من أفرع صناعة الأنسجة الحريرية.

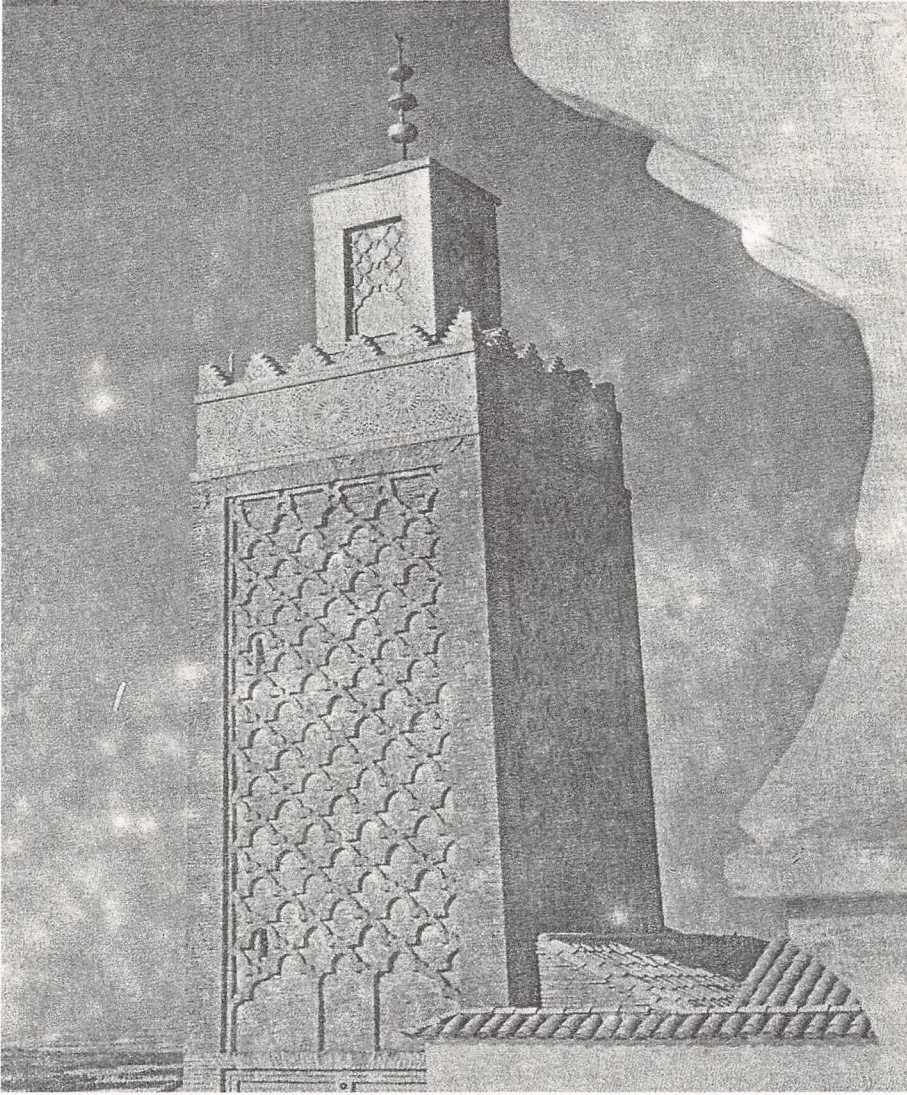
خلاصة:

تعد الفترة التي امتدت من القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر فترة حاسمة في تاريخ تطور الفن الإسلامي، وقد ظل محتفظاً في مراحل الأولى بطابع من سبقوه والذي نبع منه أيضاً ثم استطاع فيما بعد الخروج عنه ليحدد ملمحه الجديد الخاص به وقد رأينا سابقاً جميع العناصر الفنية القديمة التي تألف منها، وكان لزاماً علينا أن نحدد طابعه الفني الجديد الذي فرضته مقتضيات ديانته الجديدة، وما نهت عنه، وذلك بخلاف بعض التأثيرات الغامضة التي سيطرت على الثقافة الإسلامية قاطبة، ولذلك فقد قمنا

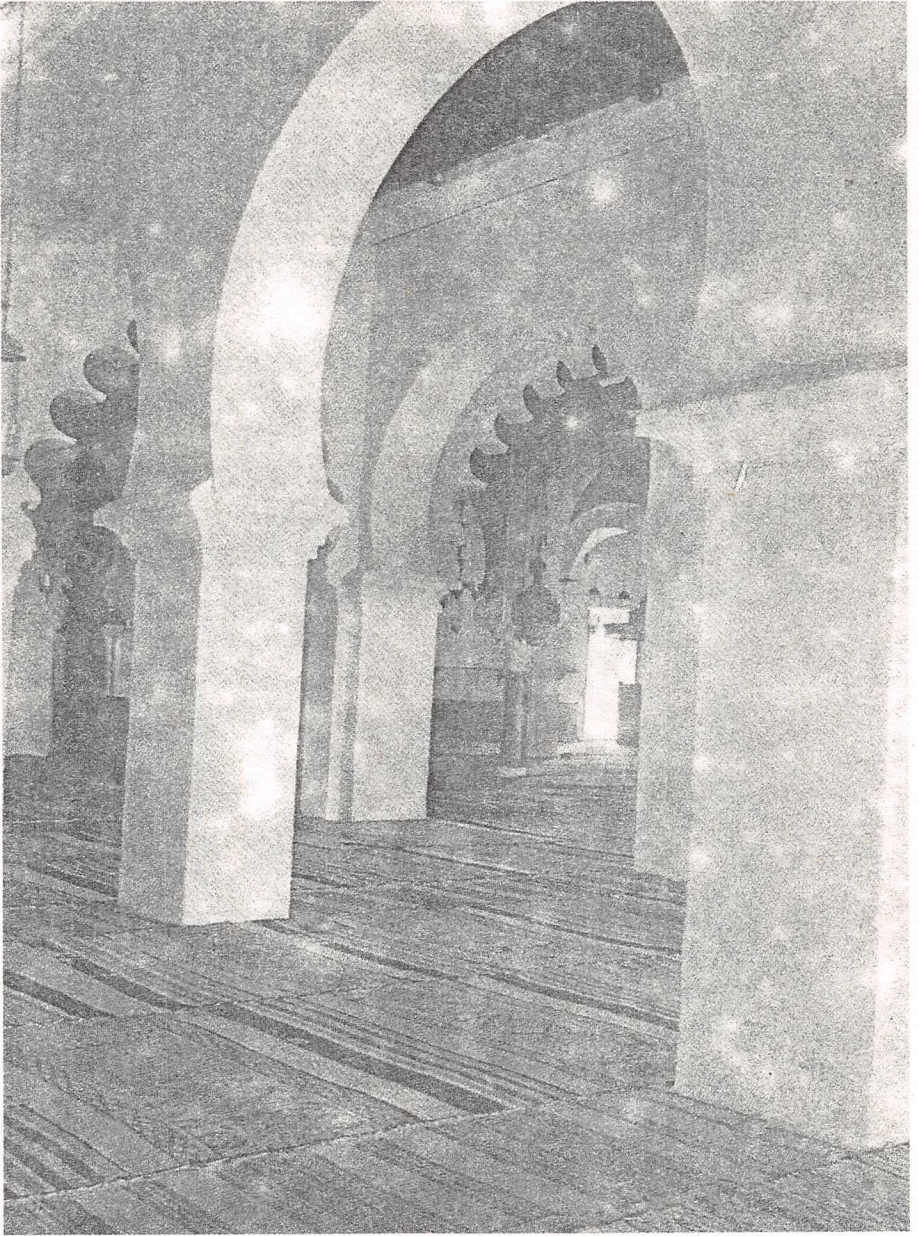
بعمل دراسة دقيقة للمراحل الانتقالية فاستطعنا تحديد ترتيب البازيليكا فى تخطيط المسجد، كما تتبعنا غصن الكروم الهلينستى فى زخارف المتشابكات المكونة من الأوراق النخيلية والذى اشتق منها حيث تأكدت هنا شخصية الفن الإسلامى، وإذا كنا قد وجدنا فى مصر بعض الإطارات الخشبية التى صنعت بأيادى بعض النحاتين القبط وتأثرها الواضح بالتقاليد البيزنطية والتى ظهرت فى زخارف الواجهات فى كنائسهم إلا أنها تعد من الأعمال الفنية الإسلامية البحتة، وقد حظيت بعض الأعمال الفنية المصرية بمكانة فريدة فى سلسلة أعمال الأثاث من العصر الفاطمى، وهكذا بدأ الفن الإسلامى يكتسب طابعه الخاص لتتطرق منه أفرع شتى مثل الشجرة الضخمة التى تتبثق منها الأفرع والأغصان المعلقة بدون قاعدة فى السماء. وقد أوضحت لنا الظروف التاريخية تلك الفترات المتقطعة والتى امتدت قرابة ثلاثة قرون بعد أن انقسمت بدورها إلى ثلاثة خلافت و زعت فيما بينها أقطار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وقد نتج عن ذلك انتشار المدن الحضارية التى سطع عليها نور الحضارة الإسلامية، كما ساعدت تقاليد الشعوب التى غزاها المسلمون على إثراء الفن الإسلامى بالطابع المحلى وبالتقاليد الراسخة لتلك الشعوب، فظهرت المدارس المختلفة التى تحدت شخصيتها منذ الوهلة الأولى، فإذا ما قارنا بين العمائر الثلاثة السابقة؛ الجامع الكبير بأصفهان، وجامع الحاكم فى القاهرة، والكتوبية بمراكش لوجدنا الفروق شاخصة أمامنا إلا أنها قد احتفظت بطابع يرجع إلى أصل مشترك بينها، كما ساعدت وحدة العقيدة على توطيد وحدة المصالح المشتركة بين الأقاليم الإسلامية فقامت بينهم شتى العلاقات التجارية والثقافية، وقد امتدت الحضارة الإسلامية حتى

شواطئ البحر الأطلنطى حتى وصلت إلى منطقة البيرينيه Pyrénées إلا أنها منذ نشأتها ظلت محتفظة بطابعها الشرقى.

كما ساعد تنقل الدبلوماسيين والحجاج، وطلاب العلم والفنانين والتجار من إقليم لآخر على نشر الكثير من الأفكار والطرز الفنية وبطريقة متزامنة فى شتى الأطراف المتباعدة من العالم الإسلامى مثل الصيغ الإنشائية والزخرفية وتجويفات المقرنصات وأعمال الترصيع من الفخار المطفى بالمينا، مما يدعو أحياناً للدهشة لأن ظروف تكوينها مازال يكتنفه بعض الغموض، وقد أشرنا سابقاً إلى ما استعاره المعماريون القرطبيون من القاهرة والقيروان، كما ظهرت بعض القطع الفنية المتشابهة من فنون الأثاث فى أنحاء شتى تجمعها روح واحدة كما لو كان هناك رابطة فنية تقنية واحدة، وقد ساعد انتقال قطع الأثاث على انتشار الطرز المتعددة فى أقطار العالم الإسلامى حتى وصلت إلى بلاد العالم المسيحى، وفى القرن الحادى والثانى عشر ظهر امتزاج بين فن الخلفاء والفن الرومانى ليصبح أكثر ازدهاراً فأصبح الاختلاف بين الإسلام والمسيحية سابقاً للتقاء وتبادلاً ثمثراً فيما بينهما، وبمعنى آخر نقول إن دول الصليب التى حلت محل دول الهلال ظلت شاهدة على إشعاع الحضارة الإسلامية التى تأثروا بروعتها، فنقل الصليبيون معهم من الأراضى المقدسة بعض الطرز مثل الأقمشة التى أثرت سجلات التصاوير الحيوانية فى عالمنا المسيحى، ومن صقلية المسلمة بعد أن أصبحت نورماندية انتقلت الكثير من العناصر إلى الغرب المسيحى مثل العقد الحاد المستخدم فى عمارة الكنائس إلى اليوم، وأيضاً الرسومات والألوان المتعددة فى عقود قرطبة لتظهر فى قلب مدينة Auvergne بفرنسا والفضل يرجع إلى المستعربين من إسبانيا وحجاج سان جاك Saint- Jacques.



لوحة (٢١) - تلمسان - مئذنة المنصورة



لوحة (٢٢) - داخل الجامع الكبير بتلمسان

الجزء الثالث
إرث الخلفاء الثلاثة

الفصل الأول

الفن الإيراني

وبظهور المغول على الساحة فى أوائل القرن الثالث عشر كانت نهاية لسيطرة الأتراك على بلاد فارس بعد أن استطاع أجلات جنكيز خان اجتياح دويلات الأتابك الصغيرة والقضاء عليها، والأتابك هم بعض القواد العسكريين الذين استطاعوا الانفراد بالحكم بعد أن قسموا فيما بينهم مناطق نفوذ السلاجقة فى إيران كما امتد نفوذهم (أتابك الأتراك) فسيطروا على سوريا حتى وصلوا إلى آسيا الصغرى عام (١٢٦٠)، وقد شكلت هذه الدول من بلاد المشرق القديم وحدة قائمة بذاتها ساهمت بدورها فى المراحل الانتقالية بين آسيا المسلمة ومصر وسوف ندرس كلاً منهما على حدة، واجتاح المغول إيران فى ثلاث غزوات؛ الأولى قام بها جنكيز خان عام (١٢١٨)، ثم جاء هولاء بعده بأربعين عاماً، والثالثة على يد تيمورلنك بعد مائة وخمسين عاماً أى مع نهاية القرن الرابع عشر.

وعلى الرغم مما صاحب هذه الحملات من تدمير فإنها لم تستطع النيل من الثقافة الإيرانية، وقد استطاع الأتخان وهم حكام من المغول الذين جاءوا بعد هولاء السيطرة على البلاد من الفرات إلى بلاد الهندوس لمدة قرن من الزمان، ثم جاء من بعدهم التيموريون خلفاء تيمورلنك الذين لم ينقطعوا عن ماضيهم كما ظل الفن الإيراني فى إحياء مستمر له والمغول هم أقوام

ذو قرابة من شعوب الصين وقد أظهروا حميتهم فى الدفاع عن الإسلام وحماية العلماء والفنانين، وابتداءً من القرن الثالث عشر والرابع عشر أصبحت كلٌّ من مدينة تبريز، والسلطانية، ومراغة الواقعة فى منطقة أذربيجان فى الجنوب الغربى من بحر قزوين مراكز ثقافية لالتقاء الشعراء الفرس، وتميزت تلك المدن بعمائرهما المشيدة من الطوب لتكون مقابر ملكية وهى ترمز إلى العظمة والذوق الراقى لهؤلاء الحكام المغوليين إلا أن عوامل التدمير قد أصابت الكثير منها .

العمارة الجنائزية والدينية:

ومن أهم المقابر التى شيدت تقع فى مدينة السلطانية ومؤرخة بعام (١٣٠٩) وقد خصصت لدفن الأمير أولجاتو، والعمارة كلها من الأجور وتتألف من قاعة جنازية مغطاة بقبة وملحق بها مصلى صغير ومن المرجح أنه أحدث من المقبرة، والقاعة المقبية تبلغ مساحتها ٤٠×٢٤ مترًا، وتحتوى على تخطيط مثنى مدعم بأربع كتل غليظة، ويظهر هذا المثنى من الخارج بشكل مربع ذى زوايا حادة زخرفت بها التجويفات من داخل العقود الصغيرة، والرواق مثنى وبه فتحة كبيرة قد توجت بها القاعدة، كما دعمت الجبهات بأبراج إلا أنها انهارت كلها، وتمتد تيجان الركائز الأسطوانية فى ثمانى زوايا مؤلفة للرواق، والقبة تظهر فى هيئة العقد الحاد المنبثق من المركز، والأسلوب الإنشائى الذى اتبع فى مقبرة الأمير السلجوقى سنجر هو الآتى؛ شكلت القبة على هيئة قلنسوتين مدمجتين يفصل بينهما فراغ والذى تقطعه بعض العقود البسيطة، وظاهر القبة كسى كله بالميना من اللون الأزرق

الفيروزي، وعلى الرغم مما أصاب هذا القبر من خراب، فهو من أبدع العمائر الملكية المغولية التي ظهر فيها الابتكار في الأساليب الإنشائية. في النسب، وفي التكسية الخارجية المتألقة المشكلة من السيراميك والتي تعد من أبدع إفرازات العبقريّة الإيرانيّة، وتحفظ مدينة "طوس" القديمة الواقعة في خراسان بمقبرة كبيرة عرفت خطأ باسم مقبرة الخليفة هارون الرشيد وتاريخ عمارتها مقارب للسلطانية، وهناك أكثر من ملامح بين المقبرتين؛ فالقاعدة مزخرفة بتجويفات، والأبراج تعلو فوق الزوايا الضخمة، أما القاعة المركزية في مقبرة طوس فتحتمى على تخطيط مربع ومغطاة بقبة صغيرة مؤلفة من قلسوات مدمجة، وإذا ما اتجهنا نحو الشرق نصل إلى المقبرة المهيبة والمعروفة باسم جور - أمير - سمرقند، وقد شيّدت عام (١٤٠٥) ليُدفن فيها تيمورلنك ويفصل بينها والمقابر السابقة قرن من الزمان، وتتألف من إيوان استخدم كدهليز يؤدي إلى الصحن المزروع بالأشجار والذي يسبق القبر ثم إيوان ثانٍ للخروج منه، ومن أعلى القاعدة المثمنة توجد الكتلة المرتفعة المؤلفة للأسطوانة الرافعة للقبة التي زخرفت بتضليعات بارزة ومنتفخة وقد كسيت القبة بصفائح من الخزف الأزرق والمذهب، ومن الداخل حفر القبر في شكل مربع ليمتد كل جانب منه بتجويفة مستطيلة، ومن أعلى تقع القاعة الرئيسية ذات التخطيط المتعامد، وقد غطيت القاعة بقبة محملة على عقود الزاوية، ولا يتخطى ارتفاع مستوى الأسطوانة الرافعة، والقبة الخارجية تشرف من خارج القبة الداخلية ويصل ارتفاعها حوالي عشرة أمتار وقد ملئ الفاصل بينهما بقواطع ودعامات تمنع أي هبوط أو انحناء في الزخرفة الموجودة أعلى البناء.

وقد ظلت العناصر الأساسية فى العمارة الجنازيرية مستخدمة فى المباني الدينية، كذلك التقاليد الإنشائية السلجوقية التى لم تتوقف فى العصر المغولى ومازلنا نشاهدها بوضوح فى بعض المساجد الشهيرة التى لم تطلها يد التخريب.

الجامع الكبير فى فيرامين (جنوب طهران):

شيد هذا الجامع أبو سعيد المغولى عام (١٣٢٢) والمدخل مؤلف من إيوان يطل على الصحن المحاط بالعقود من أروقته الأربعة وقد فتح إيوان فى وسط كل رواق منها، وإيوان القبلة يرتفع عن الإيوانين الجانبيين مشكلاً المدخل المهيّب المؤدى إلى قاعة الصلاة، الذى يحتوى على قاعة واسعة مغطاة بقبّة؛ والقبّة تلتف من حولها الأروقة المغطاة بقطرة تمتد بطول جدار القبلة والأروقة الجانبية للصحن، وترتكز القبّة الكبيرة على أسطوانة رافعة مربعة الشكّل وتحملها العقود ذات التجويفات المركبة، وهذه التجويفات المقدسة من المقرنصات ترجع إلى التقاليد الإيرانية والتى زخرفت بها الإيوانات، والعقود تظهر فى شكل حاد أو فى هيئة العقد ذى البتلتين وهى من سمات العمارة الفارسية أيضاً.

و"مشهد" هى المدينة المقدسة الواقعة فى إقليم خراسان فى إيران، حيث تقد إليها الأعداد الوفيرة من الحجاج المسلمين الشيعة بعد أن أصبح المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى لدولة الفرس، وقد أبدوا الكثير من الاهتمام لترميم مسجد "جوهر شاه" الذى شيدته إحدى الأميرات التيموريات عام (١٤١٨)، والبناء يتألف من مساحة شبه مربعة، يبلغ طول ضلعها حوالى

٩٠م، كما يشتمل الصحن على مساحة مربعة، تمتد جوانبه بنحو خمسين متراً تقريباً، وقد حفت بأروقة مكونة من طابقين تقطعها أربعة إيوانات، وإيوان القبلة مؤلف من قنطرة وبجانبه مئذنتان أسطوانيتان والتي شكلت واجهة القاعة التي غرس بها المحراب وفي وسطها ترتفع القبة الكبيرة المبصلة، وقد دعم هذا الجامع بجدران قوية والتي تفصل بينه وبين البواكى الممتدة على كلا الجانبين.

جامع "يزد" الكبير فى وسط إيران:

وهذا الجامع مازال يستحق منا دراسة كاملة، فقد شيد عام (١٣٧٥) وانتهى من تشييده عام (١٤٤٢) كما رمم عدة مرات، وتخطيطه مألوف فهو يتكون من صحن محاط بأروقة إيوانات، وبالنسبة لإيوان القبلة نصل إليه من خلال فتحة عريضة وهى أكثر عرضاً من الارتفاع فى صالة المحراب.

وقد غطيت هذه القاعة بقبة غليظة وقصيرة، ويقع عن يمينها ويسارها الإيوان وقاعة تعلوها قبة، وبانكة المصلى غطيت بأقبية برميلية فى اتجاه مستعرض، ثم نجد قباباً صغيرة بشكل الأبراج المزججة ترتفع من أعلى الأقبية البرميلية التى ساهمت فى الإنارة الجيدة للقاعة، ثم ننقل إلى الجامع الأزرق بتبريز (والواقع جنوب غرب بحر قزوين) ويحتوى على كتابة مؤرخة بعام (١٤٦٨)، وعلى الرغم من حالة الخراب الذى عليه هذا الجامع فقد لقب بالأزرق نسبة لرخارفه البديعة من الخزف والتي مازالت فى حالة جيدة من الحفظ إلى الآن، ونلاحظ هنا نمطاً مختلفاً من العمانر الدينية فواجهة الجامع عريضة تمتد حوالى ٥٢ متراً، وبها حصنان مستديران وترتفع فوقهما مئذنتان عاليتان، ثم نصل إلى الداخل بواسطة مدخل مسقوف يحتوى

على مقرنصات، وقد غرس فى وسط الواجهة، والقاعة المربعة هنا حلت محل الصحن وطول ضلعه حوالى ١٦م، وقد غطيت بقبة كبيرة، والقبّة محاطة بثلاثة أروقة من داخلها قباب صغيرة، ومن خلال أربع فتحات عريضة تتصل القاعة المركزية بالأروقة الداخلية، كما تصل بين الواجهة المقابلة للمدخل، والقاعة الصغيرة كانت مغطاة بقبة وبها محراب إلا أنها خربت (انظر لوحة ٣٠) والملاحظ هنا أن العنصر الأساسى وهو الصحن الداخلى قد غاب فى تخطيط جامع تبريز وهو من السمات المألوفة فى التقاليد الإيرانية، والقاعة الكبرى مغطاة بقبة وتتبع من الصحن كما تتصل ببقاى الأروقة التى تحيط بها، والفتحات التى تتفرج على الجوانب قد حلت محل الإيوانات، ويتشابه هذا الجامع بمقبرة السلطانية فى أكثر من ملامح؛ فالقاعة صغيرة وبها محراب وقد ضمت إلى القاعة الرئيسية من الخلف، وهذا الترتيب نراه مناسباً أكثر لضريح ولكنه لا يفى بغرض إقامة الشعائر الدينية فيه، وربما يكون هناك تأثير بالعمارة البيزنطية فحدود مدينة تبريز المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية سوف تظهر فيما بعد التشابه فى عمارة المساجد الأولى العثمانية.

العمارة المدنية:

ومن العمارة المدنية المغولية عثرنا على بقايا "قصر قاش" الذى شيده تيمورلنك ليكون مقراً له، ومدينة قاش هى مسقط رأسه وتقع جنوب سمرقند، وقد ترك لنا السفير هنرى الثالث وكلافيجو وصفاً غريباً لتلك المدينة، ومدخل القصر عظيم ويمتد بدهليز طويل، وبه قاعات جانبية للحراس والتى فتحت بواسطة الإيوان الموجود فى الصحن المركزى.

وهناك إيوان آخر مغروس في الواجهة المواجهة لنفس الصحن ومازالت بعض الجدران باقية من هذا الجزء إلى الآن، ونلاحظ الضخامة في النسب، فالإيوان كان يرتفع بطول ٥٠م ومحاطاً به أبراج أسطوانية، ومن الداخل ينفرج على قاعة استقبال مربعة، كما يحتوى على عدة طوابق معيشية وقاعات اصطفت في الجوانب المحيطة بالجزء الأوسط من القصر، وبخلاف هذا التنسيق المؤلف من عدة طوابق، فإن القصر الملكي "قاش" قد استقى عناصره من عناصر ترتيب المسجد، والعمارة المدنية عامة اشتقت من العمارة الدينية، والعصر المغولى بصفة عامة لم يعرف بأية ابتكارات فيما عدا عصر تيمورلنك وخلفائه الذى عرف بعصر النهضة التيمورية حيث نعم أمراؤه بحياة البذخ، كما عرفوا بهمتهم في إقامة العمائر مثل "جور أمير" و"قصر قاش" وهى عمارة خلابة ومثيرة للإعجاب والدهشة كلما أمعنا فى نسبها المعمارية الشاسعة، وأبراجها، وقبابها، وفخامة زخارفها إلا أن الطرز لم تتغير، كما لم يظهر فيها أى تأثير صينى كما كنا نتوقع، وقد قام الحكام التيموريون باستدعاء فنانين من شتى أقطار بلاد فارس حيث المراكز الفنية القديمة المنتشرة هناك لبناء عمائرهم فى قاش وسمرقند التى ظهرت فيها غزارة الفن الإيرانى الإسلامى.

الزخرفة:

والزخرفة لم يحدث بها أى تغيير يذكر، وقد انتشر استخدام المقرنص، وتداخلت الأشكال الموشورية مع الأساليب الإنشائية فى بناء الجدران من العصر السلجوقى ليختفى تماماً فى العصر المغولى وظهرت فقط فى التكرسية

المنفصلة تمامًا عن الهيكل التشريحي للبناء وكانت إما تلتصق بالقبو أو بالقبة، والتليبيسات الخزفية التي ظهرت في سامراء في القرن التاسع والتي استمرت في العمارة السلجوقية في أضيق الحدود قد وصلت إلى ذروة تطورها في العصر المغولي، فالتقنية العالية والإبداع في فن الأرابيسك والجمال المنقطع النظير في استخدام المينا في الجامع الأزرق بتبريز لا نظير له، كما أن التليبيسات ذات الألوان الزاهية والمتعددة كانت تلتصق أحيانًا على سطح كامد من الأجر أو يكتفى بالدهان على سطح لامع بشكل الطوب والذي يلتحم تمامًا بالتليبيسات التي تغطي المساحات الكبيرة كاملة مما قلل من استخدام الأشكال الخزفية الأخرى، وفي الجامع الأزرق بتبريز ظهرت النتوءات المنحنية من الجص التي تحيط باللوحات وظهر تأثيرها القوي بوضوح، وقد زاد من ثراء الزخرفة استخدام الألوان المعتمدة والبراقة حيث وجدنا اللون الأزرق سائدًا، وقد ساعد التنوع في الموضوعات والبقع بألوان متعددة والعناصر الخطية التي استخدمت بدقة في كل لوحة على خلو الزخرفة من الغموض (انظر لوحة ٣٠)، وتنتمي تلك العناصر الخطية في الزخرفة إلى ثلاث عائلات هما: الكتابات، والهندسة، والزهور.

لم تحظ الزخارف الهندسية هنا بالمكانة التي حظيت بها في أقطار أخرى من العالم الإسلامي مثل مصر والمغرب، والأشكال المضلعة المحددة بالأسرطة تتسم بالبساطة ولم تؤثر على شكل المضلع، كما انتشر الشكل النجمي المنبثق من النجمة الثمانية القديمة أو من الصليب المتعامد، وقد

حظيت الكتابة بمكانة كبيرة، فاستخدمت الزخارف من الخط الكوفي المنفذ على الأجر وعلى الفخار المطلي بالمينا كما كسيت بها الجدران والمساحات المنحنية في المآذن وفي المقابر. والخط الكوفي المربع كان ملائمًا في الزخارف المتكررة المؤلفة من الأشرطة الصلبة والمكسورة بزاوية قائمة، وقد اشتملت الكتابات الكوفية على بعض النصوص الإيمانية القصيرة الشائعة الاستخدام، أما الكتابات من الخط النسخي فكتبت بها النصوص الطويلة باللغة العربية والفارسية، وبعض الأبيات الشعرية من اللغة الفارسية، وتميزت الكتابات المنفذة على الجص بطابعها المنسق، ومنها أيضًا الزخارف الكتابية المقطعة في الخزف على سطح مليء بالأغصان النباتية والتي تتم عن جدار الفنان وتمكنه التام، والزخرفة الزهرية كانت عنصرًا قائمًا بذاته، وتتألف من بعض الأغصان الحلزونية، ومن أنصاف الأوراق النخيلية، واللوحات وركينات العقود وفي حالة استخدام الزخرفة الزهرية في المساحات المضلعة المستقيمة كانت تبسط على الجدران مباشرة.

وقد اشتملت هذه الزخرفة الزهرية من زخارف سامراء ونابيين، وقد لحق بها الكثير من التغيرات فباتت محورة ولا تحاكي الطبيعة، وقد ظهر هذا التأثير في فاكهة الكروم وفي نبات الأكنس؛ فتحول العنقود ليشبه الفاكهة بشكل سهمي بزاوية قائمة أو منحنية، والورقة النخيلية أخذت شكل المثلث وقد قسمت إلى فصين غير متساويين، والوردية تألفت من مجموعة ثلاثية من الفصوص.

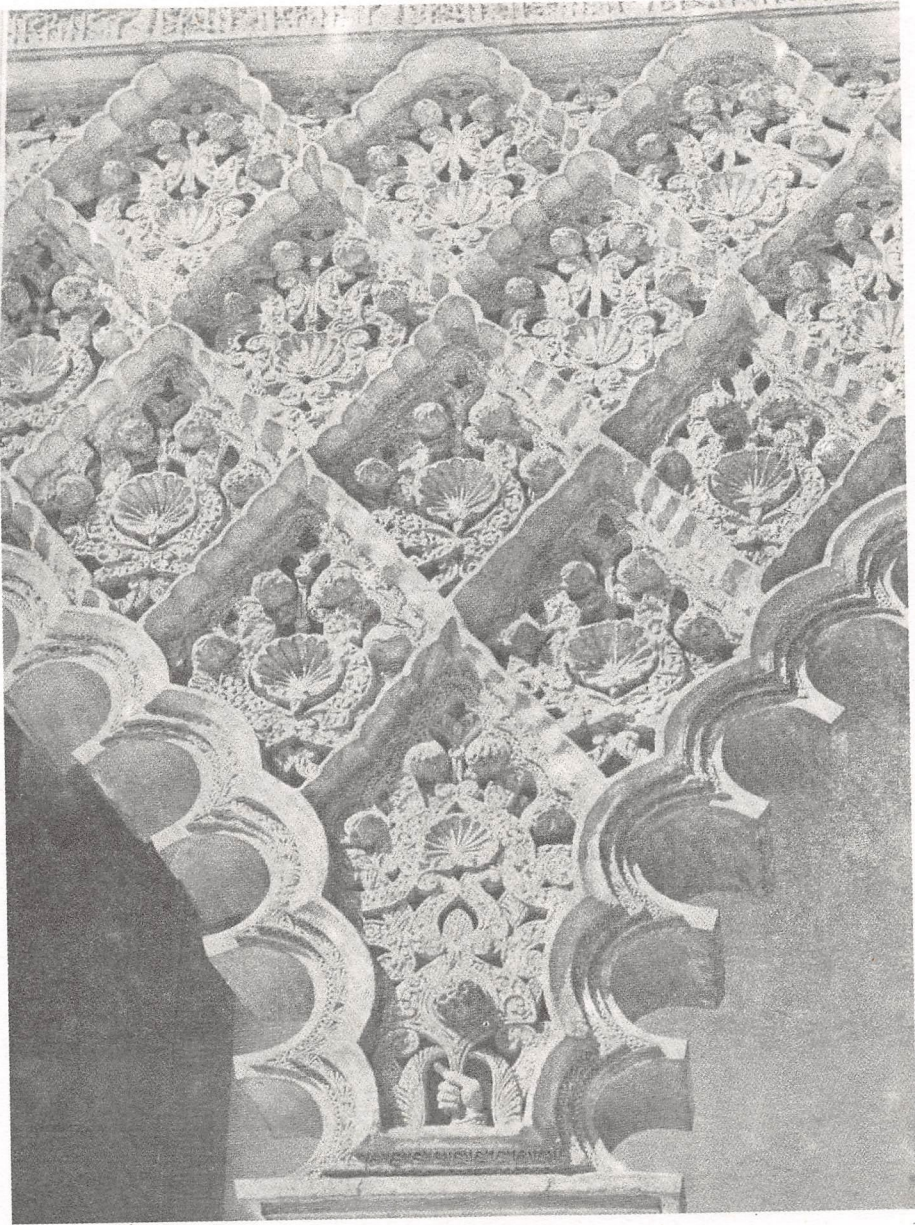
كما ظهرت بعض الصيغ التي باتت مألوفاً من العناصر النباتية والتي ملئت من الداخل ببعض الألعاب المصطنعة والمركبة لتشغل المساحات المطلوب زخرفتها، كما أضيفت بعض الأشرطة المتعرجة والوريدات التي تظهر كقطرات الندى.

وهذا النمط من الزخارف الذي عرفه الفاطميون قد عم استخدامه، كما يذكرنا ببعض الزخارف الصينية من البرونز وفي بعض المنسوجات، وربما يكون هذا الطراز قد جاء من الشرق الأقصى.

فن الأثاث:

التحمت الزخارف الخزفية التحاماً وثيقاً بالعمارة وكسيت بها معظم العناصر المؤرخة بالقرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كما وجدنا أجمل القطع الفنية مؤرخة بهذا العصر، ومن بين مئات المراكز الصناعية للفخار تلك التي تقع في شمال غرب إيران ومنها مدينة الري وراجس بالقرب من طهران والتي عرفت هذه الصناعة منذ أربعة قرون وظلت مستمرة حتى بعد استيلاء جنكيز خان وهولاكو على تلك المدن، ومن أهم دور صناعة الفخار الذائعة الصيت وذات الإنتاج الوفير تقع في مدينة سلطان آباد، وسافا، وكاشان (انظر لوحة ١٠)، وقد استمرت مدينة ري في إنتاج الخزف ذي البريق المعدني من الأطباق، والأواني الزهرية حيث لون باطن الأنية باللون الأبيض أو الأزرق، كما احتوت التكسيات الخزفية على أشكال بديعة من النجوم، والصلبان ذات البريق المعدني المصنوعة في كاشان من

القرن الثالث عشر، واحتوت الخزاف الغزيرة على الوجوه الآدمية والحيوانية، وقد صنعت قطع من الخزف المتعدد الألوان على دهان شفاف فى كل من رى وكاشان، كما عرف خزف كاشان باللمسات الذهبية التى أضيفت إليه مما زاد من قيمته، والذى ظهر أيضًا فى سافا والرى، ومن الأعمال المميزة لمدينة كاشان الخزف ذو النقوش وتحتوى على النماذج المجسمة أو المصنوعة فى قوالب، ومن منطقة سلطان أباد وصلت إلينا الطرز التالية؛ الخزف ذو البريق المعدنى، والخزف المتعدد الألوان، والفخار ذو الخزاف البارزة، إلا أن ألوانها كامدة وداكنة؛ ولذلك قمنا بدراسة مجموعات الرسومات التى تحتوى عليها فنون الفخار؛ فظهرت الأشكال الآدمية فى هيئة مستديرة، ووجوه الدمية وقد أنقن الخزافون تنفيذها بحرية تامة والتى تضاهى المنمنمات الحديثة، كما وجدنا فى زخارف الخزف بعض التأثيرات المغولية والأخرى من الشرق الأقصى.



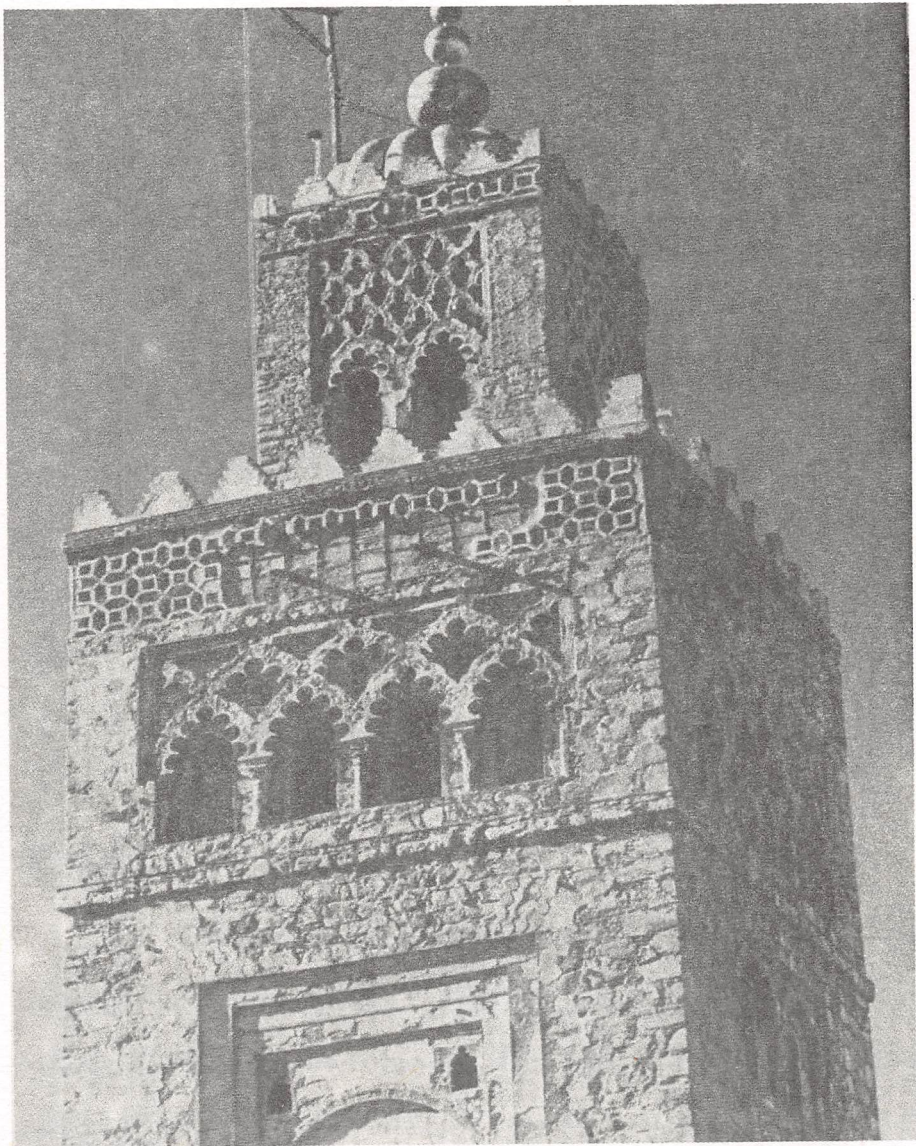
لوحة (٢٣) مقطع تفصيلي من القصر بإشبيلية

فن الرسم:

لقد عثر حديثاً على مخطوطة لأندازنامه وهو أحد شعراء الفرس، والتي زخرفت بالمنمنمات حيث تظهر بها التأثيرات الصينية والمؤرخة بعام (١٠٩٠)، وحتى تاريخ هذا الكشف للمخطوطة الموثقة فإننا لم نعثر على أية مخطوطة أخرى قبل القرن الثالث عشر.

وابتداءً من القرن الثالث عشر ظهرت الكتب العلمية والتي احتوت على الوجود كجزء مكمل وشارح للنص، كما بدأ الاقتباس من بعض الأعمال اليونانية؛ فظهر مؤلف في حركة علم السوائل المتحركة للجزري المأخوذ من كتاب لفيلون البيزنطي، ومؤلف آخر عن المواد الطبية المترجم عن ديسقوريدس، كما ظهر في نفس الوقت كتاب كليلة ودمنة - النسخة العربية - وهو عبارة عن حكايات على لسان الحيوانات وترجع أصولها لبلاد الهند، ثم مقامات الحريري، ويؤرخ ببداية القرن الثاني عشر والراوى يظهر هنا في صورة رجل أشعث، طلق اللسان وهو يتنقل بين المجالس ليسرد أقاصيصه في شتى أطراف الممالك الإسلامية، وقد ذاع صيت كلا الكتابين لما بهما من تصاوير، فالأول يحتوى على الأشكال ذات الأربع، والطيور المختلفة والتي تدل على دقة الملاحظة، أما الثانى فقد أوحى إلى الفنان يحيى بن محمود من مدينة واسط الواقعة على ضفاف نهر دجلة بين بغداد والبصرة وقد احتوت على سلسلة من التصاوير الجذابة المنفذة بأسلوب زخرفى بديع.

وقد حاولنا البحث عن أصول هذا الفن في الكتب الخاصة بطائفة الزرادشت التي ظهرت في إقليم التركستان وفي بلاد ما بين النهرين، كذلك رجعنا للرسومات الموجودة في المخطوطات البيزنطية، وجدير بالذكر أن المخطوطات الإسلامية لم تتسم بالجمود ولا بالطابع الكهنوتي، وقد صور الأثر أو المنظر الطبيعي في إطار مبسط، وأصبحت الوجوه أكثر تعبيراً عن الحياة، والميل إلى إظهار الحركات التعبيرية والتي لم تخل أحياناً من الإيماءات الكاريكاتورية، وترجع الكثير من المؤلفات في النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى مدرسة بغداد، ومع الحملة الثانية المغولية بقيادة هولاكو استحدثت في فن المنمنمات طابع جديد متأثر بالتقاليد الصينية وقد وجدناه في المناظر الطبيعية، فصورت الجبال والسحب والأشجار والمياه الجارية وكلها مستوحاة من أعمال الرسامين الصينيين وخاصة تصوير مؤلفات الحيوان والتاريخ الطبيعي الذي اشتهر في مدينة تبريز وتركستان، وخلال القرن الرابع عشر بدأ تأثير الشرق الأقصى واضحاً في كل من تبريز وشيراز إلا أنه يميل إلى الاعتدال، وبات الرجوع إلى الأصول الإيرانية واضحاً لتأخذ مكانتها من جديد وخاصة في التصاوير فظهرت فيها روعة التكوينات وجمال التأثير العاطفي ليلهم شاعر إيران العظيم الفردوسي الذي تغنى بالبطولات والقوميات القديمة.



لوحة (٢٤) منمنة الكتوبية

ومع وصول التيموريين إلى الحكم في القرن الخامس عشر أصبحت مدينة هرات من أهم المراكز المشعة في تصاوير المنمنمات، كما لم تختف التأثيرات الصينية كلية بل استمرت في المناظر الطبيعية التي ترجع بنا إلى الموضوعات المصورة على الحرير وقد اشتملت على مناظر اللقاءات العاطفية ومناظر للأحداث الحربية، وتناولت بعض المآثر للبطل الهمام رستم، وظهرت أيضاً التصاوير للأحاديث العاطفية التي دارت بين الأمير خوسرو وانجميلة شيرين، وقد كان هذا إيذاناً لظهور الفنانين الموهوبين مثل الفنان بيهزاد الذي ولد عام (١٤٤٠) بمدينة حرات والذي يعد العصر الذهبي لفن المنمنمات الفارسية، فتنوعت كما احتوت زخارفها وتكويناتها على قيمة عالية تتم عن القدرة الفائقة في طريقة الصنع، والابتكار في التعبير عن المواقف مع الثراء والانسجام والدقة في اختيار الألوان، هكذا ظهرت موهبة بيهزاد فصور بعض النصوص المنتقاة مثل قصة تيمورلنك، أو رواية مجنون ليلى لتكون بداية ظهور مدرسة بيهزاد في العصر الصفوي.

الفن السوري وآسيا الصغرى:

وبعد ٥٠ عاماً بدأ الصدام يحتدم بين المغول وكل من سوريا وآسيا الصغرى، وقد ظلت سوريا في يد الأتراك حتى عام (١٢٦٠) وهم ورثة السلاجقة، ثم جاء من بعدهم الأيوبيون خلفاء صلاح الدين. وقد حكم الأتراك منطقة آسيا الصغرى فظهر سلاطين الروم وعاصمتهم كونيّه، والتي عرفت قديماً باسم Iconium وكلا الإقليمين اللذين اشتهرا بالفنون قد تأثرا تأثراً مباشراً ببلاد ما بين النهرين حيث ظهر نمط جديد من العمائر وهو المدرسة

أى المكان المخصص لتدريس العلوم الفقهية والتشريعية، وكانت بدايتها فى مدينة بغداد فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر وهى مؤسسة تعليمية تابعة للدولة وكانت تقوم بتعيين الموظفين، وللأسف لم يتبق لنا أية مدرسة من المدارس التى شيدها الوزير السلجوقى القدير نظام الملك، والمدارس الباقية تؤرخ بالقرن الثالث عشر وقد بناها الأتراك فى كل من دمشق وحلب والذين عرفوا بحميتهم فى الدفاع عن الدين، وقد ظهر التنوع فى ترتيب المدرسة السورية، وهى تتألف من القاعات المخصصة للدروس، وبعض الغرف التى أعدت لسكن الأساتذة والطلاب، ثم مصلى وقاعات للوضوء.

وكان من المؤلف أن نجد فى إحدى زوايا المدرسة قاعة مقبية أعدت لدفن مؤسسها راجياً من الله المغفرة والرحمة جزاء عمله.

كما ظهر الطراز الإيرانى أو الإيوان فى إحدى القاعات المخصصة للدرس، وقد غطى بقبو برمبلى ويفتح على الصحن بدون جدار فى الواجهة وتحتوى المدرسة الصباحية فى دمشق المؤرخة بين (١٢٣٣ - ١٢٤٥) على تخطيط منظم ينتمى لطرز العماير الدينية فى فارس، والدلهيز الذى يقع عند محور الواجهة، ويؤدى إلى الصحن المربع، وهناك إيوانان، وقاعات للتدريس تفتح على الجوانب، ثم نصل إلى الإيوان الذى غرس فى عمق المحراب، وقد شغلت الزاويتان بالمقبرة من ناحية، والقاعات المخصصة للوضوء والحمامات فى الناحية الأخرى، وشكلت هذه عمائر مدينة دمشق من الأجور وهى الخامة التقليدية فى بلاد ما بين النهرين وإيران، بينما استعمل الحجر المقطع بدقة متناهية فى مدينتى حلب ودمشق ويتمثل مع الطرز المعمارية فى شمال سوريا، وطريقة ترتيب الأحجار، والنقاوة فى الخطوط، والتوزيع الجيد للفتحات، مع استخدام بعض الزخارف النادرة مثل المثلاثات

الكروية ذات التجويفات المنحوتة في الحجر قد أعطت للعمارة السورية طابعاً بسيطاً وأنيقاً.

وهناك اختلاف واضح بين عمارة السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى وعمائر سوريا على الرغم من انبثاقهم من عائلة واحدة، وقد قام الأستاذ أ.جبريل A. Gabriel ، بدراسة عمائر مدينة قونية، وديفريك، وقيصري، ونيجدى وسيواس، وأماسيا نراها قد بنيت بطريقة مماثلة من الحجارة المرتبة ترتيباً جيداً، وقد ازدهرت المدارس في كثير من المدن التركية فوجدنا التخطيط الذى يحتوى على الصحن والإيوانات مع الفارق البسيط أن الصحن هنا قد أحيط بأروقة معمدة، كما تألفت التربة والقبر من تخطيط دائرى أو متعدد الزوايا وقد غطى بشكل مخروطى مثل القمع أو بواسطة شكل هرمى من الحجر (مثل عمائر فارس)، وتختلف الزخارف هنا عن زخارف عمائر سورية أو فارس ليس فقط من حيث العناصر الهندسية والزهرية المنفذة في سوريا وإيران، بل أيضاً في الأشكال المكدسة والمنحوتة مما غير من شكلها الأصلي، وفكرة إعادة استخدام النقش البارز في الأوراق النخيلية والوريدات التى نفذها الفرس على الخزف أو في رسوماتهم يظهر براعة الفنانين الفائقة في تنفيذ تلك الأعمال والتى ربما تكون قد تأثرت ببلاد أرمينية المتاخمة لها حيث تأثرت بها بعض الأعمال الزخرفية، ومن هنا أيضاً يمكننا فهم بداية ازدهار الطراز الباروكى الفريد في الفن الإسلامى، وابتداءً من عام (١٢٦٠) ارتبط الفن السورى بالفن المصرى ارتباطاً وثيقاً كما حكمت البلدان بسلطة واحدة، فكما ربطنا بين الفن الأسبانى - البربرى (المورسكى) لا نستطيع أن نفصل بين الفن السورى- المصرى.

الفصل الثاني

الفن المصرى والسوري

فى عام (١١٧١) استطاع الأمير الكردى صلاح الدين القضاء على الخلافة الفاطمية، وقد عرف بأنه الخصم اللدود للصليبيين وكان هذا إيذان ببداية الدور التاريخى لدولة الأيوبيين، فقد اعتبر حامى الإسلام أو جندياً من جنوده، كما استطاع الانتصار على المسيحيين مؤمناً بذلك مصر ضد أى خطر يمكن أن يدهمها ولذلك فقد قام بتأمين وتحصين مدينة القاهرة بالعمائر الحربية، وبالنسبة لسياسته الداخلية فقد أعاد المذهب السنى لاغياً بذلك مذهب الفاطميين الشيعة، وقد قام باسترداد القدس ورمم قبة الصخرة، ثم جامع عمر وهو أول مساجد الإسلام، وقد استمر الأيوبيون فى بناء الأضرحة وأجزلوا العطاء لبعض الشخصيات الإسلامية المبجلة مثل ضريح الإمام الشافعى صاحب مذهب الشافعية، وبنوا المدارس لنشر العلوم الفقهية.

وقد استمرت العمارة الدينية والجنائزية فى العصر الأيوبى فى استعمال الطرز السابقة (انظر لوحة ٣٣) وأهم ما تبقى لنا من أبنيتهم ضريح الإمام الشافعى، والثعالبة، ومقابر الأمراء العباسيين، والملك الصالح أيوب، ولم يطرأ فى طرزها أى اختلاف عن عمائر العصر الفاطمى. والمقابر تحتوى على قباب شبيهة بمقابر القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وتقع على مشارف القاهرة، وقد شكلت القبة من الطوب وتتصل بالأسطوانة

الرافعة المربعة من أسفل وهى من الحجر وتحتوى على حنيات مركبة كما شاع استخدام المقرنص، والفتحات تحتوى على قنطرة حادة أو مستقيمة وتتألف من زوايا قائمة بخطوط مائلة. وتتماثل واجهة قبر الملك الصالح أيوب المؤرخ بعام (١٢٥٠) بجامع الأقمر الذى بنى قبله بحوالى ٩٠ عامًا، كما تشابهت عمارة الأيوبيين الحربية بعمارة الفاطميين والتي جاءت من سوريا وبعض الأقاليم المتاخمة لها مع ظهور بعض التأثيرات الجديدة، فأسوار القاهرة الفاطمية فى القاهرة أخذت الطابع البيزنطى، أما قلعة صلاح الدين فهى مستوحاة من القصور المسيحية من بلاد المقدس، فظهرت الجدران ببروز ومحاطة بأبراج مستديرة، والمتاريس مقببة وكلها مستقاة من التحصينات الغربية والتي تظهر تمكن الأمراء وربما يكون قد استخدم بعض أسرى الحرب المسيحيين فى عمليات البناء، ثم انتقلت مصر لحكم المماليك من عام (١٢٥٠) إلى عام (١٥١٧)، وهم قادة عسكريون من أصول أجنبية وقد عرفت حقبة حكمهم بسلسلة من الثورات والاغتيالات والمؤامرات داخل القصر لاعتلاء السلطة.

وهناك فرقتان من المماليك البحرية وهم من أصل تركى حكموا من (١٢٥٠) إلى (١٣٨٢)، والبرجية الذين حكموا بدورهم من (١٣٨٢) إلى (١٥١٧) وبخلاف ما عرف عن تلك الفترة من القلاقل وعدم الاستقرار، وطابع الاستبداد للسلطة، إلا أنه وبالرغم من ذلك فقد نعمت مصر بالاستقرار إبان حكم المماليك، كما زخرت العاصمة بالعديد من العماثر والتي تتميز بالأنهية والرونق الذى يخطف عين الزائر لها.

العمارة الجنائزية والدينية:

شيدت العمارة الجنائزية والدينية لتكون مقابر للمماليك مثل العصر الأيوبي، وما زالت القاهرة تحتفظ بإحدى وثلاثين مقبرة من عصر المماليك البحرية، وأربع وعشرين من عصر المماليك البرجية إلا أن الكثير منها قد اندثر، وبالنسبة للمساجد فهي أقل عددًا؛ فهناك ٣١ مسجدًا يرجع للمماليك البحرية و ٢٤ للبرجية إلا أن الكثير منها قد اندثر وبالنسبة للمساجد فهي أقل عددًا؛ فهناك عشرة مساجد أقامتها المماليك البحرية، و ٢٤ للبرجية، أما المدارس فكانت أوفر حظًا، فهناك ٢٨ مدرسة من عصر المماليك البحرية و ٣٠ من عصر البرجية، ولا يعنينا هنا أن نرقم أو نوصف كل منشأة على حدة ولكننا نسعى لاستخلاص الملامح المشتركة بينها واستعراض أهم وأشهر النماذج التي ما زالت باقية، وقد وجدنا المنشأة الفردية والمجموعة المعمارية مثل مقابر المماليك الملحق بها التربة، وقاعة الدفن مربعة تحمل فوقها قبة مقامة على أسطوانة رافعة مستديرة، وأحياناً تفتح فيها النوافذ.

والإتصال بين القبة والأسطوانة يتم بواسطة المثلاثات الكروية ذات المقرنص أى التجويفات المشكلة من طوابق والأسطوانة مثمثة وتتكون من طابق مربع ذى زوايا مائلة، أو مقطعة كالدرج، وكانت تزخرف بحليات كبيرة أفقية، أو مقطعة بشكل بلورى، والقبة ترتفع من أعلى لتظهر فى هيئة العقد الفارسى أو (العقد ذو الثلاث بتلات)، وقد زخرفت بحليات محفورة ومستديرة، وأحياناً كانت تزخرف بالمتشابكات الهندسية أو الزهرية، أما النسب التى تشغلها الزخرفة فهي عريضة نسبياً وترقق أكثر فأكثر، والقبة فى مجملها زينت بزخارف من تفريغات الأرابيسك مما أضاف لمقابر الأمراء الطابع الجنائزى.

كما استمرت عمارة المساجد على نفس الطرز السابقة مثال جامع ببيرس الأول المملوكى وهو أول جامع شيد عام (١٢٦٦) فى القاهرة وبه أكثر من ملمح من عمارة جامع الحاكم الفاطمى والذى تأثر بدوره بجامع ابن طولون، وقد تهدم أكثر من ثلاثة أرباع جامع ببيرس، وكان يحتوى على سور مربع يبلغ طول ضلعه حوالى مائة متر، والصحن محاط من جوانبه الثلاثة الجانبية والأمامية برواقين أو ثلاثة أروقة، وقاعة الصلاة كانت تتألف من ست بواكى مستعرضة والتى تقطع من وسطها بواسطة ثلاث بواكى باتجاه العمق بدلاً من بائكة واحدة مثل (جامع الحاكم) كما أنها تتصل بمساحة مربعة تسبق المحراب الذى غطى بقبة، وقد وجدنا الكثير من التفاصيل المتنوعة التى ترجع للطرز الفاطمية والتى تظهر بوضوح مثل الأساطين المصنوعة من الأجور وقد أدمجت فى زوايا الأعمدة العتيقة أو المستقاة من عمائر قديمة وليس كأشباه الأعمدة المجمععة فى جامع الحاكم وابن طولون، كما يحتوى جامع ببيرس على ثلاثة مداخل مثل السقيفة التى تخرج ببيروز ومزخرفة بالنيشات مثل جامع الحاكم، وترتيب الجامع الذى يحتوى على صحن محاط برواق مسقوف على أعمدة، والقاعة المعمدة، والبواكى المستعرضة هى النمط السائد فى مصر حتى القرنين الرابع والخامس عشر، وقد استمر هذا النمط سائداً فى عصر المماليك البرجية حتى آخر جامع بناه السلطان المؤيد عام (١٤٢٠) فى مكان ملاصق لأحد الأسوار الفاطمية المجاورة لباب زويلة، والقاعة الواسعة المربعة تحيط بها ثلاث بواكى مزدوجة وثلاث بواكى موازية لجدار القبلة أى قاعة الصلاة حيث توجد المقابر المقبية عند نهاية أطرافها، ويحتوى الجامع على مؤذنتين شيدتا أعلى الأبراج المحيطة بباب المدينة.

وإضافة المقبرة للبناء قد قلل من مساحة قاعة الصلاة وهى إحدى ملامح تطور العمارة الدينية حيث أصبحت المقبرة من أهم مكملات العمارة الدينية ومن الأولويات بالنسبة للأمرء فى تلك الفترة، وعلى الرغم من اختلاف الترتيب فى تلك العماثر فكلها جنازية، ومن أبدع وأغرب العماثر الجنازية مسجد السلطان قلاوون المؤرخ بعام (١٢٨٥)، فهو يتألف من مجموعة معمارية؛ البيمارستان (المستشفى) وقد زالت معظم معالمه تقريباً، ثم الجامع وملحق به الخلايا المخصصة لإقامة الطلاب ويمكن أن تستخدم كمدرسة أيضاً، ثم ضريح السلطان قلاوون وقد ظهرت فى هذه المجموعة الكثير من الملامح المعمارية السورية المسيحية والإسلامية معاً مما أعطى لمجموعة قلاوون طابعاً مميزاً، فالواجهة ملئت بسلسلة من التجويفات فى شكل عقود حادة تقطع بينهما دعائم الكتف المرتفعة على الأعمدة، وقاعة الصلاة تفتح على البائكة الوسطى ومحاطة بملحقين، قبة القبر مستوحاة من قبة الصخرة فى القدس، والمدرسة التى أقامها قلاوون من الأنماط غير المألوفة لاحتوائها على كثير من التأثيرات المعمارية الغريبة والتى استمرت لقرن من الزمان تستهويناً لدراسة أساليب المعماريين المصريين، وقد لاقى هذا الطراز نجاحاً كبيراً فى المسجد- المدرسة المعروفة باسم مدرسة السلطان حسن والمؤرخة بعام (١٣٥٦)، ولكى نفهم تخطيط هذا المسجد- المدرسة ليس من المهم معرفة البرنامج المخصص له، فالمدرسة قد خصصت لتدريس العلوم الفقهية والدينية أى شرح مصادر القرآن والعلوم النبوية والتى أخرجت التشريعات المختلفة وهناك أربعة مذاهب نشرت فى القرنين الثامن والتاسع، وقد أسست المدارس فى شتى ربوع الإسلام وأحياناً كانت تخصص لمذهب أو للأربعة مذاهب معاً.



لوحة (٢٥) لوحة مؤلفة من بلاطات مربعة الشكل من الخزف - فارس
القرن السابع عشر

والمذاهب الأربعة هي المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة، وقد خصصت المدارس لتلك المذاهب، فوجدنا مدرسة لمذهب ولمذهبين أو لثلاثة أو لأربعة مذاهب مثل مدرسة السلطان حسن ذات التخطيط المربع أعد لتدريس المذاهب الأربعة، وقد شيدت هذه المدرسة على سطح غير مستو، ومنحدر إلا أن المهندس المعماري قد تغلب على هذا العيب وإخرج تخطيط متوازن من الداخل مع الرفعة والضخامة والفخامة من الخارج، والمدخل يسبقه سلم يوصل بين السطح غير المستوى والمنحدر، ثم إلى دهليز مكشوف يوصل إلى ممر آخر يؤدي إلى الصحن، والصحن يميل إلى التربع، وهناك إيوان مغطى بقبة برميلي بارز ويفتح من جوانبه الأربعة، والإيوان الذي يجابه المدخل أكثر اتساعاً من الإيوانات الثلاثة، والمحراب يحدد القبلة، ويرتفع في وسط الرواق المنبر المقام على أعمدة صغيرة حيث يجلس قارئ القرآن كما يقف المؤذن ليؤم المصلين الذين يقفون من ورائه مرددين للتضرعات والابتهالات، وهناك بابان مغروسان على جانبي المحراب لربط المصلي بالقاعة الكبرى المقبية التي دفن بها صاحب المدرسة.

والإيوانات الثلاثة تحتوى على نفس المقاسات وتطل كلها على الصحن، ويمكن أن تستخدم لإعطاء الدروس للطلاب الذين يسكنون في أركانها الأربعة، وهناك أربعة أبواب تطل على الساحات الصغيرة، والغرف، وقاعات الوضوء، والحمامات الملحقة بها والتي تتألف منها الأربع مدارس، كما تتفتح الأبواب الواقعة على يسار ويمين الإيوانات الجانبية، ويلتف شريط كتابي مزخرفاً كلا الإيوانين ومحددًا لكل مذهب من المذاهب التي تدرس فيها فوجدنا المدرسة المالكية، والحنفية، والشافعية ثم الحنبلية، والعبرية في

المدرسة المتعامدة ذات الصحن المركزي والإيوانات الأربعة المخصصة لتدريس المذاهب الأربعة كانت مجالاً للجدل فالأستاذ ماكس فان برشم Max Van Berchem قد أرجع أصول هذه المدرسة لمنطقة سوريا أو لبلاد ما بين النهرين حيث شيدت أولى المدارس في الإسلام، أما الأستاذ كرسويل Creswell فقد اعترض على صحة هذه النظرية حيث قام برفع تخطيطات المدارس في سوريا، ووجد فيها الإيوانات كما أشير إليها من قبل إلا أن التخطيط لم يكن متعامداً، وفي بغداد حيث توجد المدرسة المستنصرية والمؤرخة بعام (١٢٥٢)، والتي أعدت لتدريس المذاهب الأربعة يظهر تخطيطها في شكل إيوانات تتفتح على الصحن المستطيل ولكنه غير متعامد، ولم يظهر التخطيط المتعامد لتدريس الأربعة مذاهب إلا في مصر في عام (١٢٤٥) في المدرسة الناصرية التي بناها أجد السلاطين المماليك وقد هدمت الآن، وهكذا أكد الأستاذ كرسويل على ضرورة البحث عن أصول المدرسة المتعامدة في مصر في تخطيط المساكن الخاصة وليس في العمائر الدينية حيث تحولت تلك المساكن لمدارس عامة على يد المدرس الذي كان يقطن بها، وأحياناً كان المالك يهبها كوقف خيري للتدريس فيها بعد وفاته، إلا أننا لم نعثر على أى سكن من عصر المماليك أقدم من المدارس المتعامدة ونفترض أنها كانت تحتوى على إيوانات تتفتح على الصحن أو على قاعة مركزية، وبالنسبة للمنازل في العصر الطولوني فكانت تحتوى على صحن تحيط به أربعة إيوانات ويسبق أحدهما بأكية وهكذا أصبح لدينا تصور افتراضى لتخطيط المدارس في مصر، والمنشأة التعليمية التي ندرسها الآن يظهر فيها تطوير عظيم للمدرسة حيث استوعبت الكثير من الطلاب وكانوا

يستطيعون السكن فى الغرى المقامة فى جوانب المدارس الأربعة، وقد ثقت فى النوافذ فى الدخالات المرتفعة التى تزخر بالواجهة الجانبية وتساعد على إضاءة الحرات، وهناك كورنيشة من المقرنصات والزخارف الحبيبية فى الجدران، ومئذنتان ترتفعان فى أعلى مقدمة البناء المستدير لتؤكد الدور التعليمى الذى أنشئ الجامع من أجله.

وهذا الطراز المعمارى الذى يؤلف بين المقبرة والمدرسة والمسجد ذى المئذنة قد زاد عليه عنصر مزدوج ليفى بالغرض الدينى المقام لأجله وهو السبيل للعامة، و(كتاب لتعليم الأطفال حفظ القرآن) وقد التحما ببعضهما وعرفا باسم (السبيل - كتاب) وهكذا بدأ المسجد - المدرسة يفقد دوره تدريجياً مما أثر على تخطيطه فيما بعد، ويعد جامع قايتباى المشيد عام (١٤٧٢) من أهم النماذج التى استخلصنا منها أهم ملامح تلك العمارة، ومن الباب نصل إلى سلم به ١٤ درجة ويفتح بين قاعدة المئذنة والسبيل - كتاب الذى يقع فى زاوية المبنى، وإذا ما اجتزنا المدخل نمر بدھليز أو ممر إلى داخل الفناء المركزى، وهو مربع الشكل ومغطى بقببية مئذنة أو (فانوس صغير) يسمح بمرور الضوء السماوى منه، وهناك إيوانان يفتحان على الواجهات الجانبية لهذا الفناء المغطى وتتسم الإوانات بالارتفاع ولكنها أكثر عرضاً وأقل طولاً، كما لم يتبق من الواجهات الأمامية والخلفية، والإيوانين ذوى التخطيط المتعامد سوى عقود الواجهات، وكلا العقدين المبنين بالحجر يطلان على قاعتين للصلاة أكثر عرضاً وأقل عمقاً وقد غطيتا بواسطة الأسقف المرسومة، وفى عمق القاعة الشرقية غرس المحراب بجانب المنبر، وهذا التحول فى التخطيط المتعامد (قد قلل من حجم الإوانات الجانبية، وزاد من

اتساع الإيوانين الآخرين وقد ظل عنصر الإيوان محتفظاً باسمه الفارسي وطرازه المصري) فتارة يتأثر بالعرض الدينى المشيد له وأحياناً بالأغراض الإنشائية التى تفرض عليه.

وقد اقتصر دور المسجد -المدرسة على إقامة شعائر الصلاة فقط كما زاد عرض قاعة الصلاة لتلبى احتياجات إقامة الشعائر، ونتيجة لنقص أخشاب الهياكل المستخدمة فى عمل القوالب الخشبية النصف دائرية فى الأقبية الحجرية قد استبدل بالأسقف، وترتكز الأسقف على جدران متصلة بالقاعات وتحتاج فقط لكمات أو لروافد خشبية أقل غلظة للتخفيف من الأوزان، وداخل جامع قايتباى الجنائزى رسمت الأسقف، ووجدنا الزجاج الملون، وترصيعات من الرخام ومن التبليطات التى تكونت منها مجموعات غاية فى الروعة، ومن الخارج نجد ترتيب الحجارة فى المدماك بألوان يتداخل فيها الأحمر والأبيض بالتناوب، ودخلت عمودية زخرفت بها المقرنصات، والفتحات الموجودة فى مدارس تعليم القرآن، والمدخل ذو الارتفاع الشاهق قد زاد من ثراء الواجهات وحافظ على التوازن بين القبة والمئذنة، وسبق أن شرحنا تكوين تلك القباب من هذا النوع التى تحتوى على شكل العقد الفارسي، وعلى زخارف الأرابيسك، وعلى أسطوانة رافعة ذات أهداب مقطعة تصل بين السطح المستدير والمربع، والمئذنة ذات طابع مألوف؛ فالقاعدة مربعة ومجردة من أى نقش ثم أضيفت لها حلقات بارزة وبرج مئمن تحف به الشرفات والنيشات المسطحة من الداخل التى توجت بها الشرفة ذات المقرنصات، ثم يرتفع برج برميلي آخر تعلوه شرفة تنتهى ببرج صغير مزجج يرتفع على أعمدة صغيرة وقد غطى من أعلى بقبة مبطنة، وهذا النمط الفريد فى مآذن القاهرة يحتوى على ثلاثة أنظمة من الأبراج

المصطفة فوق بعضها فى صورة ناطقة تظهر فيه الخرجات والحواجز المفرغة فى شكل مغاير عن مآذن دمشق، وسامراء، وفارس وبلاد المغرب، وقد ظهر هذا الابتكار المعمارى المصرى الخالص فى مآذن العصر المملوكى والذى مازلنا نجهل أصوله إلى الآن، كما أن محاولة إرجاع أصوله لفنار الإسكندرية لا يوجد ما يؤكد من دلائل، أما مؤذنة جامع الجيوشى الفاطمى المكونة من ثلاثة أبراج اثنين مربعين، والثالث مثنى، وتحمل من أعلى قبة نصف كروية ربما تكون البدايات لطرز المآذن المملوكية التى ظهرت بعد قرنين من الزمان، إلا أن تلك النظرية مازالت تحتاج لقرائن، والمآذن، والأقبية، والواجهات المؤلفة من الحجر الذى يحتوى على درجتين من اللون، والدخلات والفتحات كلها من الطرز المملوكية والتى تألفت فى مجموعة العماائر الخاصة بقايتباى، ليظهر بها طابع مميز، وهيئة رائعة من روائع الفن الإسلامى، والذى يشهد على الذوق الرفيع لأصحاب العرش، كما ظهرت مقابرهم فى أجل صورة والتى أدمجت مع مساجدهم ومدارسهم وألحقت بالبيمارستان مثل (مجموعة قلاوون)، كما ألحقت مع كتاتيب تعليم القرآن والسبيل، ثم الخانقوات لإقامة الدراويش فيها والتى يرجى منها أن يتقبل الله عمل صاحبها وتنزل الرحمة على روحه .

العمارة المدنية:

شيد الأيوبيون والمماليك الكثير من القصور والتى زال معظمها الآن، وقد استطاع بعض علماء الآثار الفرنسيين الذين جاءوا مع حملة بونابرت تسجيل ما بقى منها فى منطقة القلعة بالقاهرة، وقصر الهواء الذى شيده صلاح الدين، ورممه بيبرس ثم من بعده قلاوون، وكان القصر يتألف من

قاعة ذات قبة كبيرة محملة على اثني عشر عمودًا وقد أعدت لتقام فيها مراسم الاستقبال، ثم قصر نجم الدين في جزيرة الروضة، والقاعة الرئيسية هنا تحتوي على جزء مركزي تحمله أربع مجموعات مؤلفة من ثلاثة أعمدة، والأروقة تلتف حول الصحن المربع، ومن الشمال والجنوب غرس إيوانان غير متساويين بعمق مما أعطى للبناء شكلاً مستطيلًا، كما توجد نيشتان على الجانبين الشرقي والغربي يظهر فيهما التخطيط المتعامد (انظر E.Pauty).

والتخطيط المتعامد، والإيوانات ذات التجاويف الغائرة والملحق بها حجرات وأحيانًا تستبدل بتجويفات جانبية بصالبة تتميز بالمدخل الذي يتميز بارتفاعه وقد غطيت بقبة أو فانوس مزيج ينفذ منه الضوء، وقد عرف هذا التخطيط "بالقاعة" التي تقع في الدور الأول في دور السكن المصرية من العصر العثماني، وقد ظهرت القاعة في قصر يشبك، وقصر بشتاك، وكان الصحن مع المقعد يقعان قبل الجزء المغلق وقد احتفظت القاهرة بإحدى هذه الطرز من القرن الخامس عشر، والتخطيط المتعامد قد استخدم بكثرة في الحمامات ومازالت القاهرة ودمشق تحتفظان ببعض الحمامات من العصر المملوكي والبعض يرجع لتاريخ أكثر قدمًا.

وقد استقى الترتيب في الحمامات من الحمامات القديمة؛ فهي تتألف من ممر مكوع يؤدي إلى غرفة لخلع الملابس أو للاستراحة، وتتكون من قاعة مركزية زخرفت بواسطة فسقية، وهناك فانوس صغير للإضاءة، كما فتحت بالغرفة إيوانات على أرضية مرتفعة حيث يستطيع المرء أن يستلقي على بعض المراتب الملقاة على تلك الأرضية، ثم ممر آخر يوصل إلى القاعة الفاترة المخصصة للتدليك، وهي تتكون من مسطح مركزي مغطى بقبة وتلف

حولہ الإیوانات المتعامدة، ثم نصل إلى حجرات التجفیف التي احتوت فی كثير من الأحيان على زخارف نفذت بمنتهی الدقة.

وهذا يتوافق مع العمائر المدنية مثل (الخان والوكالة) كما اعتبرت هذه المنشآت أحياناً من أعمال البر، فقد أراد الأمير صاحب المنشأة أن يقدم لآخرته كما عمل لدنياء فأحاط نفسه بمظاهر الأبهة، وقد احتفظت لنا مدينة مصر العتيقة بإحدى هذه الوكالات التي تحتوى على صحن واسع محاط بحجرات خصصت لإقامة التجار الوافدين إليها، وبها أماكن خصصت لماشيتهم وأخرى لحفظ السلع التي جاءوا بها للمتاجرة، كما اصطفت الدكاكين فی واجهتها، وتعد وكالة قايتباى من أجمل عمائر هذا العصر.

الزخرفة:

تميزت العمارة الأيوبية والمملوكية بالألوان على الرغم من تأثرها الواضح بعمارة الفرس الحديثة، وقد استخدمت الزخارف المكونة من التليبيسات الخزفية فی مصر برصانة شديدة مقارنة ببعض زخارف التكسية فی عمائر تبريز وسمرقند التي ظهرت مصطنعة، وقد استخدمت الصفائح المصنعة من الخزف فی التكسية مؤخرًا، وظهر الميل إلى استخدام الألوان الطبيعية من الأحجار، والرخام، والفخار، والدهانات الملونة حيث أضافت نوعاً من الثراء الخارجى فظهرت البساطة فی تعدد الألوان ليسود اللون الداكن والأحمر والأسود، والواجهات مخططة بواسطة ترتيب لونين من الأحجار بالتناوب فی الجدار، ومفاتيح العقود احتوت على درجتين من الألوان وقد قطعت وتداخلت مع بعضها مثل قطع لعبة الشطرنج، كما أضاف

تداخل الخشب بلونه البنى نوعاً من الدفء فأضفى الانسجام على الزخرفة، والأسقف من الداخل قد دهنت وذهبت بعناية فائقة، ومن دراستنا للعمارة استطعنا التعرف على أهم معالم الأشكال الزخرفية، كما اتسم بعضها بالتنوع والذي ظهر في العقود، فاستخدم العقد الكامل في الفتحات الصغيرة، وكان التخطيط الأكثر شيوعاً العقد الحاد (واحد من ثلاث نقاط) والعقد الفارسي (العقد ذو البتلتين) والعقد المستقيم.

وقد تأثر العقد الحاد حتماً ببعض التيارات التي جاءت من عمائر سوريا المسيحية والقوطية والتي ذاع استخدامها في العصر الفاطمي، وقد نقل مدخل مدرسة الملك الناصر محمد من كنيسة القديس سان جون بعكا Saint-Jean d'Acre، وكل من العقد الفارسي والعقد المستقيم (شكلاً بواسطة خطين مستقيمين بميل) وقد شكلت منهما العقود الرأسية في النيشات من العصر الفاطمي، أما التضييعات التي تشع من الداخل قد قطعت بأشكال مسننة، وقد ظهر الناجح الجرسى المقلوب الذي جاء إلى مصر في العصر الطولوني، وهو محمل على أعمدة في الزوايا المحاطة بها النيشات والمحاريب، أما المقرنص فيتكون من تجويفات مقوسة أو من بعض الأشكال الموشورية الرتيبة والتي استخدمت في الكثير من العمائر المتنوعة كما استخدم المقرنص وشكلت منه الكورنيشات كاملة وفي أعلى التجويفات الخارجية للتخفيف منها، كما ساعد في الانتقال بين الجدران العمودية والقباب، والقباب النصفية ذات التضييعات في النيشات، واستخدم المقرنص أيضاً كعنصر يحمل عليه طنف الشرفة، وقد ظهرت هذه العناصر في مداخل بعض المجموعات المعمارية الدينية والمدنية والتي أصبحت من أهم ملامح العصر الأيوبي والمملوكي في مصر، فتطورت الواجهات من أسفلها لأعلىها وظهرت هذه التكوينات الجديدة في

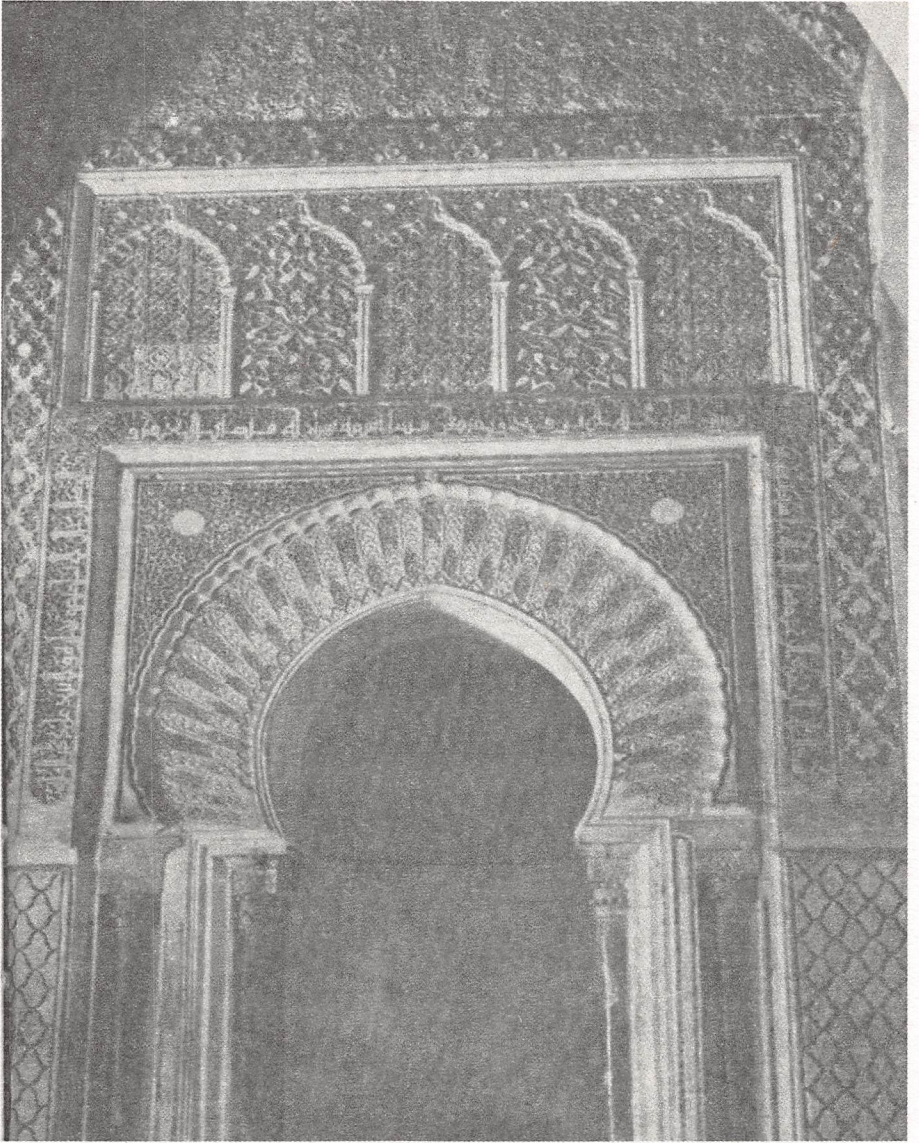
أبهج وأحسن صيغها وأكثرها توفيقاً، والباب من أعلى متوج بعتبة مستقيمة وتتألف من صنجات وقطعة من الحجر الغليظة المزخرفة بالأرابيسك التى غطت المساحة المستطيلة كاملة، ومن أعلى العتبة يلتف عقد التحميل الموتر مع لينات العقد المؤلف من بعض التقطيعات غير المألوفة، وقد غرس فى الجدار الذى يحمل هذا العقد ويحتوى على شبابيك بها حواجز من المشبكات التى تسمح بمرور الضوء داخل الدهليز، والإطار الذى يحتوى على الكتابة يمتد ليشغل أعلى الواجهة، وأحياناً يستخدم كقاعدة يصطف عليها المقرنص الذى يحمل القبة النصفية المضلعة، وقد ظهر الشريط الكتابى كالطنف يتوج أعلى المدخل، وهذا التكوين الرأسى يتصل بالواجهة التى تحتوى على (إطارات زخرفت بالكتابات والحليات ... إلخ)، وقد ظهرت فيها الأبعاد فى انسجام وتوازن، وقد شكلت العناصر الخطية للزخارف من الكتابات، والعناصر الهندسية والزهرية والتى وجدناها فى أقاليم أخرى من العالم الإسلامى، كما ندر استخدام الخط الكوفى فيما عدا الكوفى المربع الذى استعمل فى الزوايا وقد استقى فى أغلب الظن من بلاد فارس، كما زخرفت به المساحات التى احتوت على بعض الأدعية التقليدية، أما النصوص الدينية والتاريخية فقد كتبت بالخط النسخى، ووجدناها فى الأطراف، والأفاريز والإطارات العريضة والتى ملئت فراغاتها بالعناصر الزهرية، وقد احتوى إيوان الصلاة فى مدرسة السلطان حسن على زخرفة بديعة من هذه النماذج، كما لم يظهر تجديد فى عناصر الزخارف الزهرية، وبدأ سجل الزخارف الزهرية محورة ولا تحاكي الطبيعة، فالورقة النخيلية المثلثة احتوت على فص أو فصين، وأطرافها مدببة ومقوسة، والوريدة بها ثلاث بتلات، وكل هذه العناصر النباتية المحزوزة ذات عروق، وقد ملئت بزخارف من الألعاب المركبة للتكيف مع العناصر الحلزونية المؤلفة من الأغصان، أو الأشرطة

ذات المنحنيات المتمائلة، وقد نفذت على مساحات مصغرة، كما أن الإطارات الصغيرة بالمتشابكات الهندسية، وعنصر المتشابكات الهندسية الذى ظهر فى العصر الفاطمى قد شهد تطوراً مذهلاً فى عصر المماليك، ليس فقط من ناحية استخداماته المتعددة، بل تنوعت خاماته وأشكاله الثرية والتى انفرد بها عن الأقاليم الإسلامية الأخرى، وقد تناول الأستاذ جوليس بورجوين Jules Bourgoïn من خلال مؤلفين كلاسيكيين له تحليل الرسم الإنشائى للمضلع، فكان المعمارى يبدأ فى تقسيم محيط الدائرة إلى ٣ أو ٤ أو ٥ أو ٦ أو ٧ أو ٨ أو ٩ أو ١٠ أو ١٢ أو ٢٤ جزءاً، وقد ساد المضلع فى جميع الزخارف المبتكرة من العصر المملوكى فى مصر وسوريا، كما انتشر فى العمائر وفى زخارف الأثاث.

وقد نفذت هذه الزخرفة فى مساحة محدودة، كما ظهرت زخارف وعمائر تلك الفترة متألفة فيما عدا مدرسة السلطان حسن التى أعطت عمارتها سمة القوة، كما لاحظنا بعد الأسلوب عن التصنع والتكلف.

فنون الأثاث:

تعد فنون الأثاث من أهم المجالات التى ظهر فيها الترابط بين كل من مصر وسوريا فى هذا العصر حيث احتاج النجارون إلى جلب الأخشاب والهيكل الخشبية من لبنان والهند، مما أدى إلى قيام التبادل بين كل من السوريين والمصريين فظهرت بعض قطع الأثاث المتشابهة، وكانت الأخشاب تقطع إلى عيدان ثم تجمع لعمل المتشابكات الهندسية، كما ملئت اللوحات بالمضلعات ويرجع هذا الأسلوب للعصر الفاطمى، وكان الفنى يقوم بخرط الخشب لعمل الحواجز الخشبية والتى نفذت منها بعض الأعمال فى العصر الفاطمى، و(مقصورة القيروان ومنبر الخليل).



لوحة (٢٦) تفاصيل الزخارف الموجودة داخل المقابر السعدية

وهذا النمط من الأعمال الخشبية قد عرف في مصر تطوراً كبيراً وخاصة شرفات المنازل ذات الحواجز (أى المشربيات) والأخشاب المقطعة، والمنحوتة، والمجمعة والمرصعة وقد استخدمت فى عمل النصب التذكارية وشواهد القبور المشكّلة فى هيئة الخزائن التى يغطى بها القبر مثل مشهد الإمام الشافعى، وبعض السلاطين المماليك، كما استخدمت فى بعض المنابر التى تحتوى على سلالم، وتؤلف من باب بمصرعين تؤدى إلى أعلى المئذنة وتنتهى بظلة العرش، ويعد منبر قايتباى من أبدع القطع المحفوظة الآن فى متحف فيكتوريا وألبرت بلندن.

وهناك أيضاً الكراسى والمنابر التى استعملها المدرسون فى المساجد وقد شكلت على هيئة مقاعد منخفضة وملحق بها المكتب، كما وجدت الموائد والخزائن الخشبية الثمينة لحفظ القرآن.

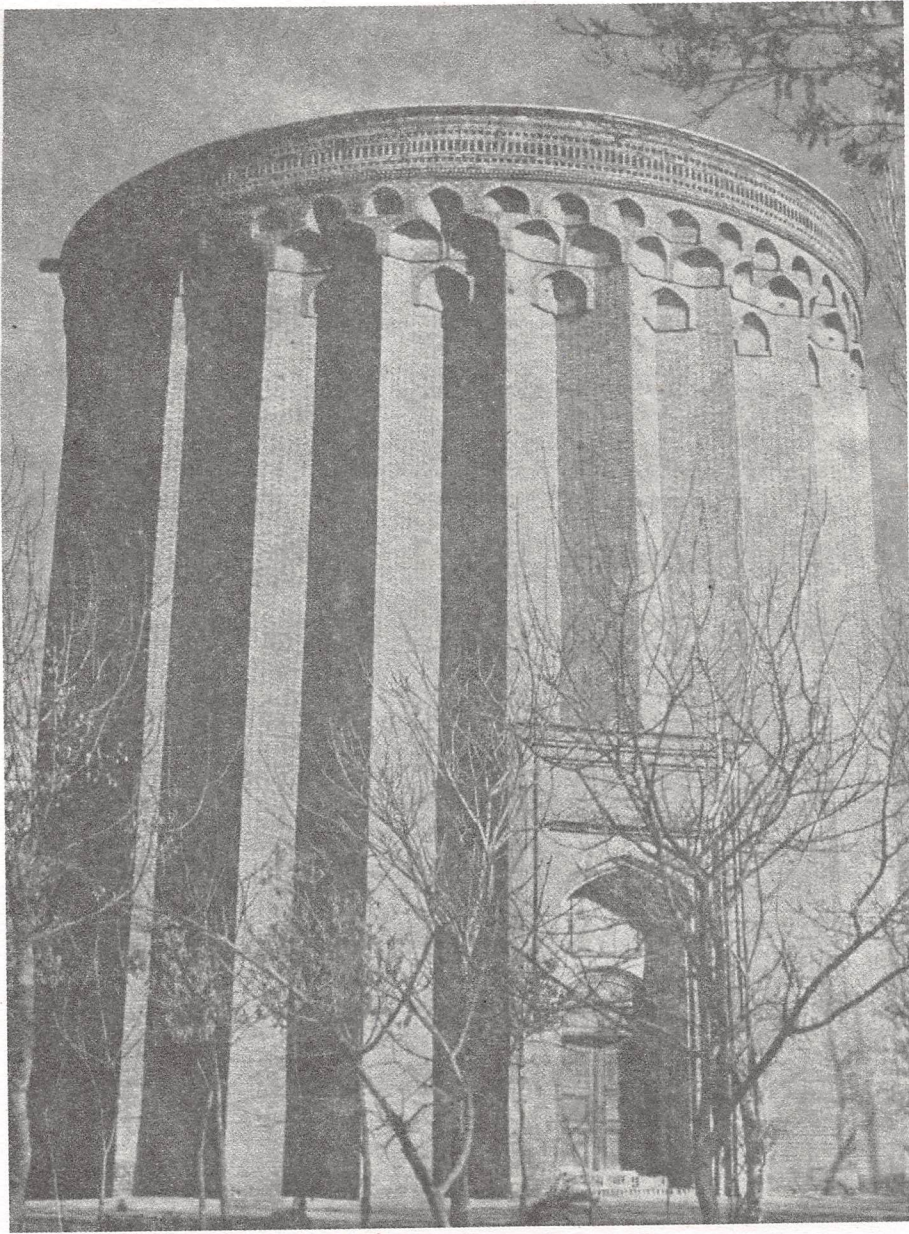
الخزف:

والخزف الذى يعد من مفاخر صناعة الأثاث فى العصر الفاطمى، ظل مستخدماً فى العصر المملوكى فيما عدا الخزف ذى البريق المعدنى الذى توقف ولم نعد نجده فى مصر، كما تقلصت كفاءة التقنيات فى دور الخزافين المصريين، وعرف الخزف المغطى بالدهان ورسم عليه باللون الأسود والأزرق كما كسى بطبقة من الدهان المزجج الذى يساعد على حفظه، وقد وجدنا بعض تلك القطع الخزفية المصنعة فى القاهرة تحتوى على توقيع

صانعيها وتشير إلى أصولهم الآسيوية، ومن أشهرهم "جايبى" ويقال إنه من عائلة سورية وولد بتبريز، ومن الألوان المستخدمة فى كساء الخزف؛ الأخضر الفاتح الزيتى الذى يوحى بطابع الشرق الأقصى، ومن التقنيات التى انتقلت من سوريا إلى مصر؛ الخزف المنقوش أو المختوم بدون طلاء أو الملون بالمينا البنية، والمينا الخضراء أو الصفراء، وهى من القطع ذات الاستخدامات اليومية، كما احتوت على بعض الشعارات الخاصة بالأمراء المماليك وقد نفذت فى القطع الزجاجية أيضاً.

الزجاج:

وإذا كانت الكثير من الأدلة أفرت بوجود دور صناعة الخزف فى مصر إلا أن هذا لا ينطبق على الزجاج، فقد وجدنا الكثير من القطع التى تحمل أسماء الحكام مثل مصابيح المساجد ذات الرقبة الواسعة، وبطن الأنية المخروطية وبها حلقات تتدلى منها وترتفع على قدم واسعة، وزجاجات وقنينات ذات عنق طويل وقد زخرفت بعناصر زخرفية وكتابات وشعارات النبالة التى خطت بالريشة وطلبت بالمينا واللون الذهبى (انظر لوحة ٣٢).



لوحة (٢٧) برج جنازي من رافي

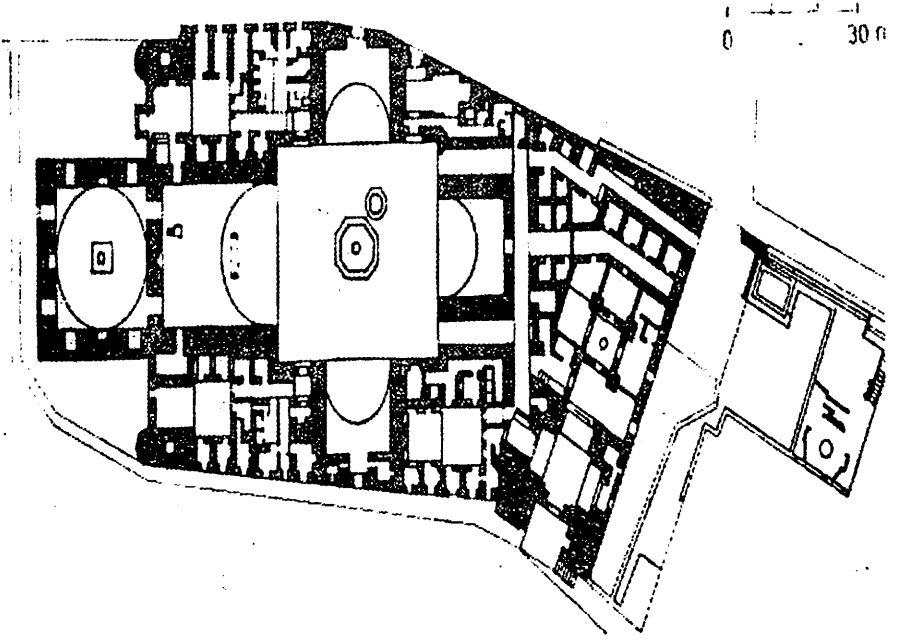
وكل هذه القطع قد صنعت للأمراء المماليك وتحمل شعارات النبالة، ونعتقد أنها صنعت في سوريا، أو صور، أو دمشق وربما حلب، ونستطيع أن نؤرخ تطور التقنيات في صناعة الزجاج في سوريا وفي بعض الأقاليم الأخرى بنهاية القرن الثالث عشر الذي يتزامن مع استرداد القدس على يد المسلمين، وببداية القرن الخامس عشر حين نقل تيمورلنك جميع الصانع والفنانين المهرة من الدول التي استولى عليها إلى سمرقند.

صناعة النحاس:

وهذه الصناعة ذات أصول آسيوية وتعد الموصل ودمشق من أهم مراكز هذه الحرفة، وقد نقل النحاسون في سوريا والعراق حرفتهم إلى مصر، ويحتفظ متحف اللوفر بحوض مؤرخ بعام (١٢٨٥)، صنع في مصر ويحمل إمضاء فنان من الموصل، كما يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بقطعتين من النحاس صنعتا في مصر وعليهما إمضاءات فنانين من بغداد.

وبخلاف الثريات ذات الأشكال المختلفة، وبعض قطع الأثاث التي خرجت من دور الحرف مثل الشمعدان ذي القواعد المخروطية، والمحابر، وعلب مستطيلة بها خانات لحفظ ريش الكتابة المصنعة من البوص، والأجبار والرمال، وبعض الأحواض ومن أشهرها حوض المعمدية لسان لويس والمحفوظة حاليًا في متحف اللوفر (انظر لوحة ١٩) والصوانى، والأوانى، والأقداح السحرية التي كانت تستخدم للوقاية من الآلام المختلفة.

وزخارف الأعمال النحاسية كلها إما منقوشة أو مكفّة بالذهب أو بالفضة كانت تحتوى على كتابات وعناصر زهرية، وقد ظهرت الزخارف ذات الوجوه الأدمية والحيوانية أيضاً، وتدل هذه الأعمال على الروح الاصطفائية والمتسامحة لأصحابها، فوجدنا حوضاً ضخماً عليه اسم ولقب الملك الصالح أيوب سلطان مصر وسوريا وقد زخرف بمناظر مستوحاة من الإنجيل، كما احتوى أحد الشمعدانات المؤرخ بعام (١٢٤٨) الذى صنعها أحد الفنانين الموصليين على مناظر من حياة السيد المسيح، وقد وصلت إلينا بعض الأسلحة البديعة من عصر المماليك وخاصة الخوذ ذات القحف المدبب، والسيوف ذات الشفرات المنحنية إلا أننا لا نعتقد أنها صنعت فى مصر؛ ذلك لذيوع شهرة دمشق فى هذا المجال منذ أمد بعيد، والأقمشة المؤرخة بالقرنين الثالث عشر والرابع عشر أيضاً مازلنا غير متأكدين من مصدرها، وقد عرفت أوروبا فى عصر الصليبيين القماش الدمشقى بروكار المنسوج بخيوط من الذهب والفضة والذى كان يخلط أحياناً بالأنسجة الحريرية المصنعة، مثلما عرفت السيوف والنحاس (الدمشقى)، والقماش (الموصلى) أو الموسلين الذى يجلبونه من الموصل، وصل إلى أوروبا عن طريق الموصل، ونحن نعلم من ناحية أخرى أن صناعة النسيج من أقدم الحرف التى عرفتها مدن الدلتا فى مصر، كما تأثرت ببعض التقنيات فى صناعة النسيج من آسيا الصغرى، وهناك الأقمشة المطبوعة بواسطة القالب الخشبى والتى عثرنا على أمثلة منها فى المقابر المصرية القديمة، والتطريز بالحرير على الأقمشة الكتانية، والأقمشة المنسوجة بواسطة النول، باستثناء الدمشقى أو البروكار الذى طرز عليه أسماء السلاطين المماليك، فقد صنعت منها الملابس إلا أنها أقل ثراءً من الأقمشة الفاطمية.



شكل (٥) تخطيط لمسجد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة.

الفصل الثالث

الفن الإسباني والمغربي

بدأ الانقسام يدب في أركان إمبراطورية المهاد الإفريقية والإسبانية الشاسعة في النصف الأول من القرن الثالث عشر لتتقسم إلى أربع دويلات ظلت منتعشة لمدة ثلاثة قرون، في الوقت الذي ظهرت فيه علامات الوهن على إسبانيا المسلمة بعد الحملات المسيحية الضارية عليها. وقد ظلت مملكة الناصريين منتعشة وهم الذين شيدوا قصر الحمراء الشهير بغرناطة، وفي تونس ظهرت مملكة الحفصيين وهم الورثة الشرعيون للمهاد، وادعوا لأنفسهم هم والقبائل القديمة الذين جاءوا من جنوب مدينة وهران كما أصبحت مدينة تلمسان عاصمة للزيدية أو عبد الوديد ومدوا سلطانهم حتى الحدود المغربية بالقرب من مدينة "بيجاية" في الوقت الذي تزامن فيه اعتلاء أقاربهم من "الميرينيين" العرش في المغرب وجعلوا فاس عاصمة لهم، ويعد "الميرينيون" من أهم الأسر التي عرفت بقوتها وثرائها، وقد استعادت المغرب مكانتها في عصر المهاد الذين قاموا بحملات على إسبانيا وسيطروا على جميع قبائل البربر خلال عدة سنوات، وهكذا عاد الإشعاع الحضاري ليسطع بنوره على بلاد المغرب والأندلس.

العمارة الدينية:

لم يتبقَّ في إسبانيا أى مسجد من تلك الحقبة الزمنية، ولذلك كان لزاماً علينا أن نبحث عنه في شمال أفريقيا. وقد اختصرت العماثر من مساحاتها، كما ظهر التخطيط مبسطاً عن مساجد المهادر في كلٍّ من مراكش والرباط وإشبيلية، وظهرت بعض الملامح المعمارية القديمة في القبة المحملة بواسطة الأضلاع والموجودة إلى الآن في جامع طازا الكبير، كما يسبقه جامع مؤرخ بالقرن الثاني عشر والجامع الكبير بفاس الجديدة، وكلتا العمارتين تعدان وصلة الربط بين طراز المهادر وطراز الميرينيين، والتخطيط لمساجد المهادر نجد فيه الصحن المستطيل والعريض، والبواكى غطيت بالأسقف وبالقمرميد وكلها تتجه بعمق، وقد وجدنا في جامع طازا ٩ بواكى، و٧ بواكى في فاس، وقد ارتكزت العقود ذات حدوة الحصان على دعائم مربعة الشكل، والمجاز يتجه نحو جدار القبلة محدداً بذلك البائكة المستعرضة ليأخذ التخطيط شكل حرف (T) اللاتيني.

جامع المنصورة الكبير عام (١٣٣٦):

أسس الميرينيون مدينة المنصورة التي تقع على مشارف تلمسان، ويتميز جامع المنصورة بتخطيطه المميز الذي يتألف من ١٣ بائكة باتجاه العمق وتتقابل معه ٣ بواكى مستعرضة ليظهر في شكل مجاز ثلاثى، والبواكى المركزية الثلاث تتصل بمساحة مربعة غطيت بسقف هرمى أو ربما بقبة تسبق المحراب، كما تمتد الجدران الجانبية، والثلاث بواكى الواقعة في أطراف القاعة لتحيط بالصحن فظهر في شكل مربع، وعلى غرار ما رأيناه في جامع السلطان حسن، شكلت مؤذنة المنصورة من الحجر المقطع

وترتفع فى وسط الواجهة مما يظهر حسن الاختيار فى الترتيب، كما فتح الباب الرئيسى من داخل المئذنة ويعد من أهم الأجزاء التى احتوت على زخارف ثرية موشاة من الخزف (انظر لوحة ٢١)

وقد أصبح الصحن المربع فى جامع المنصورة هو الملمح الرئيسى فى تخطيط مساجد تلك الفترة، مع إضافة بعض التعديلات التى ظهرت فى مساجد المرابطين بمدينة تلمسان، كما ظهرت فى مسجدين آخرين يقعان فى إحدى ضواحيها وهو "مسجد العباد" الذى شيده أحد الميرينيين والملاصق لضريح سيدى بومدين أو مسجد "سيدى الجلوي" وكلاهما يحتويان على الطراز المعماري البازيليكي المبسط، وتحتوى هذه المساجد على خمس بوابات باتجاه العمق، وتفتح ثلاثة منها بسعة لتطل على الصحن، أما البائكتان الأخريان تمتدان لتشكلا الأروقة الجانبية، وتقع القبة فى وسط المجاز الذى يسبق المحراب وقد غطى بسقف مخروطى، والباب الرئيسى نقر فى محور الواجهة، وباستثناء "الجامع الأحمر" فى مدينة فاس الجديدة، والذى يشبه مساجد تلمسان فى أكثر من ملمح حيث يتألف من خمس بوابات، وصحن مربع، والمدخل المحورى، وبالنسبة لمساجد العاصمة المغربية فهى تنتمى لطرز أخرى أكثر قدماً حيث تتوازى فيها أجنحة قاعة الصلاة مع جدار القبلة ليحل محل الشكل المتعامد، وقد ظهر هذا التخطيط فى مسجد "الزهارة" الصغير، ومسجد "الشرابيين" فى فاس الجديدة، ومسجد "أبو الحسن" المؤرخ بعام (١٣٤١) ويقع فى الطلعة الصغيرة، كما يرجع تخطيط هذه المساجد إلى بعض العمائر الدينية المحلية المستوحاة من دور العبادة القديمة فى الشرق. وابتداءً من القرن الثالث عشر ظهر نمط آخر من العمارة الدينية وهو المدرسة.

وقد انتقلت كل من المدرسة الفارسية، والسورية والمصرية إلى المغرب بعد أن تغير شكلها ومسمياتها مع حفاظها على الغرض الذي أقيمت من أجله، وكانت المدرسة مسئولة عن اختيار الهيئة التدريسية والإدارية التي يجب أن تكون على درجة من العلم والخلق والكفاءة، وقد ظهر في تونس نموذج فريد للمدرسة ذات الإيوانات المطلة على الصحن المركزي مثل المدارس المصرية، وفي المغرب انتشرت المدارس البديعة والتي مازالت موجودة إلى الآن، كما نلاحظ التشابه في التخطيط بينها وبين الأربطة فنجد البركة التي تقع في وسط الصحن المحاط بالأروقة وأقيمت عليها الغرف وعلى جانب منها تمتد واجهة القاعة الكبيرة التي تحتوى على المحراب، كما وظفت هذه القاعة للتدريس وكمصلى لإقامة الصلاة الجماعية، وقد شيد الميرينيون الكثير من تلك المدارس في مملكتهم التي امتدت حدودها من فاس إلى مدينة الصالح، ومكناس، وطازا، وتلمسان وفي مدينة الجزائر أيضاً، وهكذا أصبحت مدنهم عامرة بالمدارس، مثل مدرسة "الصهريج" ومدرسة "العطارين" وهي تقع في حي العطارين، وتعد من أجل وأروع المدارس الإسلامية قاطبة، ثم نتوقف قليلاً عند مدرسة "بوعنانية" الشاهقة وهي جامع-مدرسة في آن واحد، وقد زودت بمئذنة ومنبر، وبها قاعتان مقببتان تقعان في وسط الصحن وتشغل جوانبها، وقد ظهر هذا التغيير في التخطيط المغربي للمدرسة السورية والمصرية ذات الإيوان الواحد، إلا أن المدرسة الجنائزية والخانقاه (لإقامة الدراويش) لم تظهر في المغرب بل عوضاً عنها وجدنا الزاوية والتي تتشابه مع عمائر الإسلام الشرقية الجنائزية الأخرى، كما تعددت أغراض الزاوية وكثيراً ما كان يخلط بينها وبين الرباط، إلا أن بعض الأربطة قد بعدت عن طابعها الحربي وخصصت للزهد والتعبد، كما أعدت الزاوية أيضاً لتكون مثل المدرسة والخانقاه، إلا أنها خصصت في المغرب لدفن أولياء الله الصالحين الذين كانوا يقيمون بها حتى الممات كما لم

تخصص لدفن الأمراء، ومن هنا عرفت الطريقة حيث كان الناس يلتفون حوله أثناء حياته، ليصبح مزاراً لهم في حياته وبعد مماته لتصبح فيما بعد مزاراً لأتباعه، وقد ارتبط تطور الزاوية بالفكر الصوفي الذي ازدهر في بلاد البرابرة ابتداءً من القرن الثاني عشر ليصبح أحد أشكال التراث الديني الشعبي، وفي مدينة القيروان توجد زاوية "البلاوي" أحد أصحاب الرسول والذي عرفه الأوروبيون باسم مسجد "المزينين" وقد أصبحت هذه الزاوية منذ بداية القرن السابع عشر أحد المزارات التي يتبارك بها الخلفاء والأوصياء على العرش، ويوجد بجانب اللحد مسجد ومدرسة وغرف خصصت لإقامة الزائرين، وفي تونس توجد زاوية "سيدي قاسم الجاليزي" وهو أحد الزهاد الأندلسيين وكان له مريدون يجتمع بهم في زاويته طيلة حياته حتى دفن بها عام (١٤٩٧)، وبالقرب من تلمسان في مدينة العباد يقع قبر "سيدي بومدين" وملحق به مسجد ومدرسة وحمامات وفنادق، وفي المغرب تزامن اسم زاوية بالرباط الذي أطلق على عمارة الميرينيين في منطقة شिला، وعند مدخل مدينة المهاد في الرباط قام الميرينيون بتشييد مدينتهم على أنقاض مدينة رومانية قديمة في منطقة شिला التي تقاسمت مع مدينة الرباط الدور الروحاني الذي ساد أثناء الحروب الصليبية حيث أعدت تلك المدن كخنادق وقد تحولت فيما بعد إلى مدينة للموتى دفن بها أمراء بلاد المغرب، ويحيط بالمدينة سور به باب رائع نصل منه إلى أجل المقابر والمصلى، ومن خلال أحد الأبنية التي اكتشفت حديثاً يظهر سور آخر يلتف حول البركة وبعض الغرف وقاعة للصلاة، وتدل الآثار على تخطيط لزاوية أعدت لإقامة الزهاد الذين نذروا أنفسهم للتضرع في صبر ومثابرة.

وهكذا أوضحت لنا العوامل التاريخية الطرز الإسبانية - البربرية في البناء والزخرفة التي ظهرت في عمائر الحكام الحفصيين مثل جامع القصبه في تونس الذي شيده مؤسس الدولة الحفصية عام (١٢٣٣)، ويحتوى على

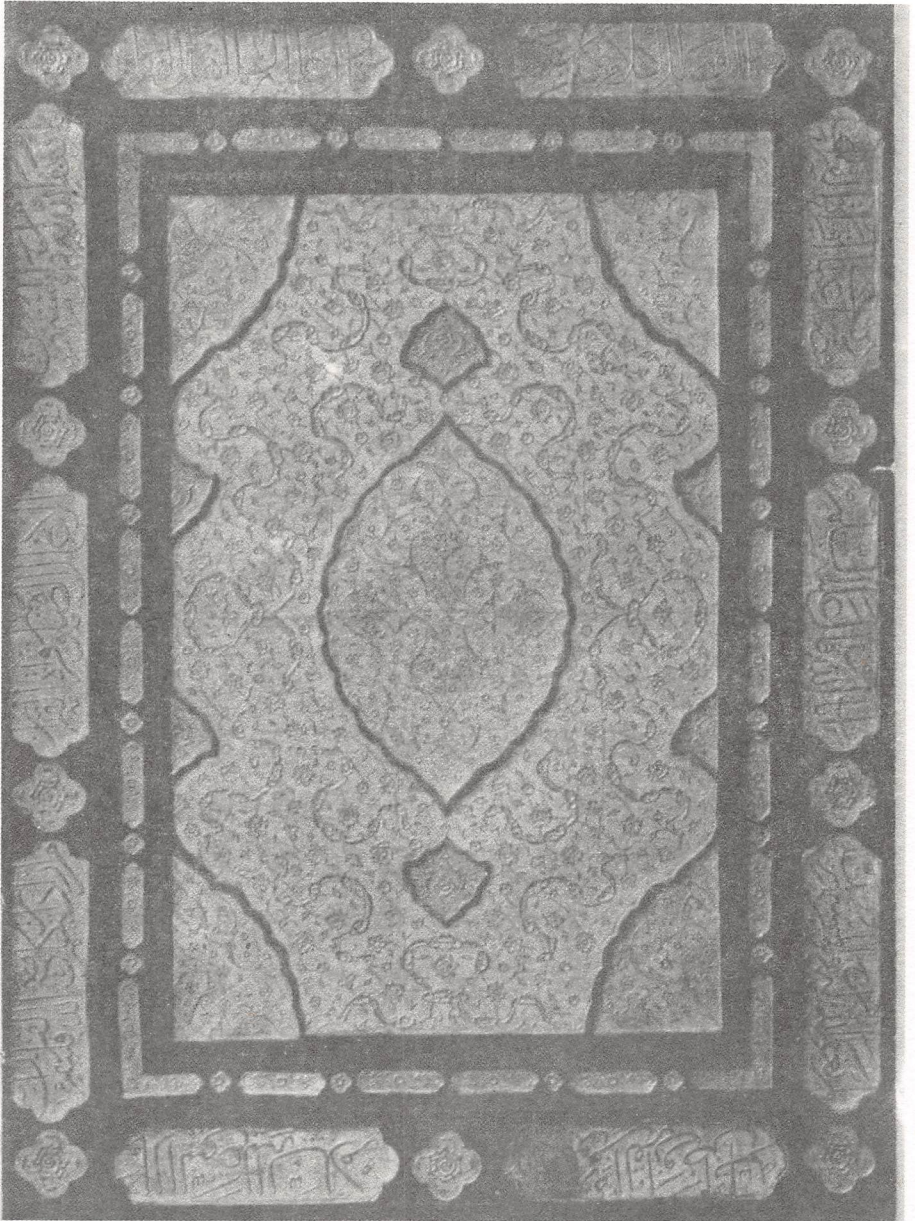
مئذنة مربعة، وهو يندرج تحت الطرز المغربية الخالصة من حيث الزخارف والشكل. وقد وصل الفن الإسباني- البربري إلى الجامع الكبير بالقيروان متمثلاً في "باب لالا ريحانة" المؤرخ بعام (١٢٩٣).

العمارة المدينة:

لقد استطعنا التعرف على الكثير من مواقع القصور التي شيدها الأمراء البرابرة في كل من فاس وتلمسان وتونس، وقد أمدنا المؤرخون وأسهبوا في وصف مظاهر الأبهة، والحدائق الساحرة، وصفحات المياه والبرك، كما أمدنا قصر الحمراء بغرناطة بالكثير من الطرز الإسبانية-البربرية في العمارة المدنية (انظر شكل ٦).

ويقع قصر الحمراء على هضبة عالية تشرف على "وادي دوايرو" حيث توجد القلاع والقصور الملكية وتحيط به الأسوار الحمراء المرتفعة كما يشرف على مدينة غرناطة وفيرجو الممتدة بمساحاتها الخضراء المنزرعة، ويشغل القصر جزءاً من السور، كما زالت الكثير من العماائر الإسلامية الأخرى المجاورة له وخاصة الجامع الكبير الذي حلت محله كنيسة.

والعماائر الباقية إلى الآن ترجع لحكم ملكين من الأسرة الناصرية، الأول هو يوسف الأول الذي حكم من عام (١٣٣٤-١٣٥٣) وابنه محمد الخامس (١٣٥٣-١٣٩١)، وقد شيذا مجموعتين متاخمتين من العماائر الملاصقة لبعضها منهما قصر تلتف فيها القاعات حول صحنين طويلين ومتعامدين، ويرجع السور الحالى ليوسف الأول، ومحاط به برجان مصمتان وباب العدالة، ثم نصل إلى برج الستات (النساء) وقصر برطل الصغير، وكلها تحيط بقاعة النوافير حيث يوجد برج قمارش داخل قاعة السفراء والمصلى وحمامات القصر.



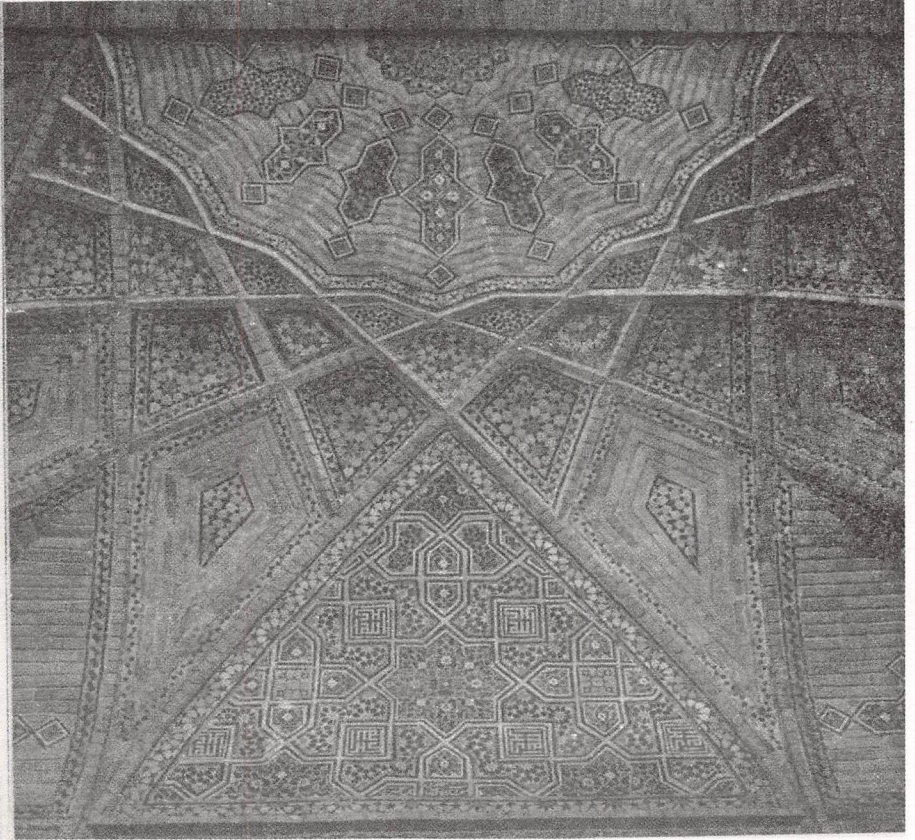
لوحة (٢٨) تجليد للقرآن من فارس

وقد أضاف محمد الخامس على هذه المجموعة المعمارية قاعة الأسود والقاعات المحيطة بها خاصة قاعة الملوك أو قاعة العدالة وقاعة الأختين، وقاعة ابن السواج، وزخارف الجدران، والعقود كاملة، والقباب التي احتوت على المقرنصات ذات الزخارف الثرية لعبت دوراً مهماً خاصة فى عهد محمد الخامس، كما ظهر تطور هائل فى الزخارف المؤرخة بفترة حكم يوسف الأول وابنه وظهر فيها تأثير الفنانين المسيحيين الذين تمت الاستعانة بهم.

وهناك تشابه بين طراز قصر الحمراء المؤرخ بعصر يوسف الأول وطرز المدارس فى مدينة فاس مع مساجد تلمسان، كما احتوى قصر الحمراء على بعض العناصر الجديدة والتي تعد غريبة فى سجل زخارف الأرابيسك، كما حدث تداخل بين التخطيطات التي ساهمت فى تطور العمارة المدنية فى العصر الإسلامى.

كما ظهرت مقدمة البناء مؤلفة من قاعة البركة، وصفحات المياه الممتدة والقاعتين الملحقتين بها، والحمامات وترتيبها مع قاعة السفراء فى كتلة تشرف من أعلى على الوادى، وقد تقبت بها النوافذ التي تبدو وكأنها مراقب، وهكذا ظهر التخطيط منسجماً مع التقاليد السائدة، أما قاعة الأسود الشهيرة فهي تحتوى على نافورة يحيط بها اثنا عشر أسداً من الرخام حيث عرفت باسمها. وتوجد مقصورتان محملتان على أعمدة رشيقة تخرج ببروز لتتقدم القاعات التي تمتد بطول الجانبين الصغيرين، وقد استطعنا فهم هذا الطراز العبقري بعد الحفائر التي تمت فى قصر المهاد فى مدينة مرسية حيث عثر على مثيله هناك إلا أن تاريخه يرجع إلى مائتين وخمسين عاماً قبل قاعة الأسود، والصحن ينقسم إلى ممرين متعامدين وقد ملئ بشتى أنواع النباتات، وهو تخطيط ذو أصل إيراني ثم انتقل إلى الحقائق الداخلية المغربية،

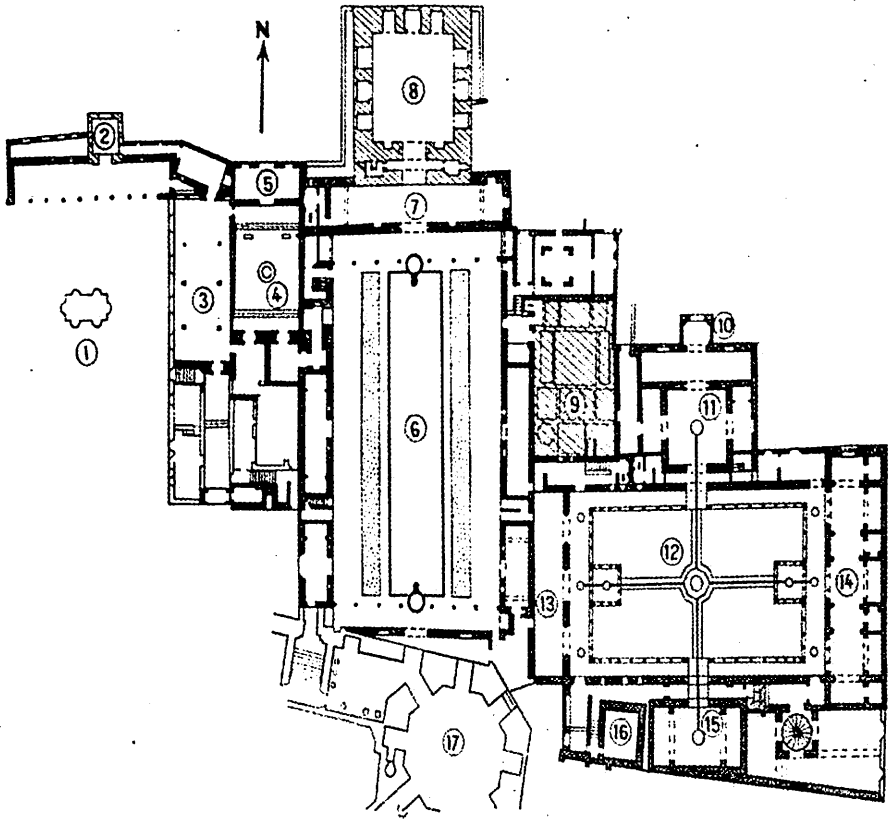
وتقع جنات العريف عالية مجاورة لقصر الحمراء وهي من مفاخر العصر
الناصرى، وتتكون من مقصورات وأجنحة مفتوحة تحيط بالحدائق البديعة
التي يطيب فيها الهواء بعد أن حفت بقنوات المياه التي تتدفق من نوافيرها،
كما عثر على بعض دور السكن الخاص وقد أُرِخ بعضها بالقرن الثالث عشر
والرابع عشر وترجع لمدينة فاس، والتخطيط السائد فى المنازل يتألف من
صحن مركزى تحيط به الأروقة التى تتفتح الحجرات عليها، ثم باب كبير
بمصرعين يؤدى إلى المدخل الذى احتوى على زخارف تضاهى فى
براعتها زخارف المدارس.



لوحة (٢٩) السقف المبقى لمسجد على بأصفهان

وقد أعدت الفنادق لاستقبال التجار واستضافتهم، كما خصصت أماكن لحفظ سلعهم وأخرى لبيع بضائعهم، وهكذا عرفت مصر بأجمل وأجل الوكالات، وتخطيط الوكالة يتشابه مع تخطيط المنزل والمدرسة والفندق حيث يتألف من صحن مركزي تحيط به الأروقة المعمدة وتحتل هذه المساحة المكشوفة الجزء الأكبر من المساحة الكلية، والحجرات أيضاً تطل على الأروقة المعمدة، ونصل إليها بواسطة سلم به درج يوصل إلى الدور الأول والدرج الثاني إلى الطابق الثاني، وينفتح مدخل الفندق العريض في وسط أحد الجوانب ليتيح للناس والدواب المرور به، ويحتوى المدخل على عقد كبير يسبقه دهليز، وقد ظهر هذا التصميم في فندق الططوانيين (نسبة إلى ططوان) بفاس، وفندق Coral del Carbon في مدينة غرناطة.

وقد أمدنا قصر الحمراء بأحد نماذج الحمامات من القرن الرابع عشر، وتظهر فيه النسب معتدلة، وعناصره الأساسية هي قاعة الاسترخاء أو Opodyterium، وقد احتوت على عناصر ثرية من الزخارف، وسقف مركزي مرتفع، ورواقين شكلا على هيئة المقاعد الحجرية، ثم تتعاقب القاعات المقبية التي أضيئت بواسطة نقوب في الأقنية وتسمح بمرور الضوء منها، ثم نصل إلى ممر استخدم كقاعة باردة، ثم القاعة الفاترة الأكثر اتساعاً من القاعة السابقة وقد أحيطت بأروقة تلتصق بها أفران للتجفيف وبعض الأماكن المخصصة لعملية التدليك، وهذه هي العناصر التفصيلية لطرز الحمامات من هذا العصر مثل حمام جبل طارق، وحمام في مرسية، وحمام في جريس، وفي بلاد البرابرة في "أوجدة" وفي "العُباد" بالقرب من مدينة تلمسان.



شكل (٦) تخطيط لقصر الحمراء في غرناطة

١- صحن ماشوكا

٢- برج ماشوكا

٣- Machuca مشوار

٤- صحن كوارتو -دورادو Cuarto dorado

٥- كوراتو -دورادو Cuarto dorado

٦- قاعة الآس أو قاعة البركة

٧- قاعة بركا de la Barca

٨- برج قمارش وقاعة السفراء

٩- الحمامات

١٠- مرقب داراكسا

١١- Daraxa قاعدة-الأختين

١٢- قاعة الأسود

١٣- قاعة المقرنصات

١٤- قاعة الملوك (قاعة العدل)

١٥- قاعة بن سواج Abencerages

١٦- صهريج

١٧- كنيسة قصر شارل كينت Charles Quint

العمارة العسكرية:

احتفظت العمارة العسكرية بالتقاليد التي سادت في عصر المهاد أكثر من العمارة الدينية دون أى إضافة تذكر. وبخلاف سور قصر الحمراء هناك مجموعات معمارية أخرى من التحصينات المؤرخة بالقرن الثالث عشر أو على الأرجح القرن الرابع عشر ومن أهمها أسوار فاس الجديدة المؤرخة

بعام (١٢٧٦)، وأسوار المنصورة وقد شيدت هذه المدينة كحصن على يد المغاربة حينما اعتلوا العرش فى تلمسان عام (١٣٣٢)، وفى شيلا التى أصبحت جبانة للميرينيين ومؤرخة بعام (١٣٣٩)، ثم قصبة جبل طارق التى تحتوى على أبراج ضخمة ومستطيلة والمعروفة باسم كالاهورا، كما زودت كل من مدينتى تونس والمنستير بمتاريس، وقد قام الأستاذ هنرى تيراس H.Terasse بدراسة تحصينات مدينة فاس الجديدة التى احتوت على طابع مميز، وشيدت هذه المدينة الرسمية على أرض مسطحة تقع فى محيط دائرى يتقارب فى شكله مع المستطيل، وتحاط بمتراسين من الأجر، والجدران ومقدمة الجدار بها أبراج محرودة وقد تخطت فى ارتفاعها أكثر من ثلثى ارتفاع جدران الاستحكامات، والجدران توجت بمتراس غطى بحبيبات من الزنجير، ومعظم مداخل المدينة مكوعة، والباب هو الجزء الوحيد من الجدار المبنى من الحجر المقصوب وينفتح بين برجين مربعين أو مهيبيين (مثال تونس وشيلا)، كما يؤدى الباب إلى سلسلة من الدهاليز المتعرجة، وقد غطيت معظمها بأقنية ذات زوايا بارزة، وفى باب العدالة فى قصر الحمراء نجد ثلاثة أكواع متتالية أو أربعة وفى مدينة المنستير يوجد بابان يرجع تاريخهما إلى (١٢٦٠) وقد دعمت بصور الاستحكامات ويعد هذا الطراز من أول العناصر الغربية التى ظهرت فى العمائر الحربية، كما أعدت منافذ الموانئ الداخلية للسماح بمرور السفن مثل ميناء النصالج بالمغرب عام (١٢٦٥)، أو ميناء حنين، وميناء تلمسان المؤرخ بالقرن ١٤ ولم يكن به مرفق.

الزخرفة:

استخدمت الزخارف المعمارية نفس المواد المستعملة في عصر المهادر، فيما عدا ظهور بعض التقنيات الفنية في الصناعات الزخرفية، كما ندر اللجوء إلى الحجر فيما عدا التكسية والزخارف النحتية، وظهر الجص المحزوز بآلة من حديد "نقش الحديد"، والجص المصنوع في قوالب للتكسية الداخلية والخارجية للجدران وفي قاعات الصلاة داخل المسجد وأصحن المدارس، وأيضاً في زخارف القباب الكبيرة التي تحتوى على المقرنصات، وقد شكل الجص من الداخل بطبقات من الألوان الموحدة.

وتعد قاعات قصر الحمراء من النماذج التي يظهر فيها تعدد الألوان على الرغم من أنها دهنت أكثر من مرة، وقد ظهرت العناصر الزخرفية باللون الأحمر الداكن في معظم الأحيان، وكانت تخط أولاً على طبقة من المعجون مثبتة جيداً في الأجزاء الداخلية، أما المآذن فقد شكلت من الطوب في شكل زخرفي تقليدي، وكانت تكسى بالدهان ثم ترسم عليها الأشكال التي تشغل الأجزاء الداخلية.

كما عرفت الزخارف من المينا أيضاً، أما التلييسات من الخزف فلم تجد الانتشار الواسع لها مقارنة بالدور الذي لعبته في فارس، فقد استخدمت في العمارة فقط باقتضاب وتناسق تام.

وقد احتوت الأفاريز على النجميات التي تحيط بالمآذن، واشتملت الأشرطة أيضاً على الزخارف الكتابية، وكانت أيضاً تحيط بالأبواب، كما زخرفت بها قواعد الجدران والأساطين، وبعض أرضيات الأروقة والقاعات،

وقد بدت بعض التقنيات فى تشكيل الخزف غريبة وغير مألوفة مثل الكشط بالأزميل فى المينا من الداخل، وفى الأشكال التى تلتصق بطريقة الحفر.

وفى الأندلس تطور الأسلوب التقنى الفنى القديم المعروف باسم cuerda seca لينتقل فيما بعد إلى تونس ليظهر فى التكسيات المشكلة من صفائح الخزف، وإضافة إلى المواد المستخدمة فى زخارف التكسيات فقد ظهرت الأخشاب فى المغرب المجلوبة من خشب الأرز من جبال الأطلس حيث صنعت منها الأسقف، والكورنيشات، والأطناف وزخارف الأجزاء المرتفعة فى الواجهات التى تطل على الصحن.

التيجان:

ظهر فى عصر المهاد العديد من التيجان المستوحاة من الطرز العتيقة مثل الكورنثى والتاج المركب، وبحلول القرنين الثالث عشر والرابع عشر انتهى استعمال هذه الطرز فيما عدا بعض النماذج التى ظهرت فى التاج المورسكى (البربري) المحدد ذى الطابع الإسلامى؛ فظهرت البروز أكثر تسطيحاً، وتمت الاستعاضة عن اللوحات ذات الدخلات بأشكال أخرى شديدة البروز، وهكذا تفككت المجموعة إلى كتلتين مركبتين مكونتين من أسطوانة سفلية تنتهى من أعلى بشكل متوازى الأسطح، كما يحيط بالأسطوانة شريط من الحليات المتعرجة، والمتسامنة التى تنتهى بتقويسة وهو أحد الأشكال المحورة لتتويجة الأكنيس، كما تلتف الأوراق النخيلية المتجاورة حول شريط أو وريدة مركزية وقد زخرفت بها الأربع واجهات لمتوازى الأسطح.

وقد لاقى هذا الشكل من التيجان انتشاراً واسعاً فى بلاد المغرب وتونس، إلا أنها ظلت محافظة على طراز التاج المؤلف من الأوراق النباتية الناعمة والمرتببة المستمدة من الطرز المحلية من عصر الزيربين، والعقد ذى حدوة الحصان الكامل، أو العقد الحاد، أو العقد المعدل من أعلى وهو أكثر العقود استعمالاً فى الأبواب الضخمة، وفى أجنحة المساجد والأروقة والنيشات داخل المحاريب.

وقد استعان معماريو الحمراء بالعقد الكامل المعلاة، الذى تنتهى أطرافه بتسنيينات رقيقة جداً حددت بها الحليات الأفقية فى باطن العقد.

وبالنسبة للعقود المفصصة، والمنحنية الأضلاع، أو المهدبة التى استخدمها المعمارىون فى عصر المهادر لم تعد تظهر فيما عدا فى زخارف المآذن، وقد شكلت من المتشابكات والمعينات اللوحات الشبكية الكبيرة، وهذا التطور يعد تراجعاً فى سجل الزخارف الخطية. والمقرنص أيضاً قد تعددت استخداماته وخاصة فى قصر الحمراء فى عصر محمد الخامس، وقد تألفت القباب وحنيات العقود والكورنيشات والعقود من بعض الأشكال الموشورية الصغيرة المجمععة والمصنوعة فى قوالب من الجص.

وإذا كانت الأشكال الزخرفية الكبيرة قد افتقرت إلى التنوع، والزخارف الخطية لا تتم عن الابتكار، إلا أن هناك بعض المجموعات الزخرفية ذات التكوينات الرائعة، والمتوازنة النسب التى تضعها فى مرتبة الأعمال الكلاسيكية، ومن أهمها بعض المدارس المغربية، وبعض الواجهات المطللة على الصحن، وفى تلمسان نذكر على سبيل المثال محراب مسجد سيدى بلحسن، ثم مئذنة المنصورة التى ظهر برجها الشاهق المشكل من الحجر الوردى اللون، وقد زخرف بتليبيسات من المينا معلناً عن طرازه الفنى

الأسباني - البربرى فى رشاقة وأقل صلابة، كما ظهر التألف بين رصانة الخطوط الإنشائية، والبراعة والجمال فى التفاصيل الدقيقة التى اختيرت بدقة متناهية، وقد احتوت الزخارف هنا على العناصر الكتابية والهندسية والزهرية.

الكتابات:

استخدمت الزخارف الكتابية بكثرة، وقد حفت الأفاريز وحواف الإطارات بزخارف من الكتابات النسخية، كما وجدنا بعض المقتطفات من القرآن فى بواكى المساجد، ووجدت بعض الأبيات الشعرية فى قاعات قصر الحمراء، وبالنسبة لأحرف الكتابات النسخية المنحوتة فى الجص، أو المقطعة من الطين المطفى بالمينا كان ينقش عليها اسم الأمير المؤسس للمنشأة وتاريخ إنشائها، ذلك بعد أن أصبح الخط الكوفى غير مقروء من العامة كما لم يعد يفى استخدامه فى بعض الأغراض فاقصر فى كتابة بعض العبارات الإيمانية القصيرة.

وقد زخرفت الحروف بالعقود والعقد الصغير فى تكوينات رائعة مثال أحد شواهد القبور التونسية الذى يرجع للقرن الحادى عشر.

المتشابكات الهندسية:

أصبحت تكوينات زخارف المتشابكات الهندسية رتيبة ومحدودة مقارنة بما كانت عليه من تطور فى المدرسة السورية-المصرية، كما اختلفت بعض النسق المعروفة فى النحت على الجص، وظهر نمط آخر من

"التلييسات الخزفية" والمعروفة بقاطعى "الزليج" وهى من الطرق الفنية السهل تطبيعها لعمل الزخارف المكررة، والقطع المجزأة، كما كسيت بها تسقيفات القاعات والأروقة ونفذت منها بعض أعمال التلييط.

الزخارف الزهرية:

لم تتركز الزخارف الزهرية بأى نوع من الثراء بل على العكس، فقد اشتمل سجل الزخارف على نوعين من الأوراق النخيلية الإسبانية-البربرية والتي تلتحم بسيقان النبات الخيطية والأغصان لتمتد الحلزونية من أسفلها؛ فظهرت الورقة النخيلية المزدوجة المشتقة من الأكتيس، والورقة الناعمة التى حفت بالأشكال الإصبعية وأزهار القرنفل، كما وجدنا الورقة النخيلية البسيطة المثلثة المنبثقة من بوتقة داخلية مؤلفة من بتلتين، وقد زخر قصر الحمراء فى عصر محمد الخامس بقائمة من الأشكال النباتية الغربية على النقاليد الإسلامية والتي ظهر فيها تأثير انفان المسيحى.

الرسوم المتحركة:

بعد قصر غرناطة من عهد الناصريين المثال الوحيد الذى يحتوى على التصاوير والرسوم المتحركة المتداخلة فى الزخارف، وبخلاف الأسود الشهيرة التى تحف بالفسقية، فهناك التصاوير الآدمية فى برج السبديات والتي تبدو أنها من الأعمال الفنية الإسلامية، ثم التصاوير الموجودة فى قاعة العدالة التى ظهر فيها لأول مرة التأثير الإيطالى Quattrocento.

وينضم إلى العائلة التقليدية للزخارف الخطية عنصر جديد وهو المتشابكات المعمارية الذى ظهر فى عصر المهاد أى ابتداءً من القرن الثالث عشر وانتشر ليشمل معظم زخارف الواجهات، ويتألف من شبكات من العقود والمعينات المنحنية الأضلاع المتجاورة التى تظهر بميل وقد ظهرت قبل ذلك فى زخارف المآذن، كما تستخدم كرسيم تشغيلي فى أكثر من ثلثى اللوحات.

فنون الأثاث:

لقد برع نحاتُ الخشب فى عمل أجل المنابر المؤرخة بعصر المهاد فى مراكش ثم جاء من بعدهم من أكمل مسيرتهم، وهذا ما تشهد عليه الأعتاب (الأسكف)، والأطناف والتكسيات من خشب الأرز فى مدارس مدينة فاس.

كما يدل منبر مدرسة "بوعنانية" على براعة التكوينات المشكلة للوحات، والقدرة الفائقة فى تنفيذ الزخارف الزهرية على مساحات مصغرة.

ومن المعادن التى نفذت منها أجل الأبواب خامة البرونز فى مدرسة العطارين فى فاس والمؤرخة بعام (١٣٢٥)، وباب مسجد سيدى بومدين والمؤرخ بعام (١٣٣٩)، وباب الجامع الكبير بقرطبة والذى تحول عام (١٣٧٧) إلى كاتدرائية، كما وجدت بعض أعمال الأثاث المعدنى مثل الثريا لمدرسة العطارين ذات الشكل الهرمى المستمدة من الطرز المصرية مع احتفاظها بالطابع المغربى فى زخارفها المحفورة، وكذلك الفانوس الموجود فى مسجد الحمراء والمؤرخ بعام (١٣٠٥).

ومن الأعمال المعدنية ظهرت الزخارف المفرغة، والمزخرفة بالفتائل المعدنية المذهبة أو المجدولة، والمعدن المطلى بالمينا وكلها من الطرز الأندلسية المؤرخة بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كما احتفظت المتاحف الأسبانية ببعض الحلى، وبعض أطقم الأسرجة، والسيوف الشهيرة باسم "بوابديل" وهى الأسلحة الملكية التى تستخدم كأغطية للرأس للحرس الملكى المستلهم من الطرز الشرقية.

وبالنسبة للأسلحة الدفاعية؛ ظهرت الخوذ بأشكالها المتعددة، كما يحتفظ متحف ريال مدريد Armeria Real Madrid بدرع مستطيل مصنوع من الجلد ويحتوى على زخارف دقيقة وبعض النصوص ذات الطراز المغربى. أما الجلد فقد استخدم فى كثير من أعمال التجليد الرائعة والتى تشكّلت زخارفها من المتشابكات الهندسية.

لعب الخزف دوراً رئيسياً فى تغطية العمارات والتى لا تقل أهمية عن زخارف النحت الخشبية، أو زخارف البرونز، وكذلك فى فنون الأثاث.

ومن الأعمال الفخارية ظهر الفخار المحروق على لونه أو المطلى بالمينا الخضراء والمزخرف بواسطة الأدوات الحديدية والقالب، كما استخدم الخزف فى عمل كتل تسد فوهة المصارف، والأنابيب الطويلة والمخروطية الشكل والتى تدفن قاعدتها فى كتلة البناء، ومن أهم الزخارف المطبوعة والمقطعة المؤلفة من العقود الصغيرة وبعض الزخارف الكتابية، ومن هذه الأعمال الجرة ذات العروتين المثلثتين الملتصقتين بالرقبة والمماثلة للطرز الموجودة فى قصر الحمراء.

ويندرج هذا الإناء الشهير وبعض القطع المماثلة له إلى عائلة الخزف ذى البريق المعدنى كما يرجع أصله إلى مدينة ملقة (بإسبانيا) كذلك وجدنا الإطارات التى تستخدم فى زخارف التغطية، والأصحن، ومن مدينة بالنسيا

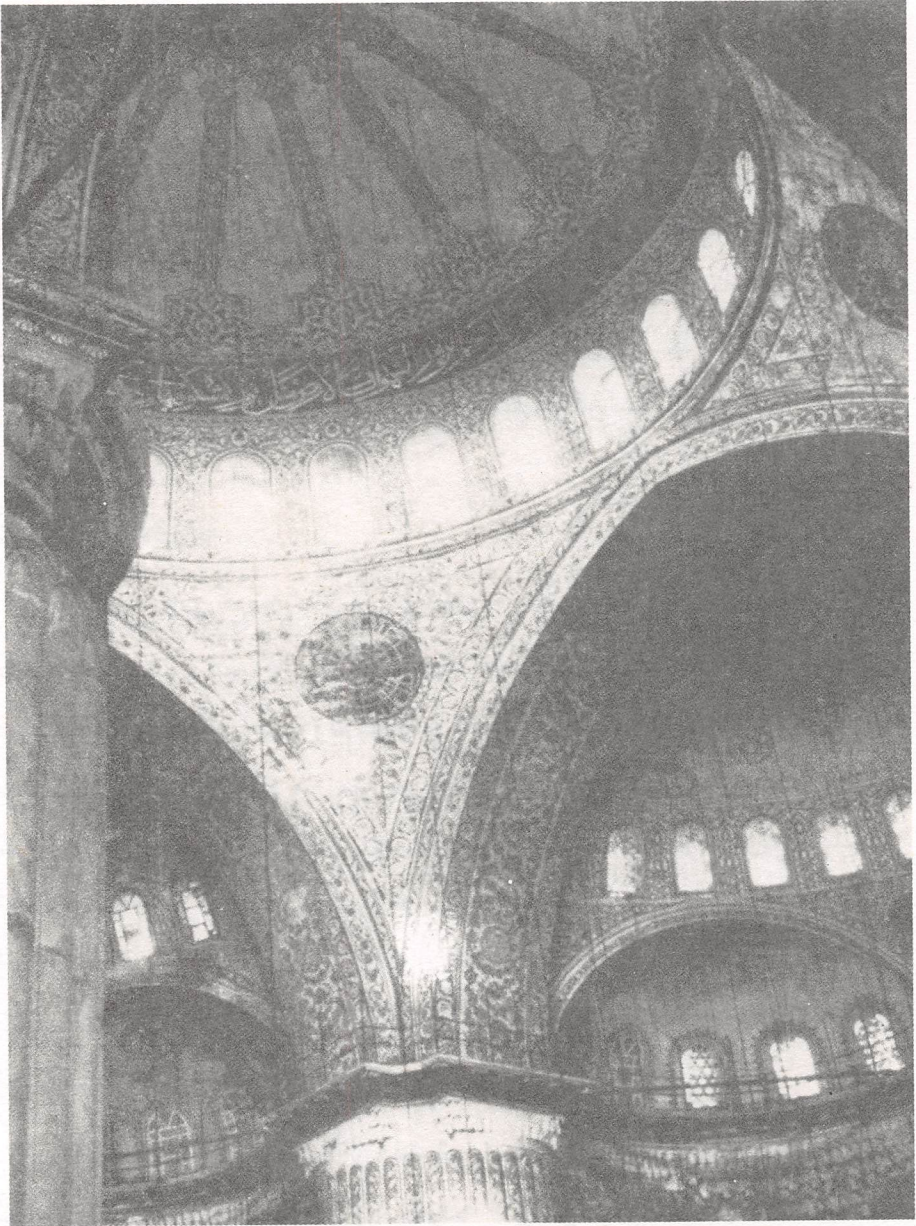
وماينسار (بإسبانيا) كانت دور صناعة الخزف عامرة حتى القرن السابع عشر حيث انتقلت فيما بعد أسرار صناعة الخزف منها إلى إيطاليا.

كذلك عرفت مدينة باترنا Paterna القريبة من بالنسيا Valence الخزف المتعدد الألوان ذا الطابع العتيق، ولم تعرف ريشة الفنان سوى اللونين الأسمر والأخضر على غرار القطع التى عثرنا عليها فى مدينة الزهراء والمؤرخة بالقرن العاشر، وقد احتوت زخارفها على الوجوه الأدمية والحيوانية والتى لا يمكن أن نؤرخها بداية القرن الرابع عشر.

السجاجيد والأقمشة:

إذا كان العثور على أفران للخزافين، وعلى بعض الشقاقات قد أمدنا ببعض المعلومات الموثقة عن أماكن صناعة الخزف ومنتجاته إلا أن طرز السجاجيد أوقعتنا فى حيرة ولم نستطع تحديد بلد المنشأ إن كانت إسبانيا أو مصر فى العصر التركى أو من سوريا على الرغم من وجود بعض الأمثلة للسجاجيد الأسبانية من العصر الإسلامى، وهكذا ظل تحديد تاريخ ومنشأ قطعة النسيج افتراضياً، فالقطع الحريرية التى يغلب عليها اللون الأحمر وقد زخرفت باللون الأصفر والأزرق والأخضر وتتداخل فيها الأشرطة المملوءة بالنجميات الهندسية مع خطوط من الكتابات الكوفية والنسخية يمكن أن ننسبها إلى إسبانيا - البربرية.

كذلك وجدنا فى صناعة الرايات اليد العاملة المسلمة واضحة، وقد نقشت عليها أسماء لأمرأ بنى ميرين والمحفوظة الآن فى كاتدرائية طليطلة، كذلك عثرنا على حواشٍ حفت أطرافها بالكتابات التى تحيط بالأهلة المتجاورة، والتى تعد من أول الأمثلة الإسلامية التى وصلت إلينا فى الغرب.



لوحة (٣٠) الجامع الأزرق بتبريز - من الداخل

خلاصة:

وعلى مدار العقود الثلاثة التى امتدت فيها المرحلة الثالثة تفتتت فيها أوصال وحدة العالم الإسلامى والتى قد بدأت خلال المرحلة الثانية، وظهر تأثيرها بالطبع على التطور الفنى مما نتج عنه التعددية فى المدارس، وعلى الرغم من انتماء كلتا المدرستين الشرقية والغربية (لدار الإسلام) فإنهما قد انفصلتا، كما انفرد كل إقليم بطابعه المعمارى فى التخطيط، وتوزيع الكتل المعمارية، والألوان والتقنيات المختلفة التى ميزت كل إقليم بطابع مميز.

كذلك تميزت عمارة فارس الإسلامية بالمساجد ذات الأضن الكبيرة، والإيوانات الفاغرة المملوءة بالمقرنصات، وبمآذنها المزودة العالية والتى ترقق من أعلاها كلما ارتفعت إلى السماء، وقبابها المبصلة المصفحة بالمينا الزرقاء، أما العمارة المصرية فقد اتسمت ألوانها بالرصافة، ونسبها المعتدلة، ومآذنها ذات الشرفات، وقبابها المدببة فوق شواهد القبور، ليظهر الشكل العام فى تناسق وتناغم مع المساحات الكلية فى هيئة تثير الإعجاب.

كما تميزت العمارة الإسبانية-البربرية بالانسجام من حيث التخطيط والبساطة مع الكلاسيكية التى ظهرت فى أبراجها المربعة المؤلفنة منها، وأسقفها المشكلة من القرميد التى تتم عن القدم، كذلك وجدنا بعض الخشونة فى الخطوط التى ترمز لشخصية الحكام فى ذلك الوقت وما عرف عنهم من جلد وتقشف، كما أصبح من اليسير علينا الخوض فى شتى التفاصيل وتحليل طرزها، كذلك تميز المغرب بطابعه الفنى الصلب الذى انتقل إلى تونس فظهر متألقاً على الرغم مما يشوبه من جفاف والذى نرجعه ربما لاستخدام

الحجر المقطع مع الاحتفاظ بالذوق الرفيع لمجتمعهم الحضري القديم، وفي الأندلس أخذ الفن مساراً آخر حيث تميزت زخارف قاعات قصر الحمراء بالغازارة والثراء الذي يعد من مميزات الفن الأسباني.

فهل كان من الصعب التقاء الشرق مع الغرب، وهل يوجد ملمح مشترك بين مدارسهم المختلفة؟

وعلى الرغم من التقلبات السياسية التي حدثت فقد ظلت التأثيرات الفنية تجوب شتى أرجاء العالم الإسلامي الذي وحدته عقيدته، كما ظل الشرق محافظاً على شهرته في بلاد المغرب وإسبانيا، كما لعبت قطع الأثاث دوراً مهماً في انتقال الأساليب التقنية والأشكال الفنية من قطر لآخر؛ مثل الجرة المحفوظة في قصر الحمراء، والسيوف المعروفة باسم بوابديل ذات التأثير الفارسي، ونادراً ما انتقلت الصيغ الفنية الغربية إلى الشرق؛ مثل منئذنة جامع ابن طولون التي أعاد بناءها السلطان المملوكي لاجين عام (١٢٩٦) ونرى فيها يد المعمارين الذين وفدوا من بلاد الأندلس ومن طليطلة للمشاركة في العمل مع العمال المحليين.

وفي جامع الحاكم الفاطمي الذي رمم عام (١٣٠٣) نجد فيه الدرابزين الحجري ذا الطابع المغربي الثري، ومع الانتقال الدائم للفنانين انتشرت الطرز في شتى أقطار العالم الإسلامي إلا أن أهم عامل هو تكيف المنشآت المعمارية وطرزها المختلفة؛ مثل المدرسة التي انتقلت من بغداد إلى سوريا ومنها إلى مصر، ثم عاودت إلى تونس لتصل إلى فاس والصالح وغرناطة لتصبح بذلك أهم حدث في تاريخ الفن الإسلامي قاطبة.

وقد كان لتخطيط المدرسة تأثير ظاهر على المساجد المصرية، وكذلك على بعض المساجد الميرينية، ويرجع ذلك للاتجاهات الدينية العامة التى وجدت الأمة الإسلامية والتى صاحبته آلية الدفاع عن الإسلام ضد أى عدو، والعودة للدين الصحيح وما يفرضه أحياناً من جمود فى المعتقدات، وازدهار الصوفية وعدم الاهتمام بالعالم الخارجى فكان نتيجة طبيعية لذلك أن يمتد الطراز الفنى فى اتجاه واحد.

وبانطواء الفن الإسلامى على نفسه، فقد ظل ينهل من أعماله فى محاولة لإخراج بعض التكوينات الكلاسيكية المتوازنة والتى دلت على القوة أكثر من البراعة، كما بعد عن محاكاة الطبيعة، ولجأ المزخرفون فى المساجد إلى بعض الأساليب الماهرة والطرز المألوفة مما أبعدهم عن أى ابتكار يستحق أن يذكر.

الجزء الرابع
العالم الإيراني والهيمنة التركية

الفصل الأول

الفن الإيراني

لقد مر العالم الإسلامي خلال المرحلتين السابقتين بتفتيت وحدة أقطاره، والمرحلة التي نحن بصدد دراستها الآن قد شهدت وحدة نسبية وتنظيمًا بين مؤسساتها حيث جمعت بين الشرق والغرب في كتلتين وهما العالم الإيراني والعالم التركي.

وابتداءً من عام (١٥١٥) بدأ التوازن يعود إلى المنطقة والذي استمر حتى عصرنا الحديث، وفي عام (١٥١٤) قام الشاه إسماعيل الأول بتأسيس الأسرة الإيرانية الصفوية والتي حكمت بلاد فارس حتى عام (١٧٣٦)، كذلك استولى الأتراك العثمانيون على بلاد الأناضول الشرقية في عام (١٥١٥) ثم سيطروا على سوريا عام (١٥١٦)، و مصر عام (١٥١٧) حتى وصلوا إلى الجزيرة العربية.

وهكذا بدأت الهيمنة التركية تسيطر على منطقة شمال أفريقيا على مدى السنوات المتعاقبة فيما عدا المغرب.

العمارة:

وبانتقال دولة المغول التيموريين إلى حكم الصفويين كان ذلك إيذاناً بقيام نهضتين في دولة فارس، ذلك بعد أن استعادت البلاد حكامها ذوي

الأصول الإيرانية مرة أخرى، فقاموا بإلغاء المذهب السني ليجعلوا من المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة، وقد عرف الفن الفارسي أبهى عصوره في تلك الفترة حيث ازدهرت فنون الأثاث، وحدثت فنون العمارة، ويعد جامع ساقا الكبير من أجمل عمائر تلك الفترة والذي يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، ويتألف الجامع من صحن ذي إيوانات كبيرة، والمصلى المقبية، والأقنية المزخرفة بالمقرنصات إلا أنه لم يأت بجديد يذكر، كما شيدت بعض الأضرحة في كل من مدينة أصفهان والسلطانية وشيراز ونيسابور والتي لم يطرأ عليها سوى بعض التغييرات الطفيفة في عناصرها المعمارية التقليدية، كما أعيد بناء بعض ما تهدم منها من جراء الزلازل، وسيظل تاريخ الفن المعماري مديناً للصفويين والشاه عباس الذي حكم من عام (١٥٨٧-١٦٢٨) حيث جعل من مدينة أصفهان عاصمة له وزينها بأبهى العمائر، وعرف عصره بأعظم المهندسين المدنيين، وأبهى العمائر من مساجد وقصور، وقد خطت مدينة الصفويين "شهر باج" في الاتجاه الشمالي-الجنوبي وبها طريق واسع يمتد بطول ثلاثة كيلومترات، وقد ظلل بأشجار الدلب أو الصنار، وتحيط به الحدائق، وبرك المياه والمقصورات، ويخترق الطريق بحيرة "زندهود" بواسطة جسر "الهوردى" ويحتوى على ٣٣ عقداً يحمل المحور الأوسط ورواقين مسقيين خصصا للمشاة.

وهناك جسران آخران يوصلان إلى "جولفة"، وهى إحدى الضواحي الجنوبية الواقعة على الضفة الشمالية بامتداد المدينة، وتتألف من "ميدان الشاه" وهو عبارة عن مستطيل شاسع يمتد طوله إلى ١٢٠م وعرضه ١٥٩م، كما ملئت الرحبة بالرمال الناعمة التى خصصت للفرسان لممارسة ألعابهم

المفضلة من البولو، كذلك خطت قناة بطول الرحبة وصفت بالأشجار، ودور السكن قد شكلت على طراز واحد حيث فتحت بها الدكاكين التى تحيط بالميدان، كما تقع العمائر الشاهقة فى جنوب الجامع الملكى، ومن الشمال توجد المنصة المخصصة للفرق الموسيقية وتعلوها بوابة تؤدى إلى القيصرية الكبيرة، وفى الغرب توجد المقصورة المعروفة باسم "الأكابى" والمدخل المؤدى إلى الحدائق والقصر، ومن الشرق نصل أخيراً إلى مسجد الشيخ لطف الله.

وقد بدئ فى بناء الجامع الملكى أو (مسجد الشاه) فى عام (١٦١٢) واستمر حوالى ثمانية عشر عاماً (انظر لوحة ٣١)، ثم جاءت فى البداية الواجهة التى تكمل زخرفة وزينة الميدان، ومن المشاكل التى قابلها المعمارىون محاولة تغيير اتجاه الجامع الذى تقام فيه الشعائر من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى لضمه إلى مجموعة معمارية أخرى تتجه نحو الشمال الجنوبى إلا أن المعمارىين قد وفقوا فى إيجاد انح المنطقى المناسب، والمدخل نجده فى الجزء الأوسط وبه بعض التجويفات المهدبة ويقع على جانبيه مئذنتان، ويوصل إلى إيوان يطل على الصحن، كما كان يتم تغيير المحور من داخل الإيوان بزاوية قدرها ٤٥ درجة، ثم نصل لثلاثة إيوانات أخرى غرست فى الجوانب و بعمق الصحن الذى يسبق القاعات المقبية.

ويقع الإيوان الرئيسى قبل الإيوان الكبير، ومحاط به أربعة أروقة وسلسلة بواب من القباب الصغيرة التى تستخدم كغطاء، وبالنسبة لترتيب المساجد الفارسية فقد تعارفنا عليها منذ العصر السلجوقى، والذى يعد جامع أصفهان الذى تقام فيه صلاة الجمعة أحد أهم نماذجه، ومن الملامح الأصلية التى ظهرت فى هذا العصر لتضيف إلى طابع المحلى هى المساحة

المستطيلة التي تقع على جانبي قاعة الصلاة لتؤلف بين الصحنين (انظر شكل N) وعلى الرغم من عظمة المنشآت الدينية في العصر الصفوي وما احتوت عليه من زخارف السيراميك الثرية فإنها لم تضاف جديدًا إلى الأنساق السابقة، كذلك يظهر تخطيط مدرسة "ماضري- شاه" التي أنشأتها أم السلطان عام (١٧٠٦) وتحتوى على صحن مركزي واسع ذي أربعة إيوانات وقاعة للصلاة وقد غطيت بقبة كبيرة مبصلة، كما ألحق بها خان مما ضاعف من مساحتها.

وقد زخرت العمائر المدنية بكثير من الطرز المتنوعة، كما احتفظت عاصمة الشاه عباس بخصائصها المميزة والذي يعد "الأكابي" من أبرز معالمها، ويحتوى على مجموعة معمارية بديعة تشغل الميدان الملكى، ويقع الباب بالواجهة وقد فتحت له فتحة كبيرة ثم دهليز مقبب أعد كمكان آمن لمن يحتفى به ويوصل إلى حى الحدائق الملكية، ويتكون المدخل من طابقين من القاعات الملحقة به مكوناً بذلك قاعدة المبنى، ومن أعلى المبنى يوجد جزآن، جزء داخلى اسمه "الثلار" وهو عبارة عن منصة شاسعة غطيت بسطح مسطح ويرتفع على ١٨ عمودًا من الخشب الرقيق والذي يطل على المكان من أعلى، والجزء الأمامى به قاعة للاستقبال أحيطت بثلاثة طوابق من الشقق السكنية التي زخرفت عن كاملها بالرسومات والتي تطل كلها على الخارج، وقد ساهمت الفتحات الكثيرة بالاستمتاع بالمناظر الطبيعية والهواء الطلق، ولهذا فقد استخدم هذا الطراز المعماري بكثرة فى القصور المقامة فى وسط الحدائق مثل "شهيل سوتون" أو قصر الأربعين عمودًا إحدى منشآت الشاه عباس.

ويقوم التخطيط على شرفة واسعة أمامها بركة طويلة للمياه التي ترمى بظلالها، ثم "الثلار" المقام سقفه على ٢٠ عمودًا من الخشب، كما غرس الإيوان بدخلات في العمق حيث يوجد كرسي العرش، والجزء الخلفي من المبنى تقع به قاعة عريضة تحتوى على ثلاث قباب محاط بها باحة معمدة تطل من الجانب على الحدائق، وقد خصص هذا القصر للاستقبالات والنزهة، كذلك ترتفع شرفاته بواسطة صفوف من الأعمدة المرتفعة من الثلار، وبدون جدار على هيئة "الأبدان" أو قاعة العرش عند الألكانيين.

والقصر الصغير ذو الجناح الثمانية "هاشت بهشت" شيده شاه سليمان (١٦٦٧-١٦٩٤) وهو مختلف تمامًا، فقد استخدمت الشرفة كقاعدة للبناء، والأروقة المسقوفة تطل على الخارج وبها فتحات كثيرة ذات تخطيط قوطي مشع، وهو يتكون من قاعة مركزية زينت بواسطة نافورة للمياه كما غطيت بقبة على هيئة فانوس، وهناك طابقان من قاعات الاستقبال المثلثة الشكل وملحق بها الحجرات ويصل عددها إلى "ثمانى جنات" تشغل كل واحدة منها زاوية من زوايا المثلث، إلا أن القصر اليوم أصبح في حالة يرثى لها من جراء ما أصابه من أعمال الترميم المتعاقبة.

الزخرفة:

والزخارف مثل تخطيط المساجد لم تأت بجديد سوى بعض التطوير في الطرز فظهر طابعها أكثر حساسية والتي وجدناها ممثلة في الزخارف الكتابية والهندسية والزهرية، وعلى الرغم من انكماش الزخارف الكتابية والهندسية فإن الزخارف الزهرية قد انتعشت، كما أضيف إلى الأوراق

النخيلية، والأزهار التقليدية بعض الأشكال التى أثرت على طابع الأرابيسك ليظهر طبيعياً، فالأزهار الصغيرة المبسطة كانت تلتحم مع السياق فى تلبسات الخزف فى الجامع الكبير ببزد عام (١٣٧٥)، وأيضاً فى الجامع الأزرق بتبريز، فقد تميزت زخارف العصر الصفوى بمحاكاتها للطبيعة، كذلك ظهرت الزخارف المرسومة أكثر تطوراً من زخارف السيراميك، والزخارف الزهرية فى "الأكابى" استخدمت فيها الأساليب الإنشائية، كما احتوت على بعض العناصر الغربية التى زادت من ثرائها.

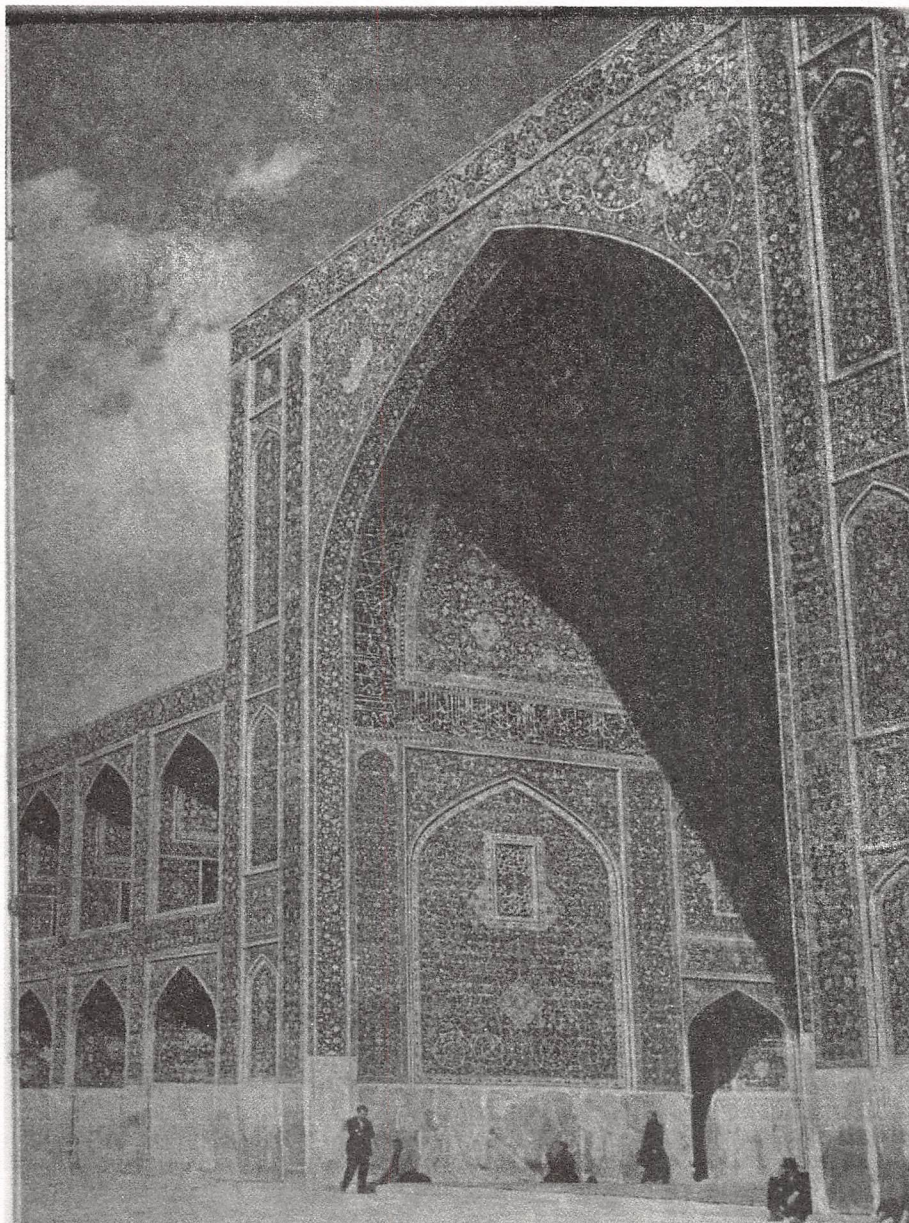
وهناك بعض التكوينات من الرسومات الأدمية المستوحاة من الطرز الأوروبية، مثل تصاوير النساء وهن يرتدين الفساتين المنتمية لعصر لويس الثالث عشر، وبعض السادة من الرجال الذين يرتدون الصديرى والقبعة ذات الطراز الفارسى الملكى، كذلك زخارف اللوحات والأقنية التى تتداخل مع بعضها فى انسجام خالٍ من التنسيق فى الحليات البيضاوية ذات الشكل المغزلى، وفى الأشرطة والعصابات التى ظهرت فيها بعض الطرز الصينية المعروفة باسم "تشى" Tchi. والتى تظهر فى التصاوير الصينية فنرى مناظر السحب والورود المبسطة التى تشبه زهرة اللوتس الهندية، وأيضاً العصفور-العنقاء ذا الذيل المتعدد الألوان، والتيس الذى يجرى ليفر من الكلاب، ومن خلال زخارف الأثاث، والمنمنمات فى المخطوطات استطعنا تحديد العناصر الزخرفية الجديدة فى الزخارف المعمارية.

التصاوير فى المخطوطات:

شهد عصر المغول التيموريين مجد مدرسة "هرات" التى ذاع صيت أستاذها "بهزاد" دون منازع، وفى عصر الصفويين ظهرت مدرسة يديرها الفنان المعتمد من الدولة "بهزاد" حيث أصبح له تلاميذ ومنافسون أيضاً وقد

عاش تقريبًا حتى عام (١٥١٤)، وكان التلاميذ يقومون بنمنمة المخطوطات التابعة للمكتبة الملكية، إلا أننا لسنا متأكدين من صحة جميع التوقيعات نظرًا للعمليات المتكررة من تزوير الأسماء وانتحال توقيع مشاهير الفنانين على بعض الأعمال الفنية، ومن أعظم الفنانين في تلك الفترة "أكا ميرك" و"سلطان محمد" وكانا يعملان عند "شاه تاهماسب" من (١٥٢٤-١٥٧٦) وقد تناولوا موضوعات مستوحاة من بعض الشعراء الفرس وخاصة "نظامي" من القرن الثاني عشر، ومن الرسامين المشهورين أيضًا "مظفر علي" و"ميرزا علي" و"قاسم علي" أو سيد علي" وكان الفنانون يستعملون الصفحات الكبيرة، يصورون عليها مناظر متعددة الأوجه ويمتد الرسم من أسفل إلى أعلى، وكذلك طريقة ترتيب الأثاث و تباعد بعضها عن بعض، وطريقة توزيع الضوء بالتساوي بين المناظر مما ساعد على إبراز روعة الزخارف، وفخامة الألوان، والتحوير في تصوير المناظر الطبيعية، ورسم الجبال الصخرية والسحب يذكرنا بالطرز الصينية التي أوحى للكثير من عظماء الفنانين في العصر التيموري.

وبخلاف بعض اللوحات ذات الطابع التاريخي والرومانسي فإن النصوص الشعرية قد ألهمت الكثير من الفنانين الذين برعوا في تناول الموضوعات الدينية والصوفية.



لوحة (٣١) مسجد الشاه - بأصفهان

وقد انتقلت إدارة مدرسة بهزاد إلى الأستاذ "سلطان محمد" أى مدرسة
التصاوير فى بلاط تبريز، وكذلك قد طلب منه عمل بعض المعلقةات من
الطنافس وبعض الطرز من الخزف.

ومن أهم تلاميذه كان الأستاذ "محمدي" الذى تعارفنا عليه من خلال
إحدى مخطوطاته البديعة والمحفوفة بمتحف اللوفر، وقد استخدمت الريشة
لتظهر المناظر الطبيعية والخيالية مع استخدام الألوان فى اعتدال، كذلك
صورت بعض جوانب الحياة الريفية، وهو تأثير يبعد عن الروح الإسلامية،
ذلك أن الفن الإيرانى قد عرف بحسه وولعه لتجسيم مظاهر الطبيعة والذى
يتقارب أحياناً مع التيار الواقعى الهولندى فى فن الرسم فى أوروبا،
وبالمدرسة الفرنسية المعاصرة.

وقد بدأ التأثير الأوروبى يظهر فى فن التصاوير فى عصر الشاه
عباس على يد الفنان الفارسى "على رضا عباسى"، وإليه تنسب اللوحات
الزخرفية فى قصر "الأكابى"، (ومن أعماله المحفوظة لدينا تصاوير مستوحاة
من Perugin وهو فنان إيطالى عام ١٤٤٨) ويصور فيها موت السيد المسيح
الذى تبكيه القديسات، ومن أعماله أيضاً تصاوير تحتوى على مناظر حسية
وغرامية، كما أجاد فن البورتريه الذى صور فيه وجهاء القصر بأصفهان،
وبموت على رضا عباسى وتلاميذه من بعده كان ذلك إيذاناً بنهاية العصر
الذهبى للتصاوير الفارسية.

فنون الأثاث:

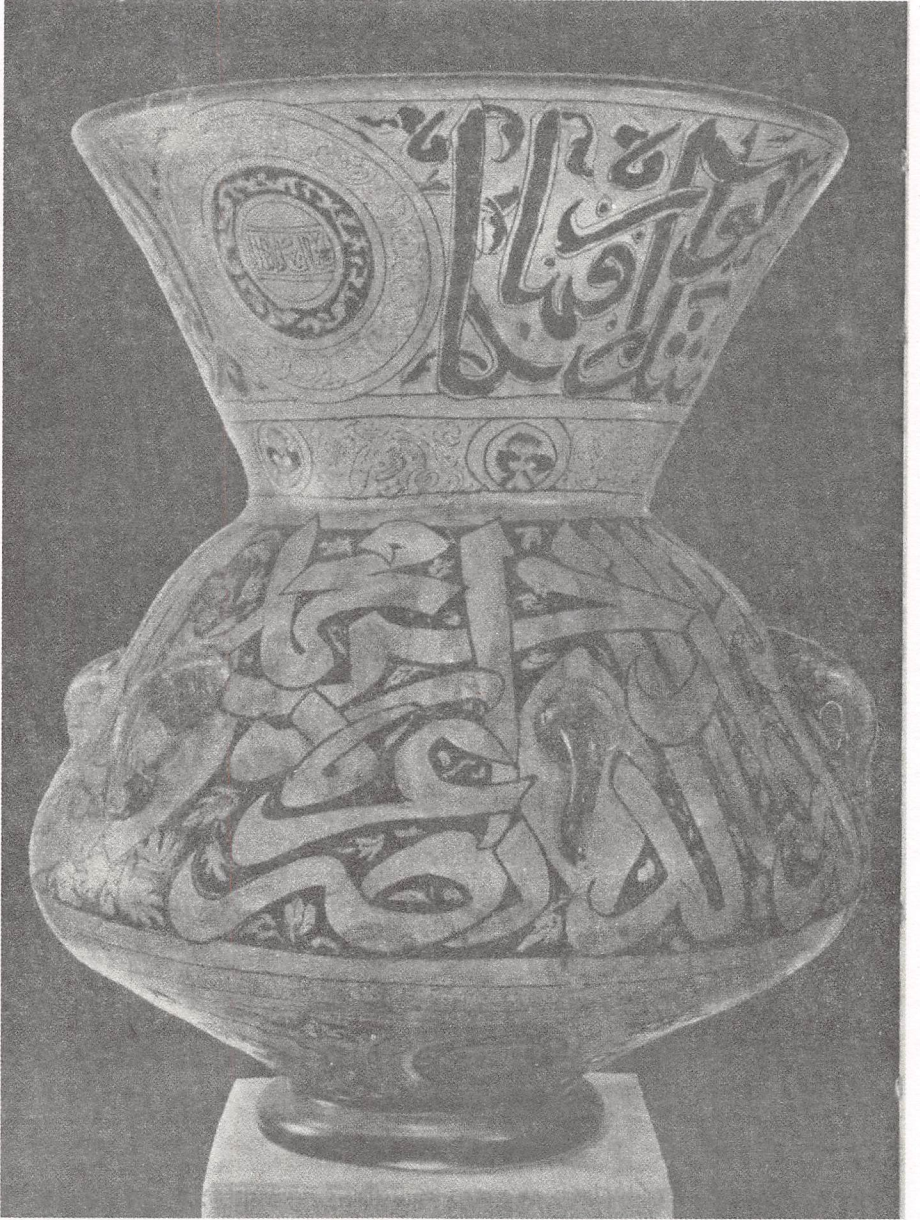
النسيج:

عرف الحس الإيراني بميله إلى محاكاة الطبيعة الذى بعد عن الطابع الفنى الإسلامى، وقد ظهر جليًا فى التصاوير والمخطوطات وفى زخارف النسيج.

وقد زخرفت الأقمشة الساتان، والقطيفة، والدمشقى ووشيت بالخياط المعدنية التى اشتهرت بها بعض المدن مثل تبريز، ويزد، وكاشان، كما استقت بعض الطرز من الفن الصينى إلا أنها استوحت معظم عناصرها من العالم الإيرانى، فالأشخاص صورت بكثرة وهى ترتدى الملابس الفارسية، ومناظر للقاءات الغرامية، والصيد، وتصوير الطيور مثل العصافير والأشكال ذات الأربع التى ترجع لتقاليدهم القديمة، ثم الزخارف النباتية من نبات السرو، والشجر المزهر، والورود، وزهور التوليب، وزهرة القرنفل، وزهرة السوسن و كلها تعلن عن أصولها الإيرانية.

صناعة الطنافس والسجاجيد:

تعد صناعة السجاد من أقدم الصناعات التى عرفتها منطقة آسيا، وقد أسهمت النصوص فى وصف السجاجيد التى زينت أبهى القصور الساسانية والعباسية والسلجوقية وقصور المغول كما وصلت إلينا بعض من هذه التصاوير.



لوحة (٣٢) مشكاة من أحد المساجد بمصر

وأولى القطع الأصلية المؤرخة لا يمكن أن ننسبها قبل القرن السادس عشر؛ أى عام (١٥٢٢)، وأهم مراكز صناعة السجاد تقع فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد فارس فى مدينة تبريز، وكاشان، وفى الجزء الشمالى الشرقى؛ مدينة هرات وأصفهان (انظر لوحة ٢٠).

وتتكون قطع السجاد الكبيرة من حافة عريضة تحيط بالمساحة الداخلية لها كما زخرفت من الوسط بحلقة بيضاوية مغزلية الشكل، أو نجمية وهى تشبه الركنيات التى تتبثق منها العقود الأربعة، والسطح غالبًا ما يكون باللون الأحمر الداكن أو الأسمر وقد ملئ بالأشكال الزخرفية التى سبق أن وجدناها فى زخارف النسيج.

وهناك مناظر للحيوانات وهى تتعارك، وأخرى للصيد وغالبًا ما تكون مصاحبة بالغيوم، كما صورت الطيور، والأوانى الزهرية والنباتات التى شكلت من الأغصان الرقيقة المتناغمة ولكن بدون ترتيب، ومن طرز السجاجيد على الأخص (سجاجيد الحدائق) أيضًا تلك التى صورت الحدائق وبها القنوات المستقيمة التى حفت بالأسماك والبط فى وحدات ملئت بالأزهار، وقد انتشر هذا الطراز فى بلاد الأتراك وخاصة فى الطنافس (السجادة الصغيرة للصلاة) حيث تحاط المساحة المزهرة بقنطرة تشبه المحراب.

الخزف:

عرف الخزف الفارسى من القرنين السادس عشر والسابع عشر بطابعه الرائع، وذوقه الرفيع وهى إحدى مميزات العصر الصفوى التى شاهدناها أيضًا فى السجاجيد، وقد ظهر تأثير الشرق الأقصى فى الخامات

والألوان التى استخدمها الخزافون، فهناك اللون الأخضر الفاتح أو الأخضر الرمادى، وفى الزخرفة اختلطت العناصر الفارسية مع الأخرى المستوحاة من الأشكال الصينية، كما انتشرت دور الخزف الشهيرة فى كل من مدينة كاشان، ويزد، وتبريز، وأصفهان، وشيراز وأردبيل وكدباشى الساحرة التى تقع فى جبال الداhestان.

فنون المعدن:

لم يحدث فيها تطور كبير، ومن أهم قطع الأثاث التى وصلت إلينا الأقداح النصف كروية، والشمعدان العالي من النحاس والأنابيب المخروطية الشكل ذات الأقدام الواسعة التى زخرفت بنقوش محفورة بدقة شديدة، ومن أعمال المعدن أيضاً الأسلحة الدفاعية مثل الدروع و التروس المستديرة أو المستطيلة، والخوذ التى تنتهى بقحف مدبب، وسواعد الدروع ذات الصفائح المفصلة مثل الزرد الذى يحمى الفارس وحصانه معاً، وكذلك الأسلحة الهجومية، مثل الرماح والسيوف والخناجر ذات المقابض العاجية أو المعدنية والملبسة ببعض الأحجار الكريمة.

فن بلاد الهند المسلمة:

ولا يمكننا أن نبتعد عن العالم الإيراني دون أن نلقى نظرة على الهند التى تعد وحدة واحدة لا يمكن تجزأتها، فبانضمام الهند إلى العالم الإسلامى الذى تفكك منذ العصر الأموى عام (٧١٢) كان ذلك إيذاناً لاسترداد نفوذه بعد أن بسط سيطرته من جديد على يد الأتراك الغزنائيين فى القرن الحادى

عشر ثم جاء الغوريون فى نهاية القرن الثانى عشر وهم قواد إيرانيون من بلاد أفغانستان، وابتداءً من القرن الثالث عشر خضعت نصف شبه الجزيرة لسيطرة الحكام المسلمين، وهى المرحلة التى تؤرخ أهم عمائرها الإسلامية التى سوف نذكرها.

والعمائر التى شيدها الحكام الغوريون أو أمراء دلهى لإقامة شعائر الديانة الإسلامية، والقصور التى خصصت للسلطين ظهر فيها الطابع الهندوسى البعيد تمامًا عن روح الفن الإسلامى، فهو إحياء لطراز "جاينا" الذى ازدهر فى "الراجبوتانا" وتقع بين إقليمى الجانج والهندوس.

وقد كسيت معابد جاينا من الخارج بالحجر الرملى الأحمر، وشكلت على هيئة أبراج متعددة، تظهر من قممها العالية كالغابة المكونة من ركائز التيجان المقوسة من أعلى، ومن الداخل ظهرت الزخارف كثيفة وقد قطعت كلها من الرخام، كذلك احتوت الأعمدة على نقوش بارزة من الأشكال الآدمية التى ترتفع فوقها القباب وقد شكلت بواسطة بلاطات طويلة كدست فوق بعضها كما غطيت بها القاعات والأطناف الملحقة بها، ومن هذه الطرز معبد "جبل أبو" وجامع "أمير الكبير" إلا أنه خلى تمامًا من زخارف الوجوه الآدمية، كما يعد من الأعمال المعمارية الهندوسية البحتة كذلك مسجد "قطب" فى دلهى والمؤرخ بالقرن الثالث عشر، وقد خلت مئذنته تمامًا من التنويج، ويبلغ ارتفاعها حوالى ٧٣ مترًا، وقد زخرف بدنها ببروز عمودية، وتحتوى على خمسة طوابق من الشرفات المستوحاة من أعمدة الهند من إقليم الجانج، فيما عدا واجهات هذا المسجد التى تقبت بها شرفات مقوسة ذات بتلتين وابتى أعطت من الخارج الشكل الفارسى.

وكذلك ضريح السلطان "إيلنتمش" فقد بنى على نسق مسجد دلهى، فيما عدا الاختلاف فى بعض العناصر الزخرفية فى النحت الذى تميزت به بعض الطرز الفنية الهندوسية.

كما بدأ النفوذ الفارسى يتأكد باستيلاء "بابر" وهو أحد أحفاد تيمورلنك على الهند عام (١٥٢٦) ليؤسس "الإمبراطورية المغولية الكبرى"، وللأسف لم يتبق لنا من عمائره المؤرخة بعده ولا من ابنه همايون الذى خلفه سوى القليل؛ ذلك عما عرف عنهما من شغفهما بالبناء والتشييد.

وابتداءً من عصر الإمبراطور "أكبر" حفيد بابر الذى اعتلى العرش فى النصف الثانى من القرن السادس عشر من (١٥٥٦-١٦٠٥)، فأسس مدينة "أجرا" أو مدينة "فتح بور سيكرى" التى تبعد عن أجرا حوالى ٣٧ كيلومتراً إلى أنه استقر فى مدينة "الله أباد"، وقد تجملت كل من مدينتى أجرا ولاهور فى عصر "جاهنكير بن أكبر"، ثم خلفه "شاه جاهان" الذى حكم من (١٦٢٧ - ١٦٦٦) وقد عرفت مدينة أجرا فى عهده أوج ازدهارها، كما أقام بها ضريحاً للسيدة التى أحبها حباً جمّاً، ثم جاء من بعده "أورنكزيب" وهو آخر الحكام المغول الذى حكم من (١٦٦٨-١٧٠٧) وإليه ترجع آخر عمائر الهند الإسلامية، وإن كانت شخصية "أكبر" قد طغت على الآخرين من حكام عائلته كذلك تشهد عمائره على سياسته التى انتهجها حيث تشبع بالتقاليد الفارسية والإسلامية معاً وقد اهتم بالموضوعات الهندوسية واحترم معتقداتها فأظهر تسامحه ومشاركته الوجدانية، كما عرف عنه ومن خلفه بالاصطفائية، وعلينا أن نلاحظ طبيعة العمائر ما بين اتجاهات أصحابها، ورؤية من نفذها من مهندسين ومعماريين، فقصر "أجرا" على سبيل المثال المبنى فى عهد أكبر قد

جاء مطابقاً للأنساق الجمالية المحلية، وقد شكل من الحجر الرملى الأحمر وبه واجهة ورواق وقاعة تحتوى على عقود مفصصة، وفى خلف المبنى أقيم كشكان فى الجزء الجانبى منه ترتكز قبابها على أعمدة محببة، وهذا الشكل المأخوذ من العمارة المحلية للبلاد سيصبح فيما بعد أحد العناصر الدائمة المصاحبة للعمائر المغولية، أما عمائر مدينة "فاتح بور" الملكية فقد حظيت بشهرة واسعة باحتوائها على عناصر وتأثيرات إيرانية، ومن أهمها الجامع الكبير الذى بناه "أكبر" وقد أكمله ابنه من بعده، ويحتوى على قبرين لشخصين مبجلين من العارفين بالله، ثم بوابة النصر العظيمة التى تعد من مفاخر عمائر الهند الإسلامية والتى توصل إلى جانب الصحن الكبير.

ويرتفع المدرج الذى يسبق البوابة ليظهر العقد ذو البتاتين و يصل طوله إلى ٢١ متراً من أسفل مفتاح العقد الذى غرس داخل إطار مستطيل ويبلغ ارتفاعه ٣٦ متراً، كما استخدمت الإيوانات الفارسية، وبالنسبة للخانات فقد استخدم المرمم الأحمر والأبيض، كذلك توج المبنى بالأروقة الكاملة، وبعض الأكشاك المغطاة بقباب أضافت إلى التكوينات الموجودة بعض العناصر الغربية والغنية بمصادرها الإيرانية، والصحن محاط بالأروقة من جانب القبلة وتمتد واجهة إحدى قاعات الصلاة الثلاث، التى تحتوى كل منها على محراب تسبقه قبة فارسية، وتفتح فى عمق المصلى الوسطى بإيوان يذكرنا بجامع أصفهان الذى تقام فيه صلاة الجمعة.

وقد أقام "أكبر" ضريحاً حيث ظهرت فيه التقاليد المحلية وقد استخدمه كقصر فى معاشه ليدفن به بعد مماته، ثم قام "جهانكير" بإتمامه من بعده ثم أعاد بناءه، ويتألف من حديقة واسعة تقع فى الوسط، وتحيط به أربع شرفات

ترتفع فوق بعضها، والمبنى مدرج هرمى الشكل، ويتألف كل دور من أجنحة وأكشاك مغطاة بقباب، كما تقع القاعة الجنائزية فى الشرفة العلوية المبنية بالرخام الأبيض، ويرجع طابع هذه القاعة الجنائزية إلى طرز المعابد البوذية البعيدة تمامًا عن النسق الإيرانى، كذلك رأينا التأثير الهندى فى ضريح "اعتماد الدولة" الذى شيدته "نور محل" زوجة "جهانكير" فى أجرا ليدفن به والدها الذى شغل منصب أمين خزانة المملكة وتمتد واجهة هذا الضريح بين زوايا الأبراج و تحتوى على قباب صغيرة محملة على الأعمدة، وتقع حجرة الدفن أسفل القاعة المركزية التى تعلوها مقصورة غطيت بسقف مقوس، والمقصورة من الداخل قد كسيت بالرخام الأبيض ورصعت بأحجار متألئة الألوان.

وقد أنشأ "جهانكير" جامع لاهور الذى أعاد من جديد التقاليد الفارسية، وكذلك فى تاج محل بأجرا فى القبر الشهير الذى شيده شاه جاهان لاستقبال جثمان زوجته ممتاز محل، وقد استمر العمل فيه حوالى ١٧ عامًا من (١٦٣٠-١٦٤٧)، كما كلف أكثر من عشرين ألف عامل للانتهاء منه، والضريح تحيط به الحدائق الجميلة، ويسبقه مستطيل ممتد من صفحات المياه المحاط بشجر السرو، وقد شكل الضريح وواجهته من الرخام الأبيض وتقبّت من أعلاها سقيفة ملئت بالمقرنصات، وألحق بها طابقان من الدخلات، ثم نصل إلى القبة المبصلة التى تتحصر بين أكشاك تعلوها الكتلة المئمنة، وفى الزوايا الأربعة للشرفة ترتفع ٤ مآذن مخروطية الشكل وقد انفصلت تمامًا عن باقى المبنى (انظر شكل ٣٨)، كما زخرف الضريح من الداخل بدرابزين حجرى، وبعض الحواجز وتصفحات من طبقات الرخام الأبيض والمنقوش بالرخام الأسود والأحجار الكريمة.

وإذا كان الطابع العام للمبنى، والقبة وتخطيط العقود ينم عن التقاليد الإيرانية، فإن المآذن والأكشاك والتتويجات ترجع للتأثيرات الهندوسية، كما أن اختيار الخامات المستخدمة، والتداخل في انسجام بين الأبيض والذهبي في قاعات تاج محل قد جعلها منفردة عن باقي العمائر المماثلة لها في بلاد فارس، كذلك أعطت الخطوط المستقيمة التي توارت فيها الخشونة لطابع هذه العمارة نوعاً من التماثل الذي يبعد به عن طابع الفن الشرقي ويفتح باب النقاش إذا كان قد استعين ببعض المعمارين الأوروبيين.

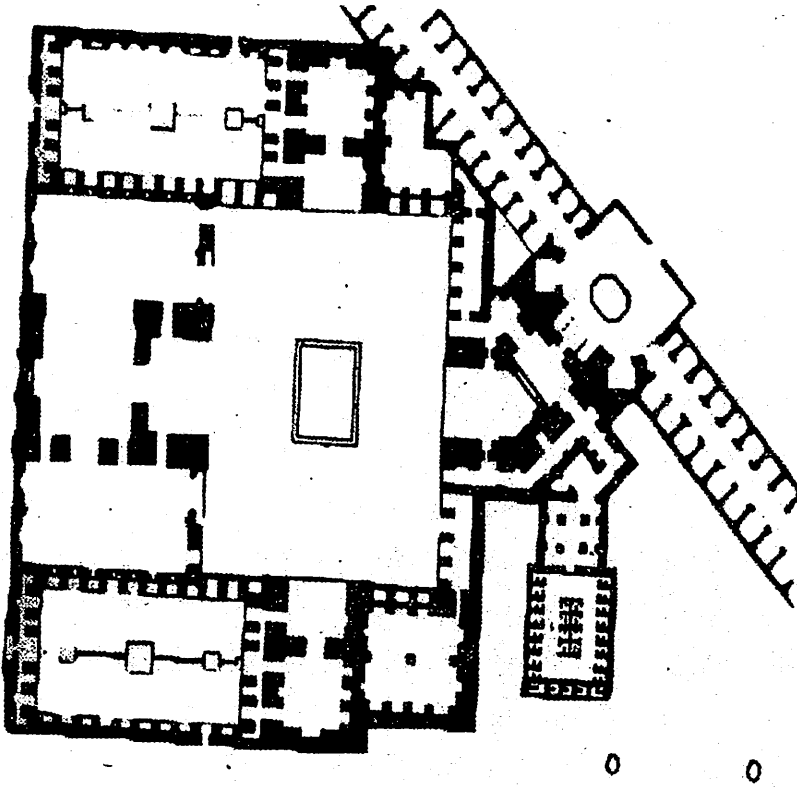
كما يرجع للشاه "جاهان" مؤسس مدينة "أجرا" بناء أحد أبهى مساجدها وهو جامع اللؤلؤة، وقد شيد في مدينة دلها قصره الشاسع ويحيط به سور ثم الحدائق، والأروقة، والقاعات المخططة بطريقة كلاسيكية والتي تتبئ زخارفها عن الثراء والبذخ.

الرسم المغولي:

انبثق الرسم الهندوسي في عصر المغول من إيران مثله مثل فنون العمارة، كذلك أمر الإمبراطور "همايون" باستدعاء اثنين من الرسامين الفرس وضم إليهما خمسين فناناً من الفنانين المحليين لتنفيذ أحد الأعمال الفنية العظيمة، ومن هنا بدأ ظهور أولى المدارس الفنية التي ازدهرت في عصر "أكبر"، كما بدأت المدرسة الهندية - الفارسية تتفرد بطابعها عن المدرسة التي انبثقت منها لتظهر فيما بعد المدرسة الهندية، وقد عرفت الهند منذ القرن الثاني الميلادي وحتى التاسع منه بفنانيتها من مصوري الجداريات، ومزخرفي المغارات التي استخدمت كمعابد بوذية وكذلك المتخصصين في

فنون المنمنمات والمخطوطات، وقد ظلت الرسومات المغولية مدينة لموروثاتها القديمة التى استقتها من تعاليم من أساتذتها القدامى، ومن طبيعتهم الشغوفة بالحياة التى كان لها أعظم الأثر على الفكر الإيرانى، كما عرفوا بميلهم إلى الطابع الواقعى الذى ظهر فى تصويرهم للمشاهد التاريخية للإمبراطورية، وبعض مناظر الحياة اليومية داخل أروقة القصر حيث كان يستدعى إليه كبار الفنانين ليصوروها، وقد ظهر الرسامون الذين أتقنوا فن البورتريهات وتصور الأشخاص وأجادوا ترجمة التعبيرات النفسية والاجتماعية لهذه الطبقة الأرستقراطية التى ظهرت واضحة فى رسوماتهم، كما وجدنا مناظر لقطعان الحيوانات و مناظر الصيد ومحاولة إبراز بعض فصائلها وتصويراً لمناظر الطبيعة التى يظهر بها تأثير الخدع الضوئية.

وهناك فروق ملحوظة بين مزوقى المخطوطات الفارسية ومصورى المناظر الطبيعية الهندوسية الذين داوموا على استخدام الضوء مع الظل فى تناوب، كما صوروا المساء والليل، أما رسامو البورتريهات فقد جسموا الوجوه وأظهروا التعبيرات بشكل بارز، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الفنانين كانوا على دراية كاملة ببعض أعمال الفنانين الأوروبيين التى أكسبتهم بعض الطرق التقنية، إضافة إلى ذلك فقد عرفت الهند فن النحت منذ حوالى ألف عام، وكان عندها من النحاتين الذين أهلوا فنانى المنمنمات المغولية نحو النزعة التعبيرية فى الرسم، وإبراز البعد الثالث فى التصوير التعبيرى.



شكل (٧) أصفهان - تخطيط المسجد الملكي

الفصل الثاني

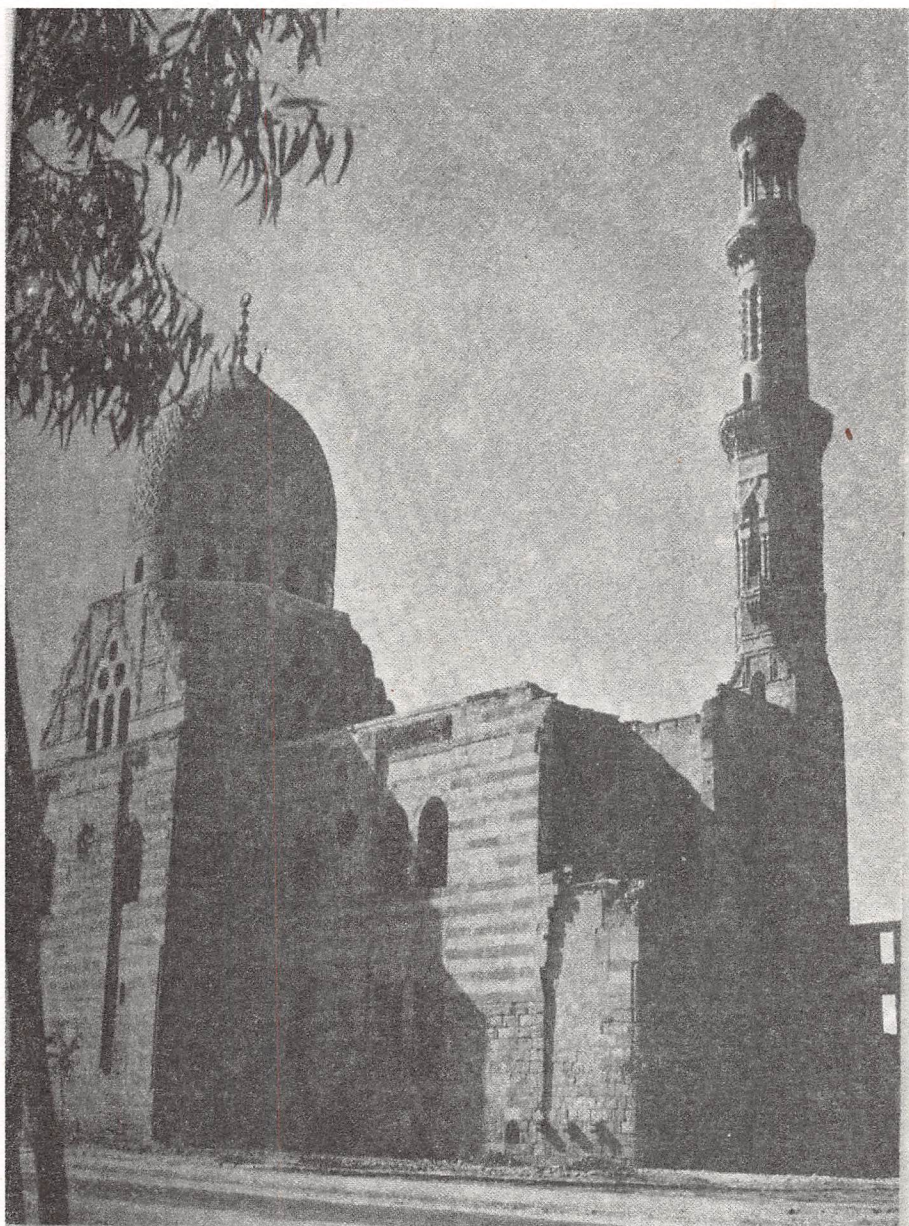
فن بلاد الأتراك (الفن التركي)

العمارة فى آسيا الصغرى والقسطنطينية:

حين وصل محمد الثانى إلى مدينة القسطنطينية فى عام (١٤٥٣)، التى كانت العاصمة العظمى للإمبراطورية، ثم بعد حوالى قرن قامت الإمبراطورية العثمانية ومدت نفوذها على العالم الآسيوى، وذلك على أنقاض مملكة الأتراك السلاجقة.

كان السلاجقة حكامًا على بروسه منذ عام (١٣٢٤)، وقد عرفوا بشغفهم فى تشييد المدارس والمساجد التى تأثرت ببعض الطرز البيزنطية المحلية التى ظهرت بوضوح فى الجامع الأزرق بتبريز وفى القبة القائمة على المثلثات الكروية، ومن أبرز قباب بروسه تلك الموجودة فى مسجد مراد الأول المؤرخ (١٣٥٩-١٣٨٩)، وفى مسجد "باجازات الأول" فى الديرين والمؤرخ (١٣٨٩-١٤٠٣)، ومسجد "محمد الأول" والمؤرخ (١٤١٥ - ١٤٢١) والمعروف بالجامع الأخضر، ومسجد "مراد الثانى" والمؤرخ (١٤٢١-١٤٥١)، وفى أماسيا، ومسجد "السلطان باجازات" والمؤرخ (١٤٥١-١٤٨٦)، وتتشابه هذه العمانر الدينية فى تخطيطها مع الجامع الأزرق بتبريز، حيث تحتوى على عنصر أساسى وهو القاعة الرئيسية ذات

القبّة الكبيرة، ومن جانب القبلة تتضاعف القاعة وتمتد بنفس العرض لتخرج ببروز داخل قبو برميلي أو على هيئة قبة صغيرة، والقاعات تضيق، وقد غطيت بأقبية أو بقباب صغيرة تفتح من جوانبها على القاعة المركزية كما تسبقها بعض الحجرات الجانبية، ويسبقها بهو، وتحيط بالواجهة الأجنحة التي تحمل الأقبية الصغيرة المتجاورة، وهكذا تحولت القسطنطينية إلى مدينة أسطنبول العامرة بهذه الطرز من المساجد الإسلامية التي انتشرت في بقاع آسيا الصغرى واستمرت حوالى مائة عام أى طوال النصف الثانى من القرن السادس عشر، مثل مسجد "محمود باشا" المشيد عام (١٤٦٤)، ومسجد "مراد باشا" المؤرخ بعام (١٤٦٦)، ثم مسجد "على باشا" عام (١٤٩٧)، والذى لم يختلف كثيراً عن عمائر بروسه الدينية.



لوحة (٣٣) مقابر الخلفاء فى القاهرة

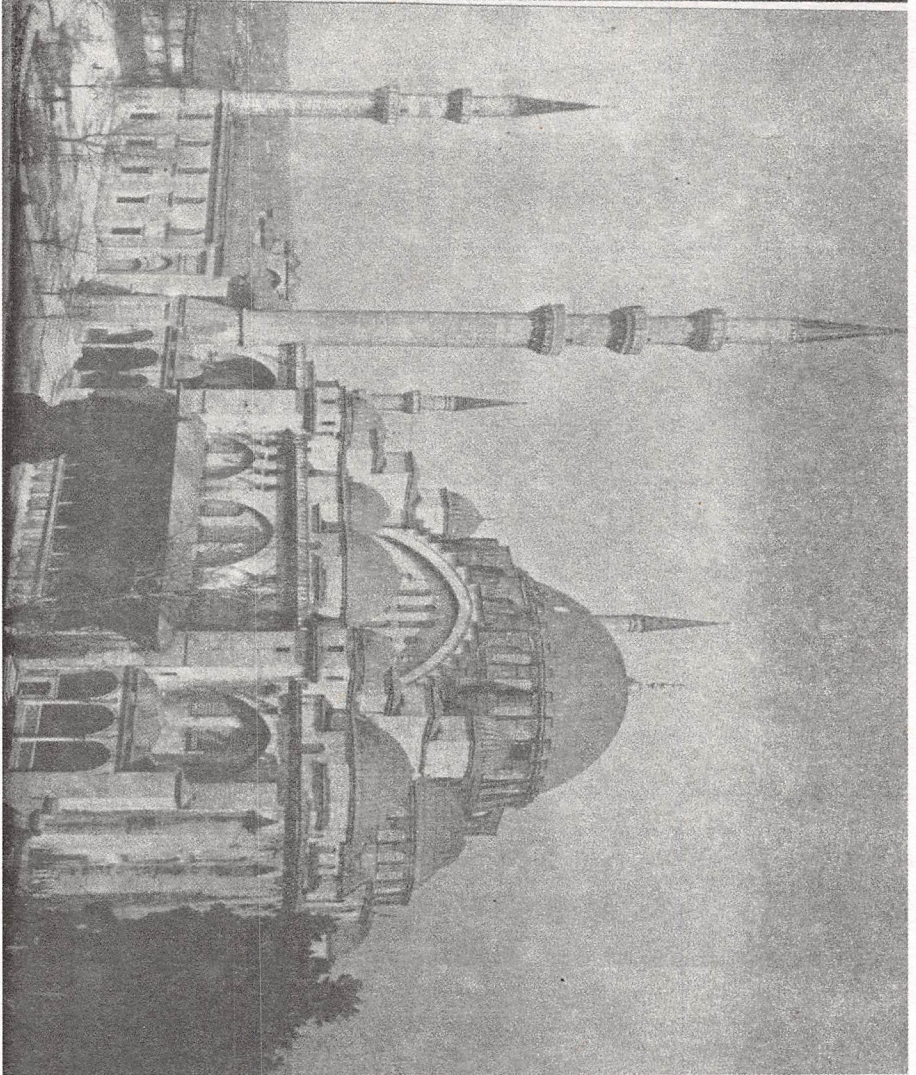
وفي مطلع القرن السادس عشر بدأ ظهور نمط معمارى جديد انبثق من التقاليد البيزنطية فى عمارة "سانت صوفى" لتصبح من أشهر عمائر هذا العصر بدون منازع.

وقد شيد هذه الكنيسة الكبيرة الإمبراطور جستينيان، وكانت تحتوى على بائكة مركزية مغطاة بقبة تحملها المثلاث الكروية، ويصل طول قطرها إلى ٣١ مترًا، وقد امتدت من الأمام إلى الخلف لتصل قبتين نصفيتين بنفس العرض.

ويوجد ممران جانبيان تعلّى من فوقها المنصات وتمتد لتصل إلى قلب الكنيسة، والمجاز يحتل الواجهة وينفتح على قاعة واسعة معمدة.

وقد بدأ البناء فى جامع السلطان "باجازات" عام (١٥٠١) على يد المهندس المعمارى خير الدين (١٤٨١ - ١٥١٢) حيث قام ببعض التعديلات به ليلائم إقامة الشعائر الإسلامية، فلاحظنا الاهتمام البالغ بإلغاء الأعمدة التى كانت تحيط بالقبة المركزية كما أزال البنائين النصف دائريين ليصبح المحراب خاليًا لا يعوق الناظر إليه من مقيمى الشعائر المتراصين فى الممرين الجانبيين، ثم تنتقل إلى مسجد السلطان "سليمان" المعروف بالسليمانية ويظهر فيه تخطيط سانت صوفى واضحًا تمامًا، وقد بدأ العمل فى السليمانية عام (١٥٥٠)، و يعد من أجمل وأعظم أعمال المهندس المعمارى الشهير سنان الذى ذاع صيته فى النصف الثانى من القرن السادس عشر (انظر لوحة ٣٤) وإليه ترجع العديد من العمائر المهمة التى وصل عددها حوالى ٣٤٣ وتدل على عبقريته، وفى السليمانية نجد القبة المركزية، وقبتين نصفيتين من الأمام والخلف ولكنهما لم يتوجا ببنايين نصف دائريين مثل سانت صوفى مما جعل المساحة الداخلية خالية من أى دعامات أو أعمدة أو أساطين، وهناك جناحان جانبيان غطيا بواسطة القباب الصغيرة المحيطة للفراغ المركزى المسقوف فى البناء مما جعل المسجد يميل إلى العرض أكثر

من الطول كذلك استخدمت الدعامات للأكتاف لإيجاد نوع من التوازن فى
القوة الرافعة للأقبية (انظر شكل ٨)

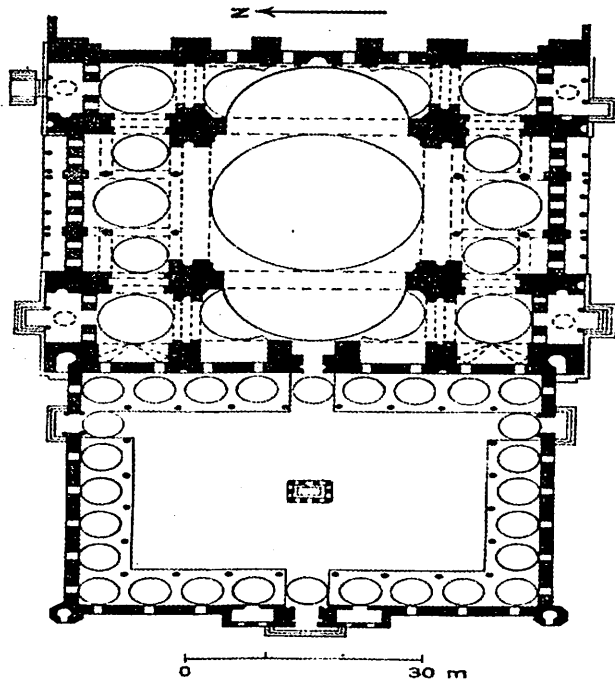


لوحة (٣٤) السلیمانیة بأسطنبول

وقد خلف سنان الكثير من المهندسين المعماريين الذين نوعوا فى التخطيطات المستقاة من العمارة البيزنطية وأخذوا منها الكثير من العناصر الأساسية، مثل القبة الكبيرة المركزية المحملة على المثلثات الكروية والتي تتوج بواسطة الأسطوانة الرافعة، وعلى جانبيها تفتح بعض الملحقات الجانبية المغطاة بقباب نصف دائرية، كما أزدوا من أعداد هذه القباب فظهر الشكل المشع ذو الفصوص الرباعية مثل مسجد "شاه زاده" المؤرخ عام (١٥٤٨)، ومسجد "يانى فاليدى" عام (١٦١٤)، ومسجد "السلطان أحمد" عام (١٦١٦)، كذلك ظهر التخطيط النفلى ذو المحاريب الثلاثة فى مسجد "سيكالى دوسكوتارى" عام (١٥٤٧)، بل إن المعماريين حاولوا ابتكار طريقة أكثر مهارة فى إرساء القبة الكبيرة على قاعدة مسدسة، ثم أربعة من العقود الستة المقوصرة استخدمت كدعامات وقد شكلت بواسطة زاويتين فى المحور المستعرض داخل البناء، والقباب النصفية تحتوى على الأقواس المقوصرة فى عقود الزوايا الموجودة فى زوايا المستطيل مثل مسجد "أحمد باشا" عام (١٥٦٩)، و"سوكولو محمد باشا" عام (١٥٧٢).

وإذا ما تتبعنا تطور تلك العماائر على مدار سبعة أو ثمانية عقود لوجدنا بها الكثير من الطرز البيزنطية بعد أن طيعت فى تخطيط البازيليكا المسيحية لتلائم إقامة الشعائر الإسلامية، وتعدد البواكى البازيليكا قد أعطى لقاعة الصلاة فى كل من مسجد قرطبة والقيروان امتدادًا فى مساحته الجانبية لتسمح بإقامة صلاة الجماعة بها، كما أنها تميل إلى العرض أكثر من العمق، وقد تلاشت نقاط الارتكاز التى تقطع بين صفوف المصلين وتحجب عنهم رؤية المحراب والإمام الذى يقيم بهم الصلاة، وهكذا قد تم تعديل تخطيط الكنيسة المسيحية ذات القبة الكبيرة لخدمة إقامة الشعائر الإسلامية.

وبخلاف التعديلات التي أدخلت على التخطيط البيزنطي فإن هناك الكثير من العناصر التي ساهمت في جعل هذه المساجد التركية من الأعمال الإسلامية المميزة، فقد اتسمت مآذنها بالارتفاع وتضمن من أعلاها، وتظهر في هيئة أبراج أسطوانية تحتوى على شرفتين أو ثلاث شرفات وتنتهى بنتويجة مستديرة الشكل مثل المبخرة، وتتحصّر المآذن في داخل كتلة البناء المشكل للمصلى، وفي بعض الأحيان تقام في أركان الصحن مثلما في مسجد "السلطان أحمد" الذي يحتوى على ست مآذن، وباقي البناء يظهر في شكل هرمى ضخّم وينتهى بقبة نصف كروية، وأقبية نصفية وأخرى صغيرة في الأروقة ومن بعض الصفوف المكونة للأسطوانة الرافعة، وكذلك في جدران الجامع الضخمة.



شكل (٨) تخطيط لمسجد السلطان سليمان أو السليمانية

ومن الداخل استخدمت العقود الحادة، والمقرنصات الموشورية التى زخرفت بها المثلثات الكروية، وبعض الصفائح المشكلة من الخزف والتى تعد من أروع الأعمال الفنية التى التصقت بالفنون التقليدية للعمارة الإسلامية.

العمارة فى سوريا:

بدأ الفن الجديد فى أسطنبول يمتد وينتشر فى جميع أقطار الإمبراطورية العثمانية التى تطل على البحر المتوسط، ولم تشهد سوريا عبقرية العمارة التى وجدناها فى عمائر سنان، بل إن معظم مساجدها مالت إلى البساطة، فالخطيط يتألف من قاعة واحدة غطيت بقبة كبيرة ترتفع على المثلثات الكروية على غرار العمائر العثمانية المألوفة منذ نهاية القرن الخامس عشر، وتتكون مآذنها من أبراج أسطوانية مرتفعة بها شرفات مركبة فوق بعضها وتتوج من أعلى بشكل مخروطى منسول يظهر مع القباب فى أروع المشاهد الطبيعية المميزة لصفاف نهر البسفور.

وفى سوريا توقف المعمارىون عن بناء المدارس حيث ازدهرت عمارة أخرى وهى "إمارات" التى تشبه مجموعة الزوايا فى شمال أفريقيا وتقع فى وسط مساحة شاسعة من الأشجار المنزرعة وبها مصلى، أو صومعة وخلايا لإقامة الدراويش والطلاب، كما توجد مطابخ، وقاعة طعام لخدمة الحجاج والمعوزين، وتعد تكية دمشق الكبيرة من أشهر النماذج لهذه الطرز من الأبنية الدينية.

كذلك لعبت سوريا دوراً جغرافياً مهماً كمر على الطريق الذى يسلك منه إلى مكة الذى أصبح مركز التقاء بين تجار ما وراء البحار؛ ذلك مما دعا إلى الإكثار من بناء الخانات، وكانت تتألف من قاعة كبيرة ذات مدخل واحد وتفتح عليها المخازن المعدة للبضائع والحجرات لإقامة التجار.

العمارة فى مصر:

وبوصول الأتراك العثمانيين لحكم مصر لم يكن ذلك إيذاناً بزوال طرز المماليك المعمارية، ففي عام (١٥١٧) الذى انتصر فيه سليم الأول على المماليك ووصل إلى القاهرة، أقيمت مدرسة الدشوطى ذات التخطيط المتعامد أى ذات ٤ إيوانات، كما ظل تخطيط الجامع ذى الإيوان الواحد مستعملاً خلال القرن الثامن عشر مثل جامع عثمان كتحدا المشيد عام (١٧٣٤) والذى مازال يحتفظ بترتيب شبه تقليدى.

وقد ظهرت فى مصر بعض الطرز الجديدة التى ترجع لمنطقة آسيا الصغرى والقسطنطينية، ويرجع طراز مسجد الغورى (١٥٠١-١٥١٦) فى أغلب الظن إلى منطقة الأناضول وبروسه، وربما مسجد حسن الرومى (١٥٢٣) أيضاً، ويحتوى على قبة مركزية، تتبعها قبة ثانية مشابهة لها تماماً حيث غرس فيها المحراب، كما احتوى التخطيط على قباب أقل حجماً، وأقبية بارزة، وأخرى برميلية ومحاط بها قبتان متوسطتان، والتخطيط النفلى لمسجد "سليمان باشا" المؤرخ عام (١٥٢٨)، به ثلاثة محاريب مستطيلة وقد غطيت بقبة نصفية تمتد بعمق على كلا الجانبين، وهكذا ظهر المربع الذى ترتفع عليه القبة المركزية كأحد الطرز الأناضولية، والرواق المعمد المقبب يشغل واجهة المبنى، كما يحاط الصحن أحياناً بالأروقة الممتدة أمام البناء.

والطرز الثانى للمساجد امتداد للأول وقد استوحى من الكنائس السورية القديمة الكثير من العناصر التى مازالت بعض أصولها يكتنفها الغموض بعد أن تم تحويلها بطريقة مشوهة لمبانٍ تقام بها الشعائر الإسلامية.

والتخطيط مكون من قاعة مربعة غطيت بقبة كبيرة، كما تلتف حول واجهاتها الثلاثة الأمامية والجانبية أروقة مغطاة بقباب صغيرة، وقد أحيطت بحاجز من المشبكات من الخارج ليفصل بينه وبين رواق الصلاة بواسطة الجدران الضخمة، وقد وجدنا هذا الطراز في مسجد "خوجه سنان" عام (١٥٧١)، ومسجد "محمد أبو الذهب" عام (١٧٧٣).

إن إحياء الطرز البيزنطية وازدهارها في عمار إسطنبول على يد المهندس المعماري سنان قد وجد صدى له في مصر في العصور المتأخرة، فابتداءً من عام (١٨٢٤) إلى (١٨٥٧)، جاء إلى مصر المهندس المعماري اليوناني الأصل "يوسف بوشنا" ليشيد جامع "محمد على" مؤسس مصر الحديثة والذي يتوج أعلى قلعته الحصينة (انظر لوحة ٣٥) ويظهر الطراز المشع ويحتوي التخطيط على قاعة واسعة مقببة ترتفع على مثلثات كروية والتي تغطي المربع المركزي حيث تقع أربع أساطين ضخمة في زواياها الأربعة.

وعند نقاط الارتكاز توجد العقود المربوطة وقد استخدمت كعقود رأسية تحمل أربع قباب نصفية، كما غطى الجناح المستطيل بقبة نصفية وقد غرس بها المحراب، وهناك رواقان يطلان على الخارج يشغلان المساحة الكلية لرواق القبلة، كذلك ترتفع مئذنتان في طرفي الواجهة التي تطل على الصحن الكبير ذي الأجنحة المعمدة والتي تؤلف الفناء الذي يقع أمام المسجد. وعلى الرغم من خشونة الطابع المركب لهذا الجامع فإن نسبة الجريئة، والتناسق التام في تخطيطه جعله يحظى بمكانة مميزة بين مختلف العمار الإسلامية.

ومن أهم العماائر الدينية فى مصر خلال العصور الإسلامية المتأخرة هى السبيل- كتاب أو (المدرسة - السبيل) التى ظهر نموذج لها فى عصر المماليك وهو المسجد-المدرسة، وقد بدأت تتفصل عن بعضها فى عصر قايتباى، وابتداءً من القرن السابع عشر والثامن عشر انتشر هذا الطراز المعمارى وكان يتألف من قاعة واسعة أعدت للتدريس، وبها مقعد يجتلس الدور العلوى، ومن أسفله توجد فسقية تسيل منها انمياد لتصل إلى النيشة التى توصلها إلى بركة أحيطت بالمتشابكات المفرغة ومن داخلها فتحة ليستقى منها الماء.

وابتداءً من القرن الثامن عشر أصبح السبيل عمارة قائمة بذاتها، وقد انفصل نهائياً عن المدرسة، ويتألف من تخطيط مضلع، أو دائرى وأحياناً نصف دائرى، وبه فتحات كبيرة مقوسة من أسفل الأطناف وتتفرج من أعلى ببروز فى السقف.

وقد احتفظت القاهرة فى العقود الأربعة الأخيرة بأعظم وأبهى دور السكن الخاص التى ميزت عماائر العصر المملوكى، ويقع الصحن أمام دور السكن، والباب يوصل إلى ممر مقبى يؤدى إلى هذا الصحن، وعلى أحد جانبيه غرست الدخلة أو النيشة "تكتابوش" والعتبة تستند على العمود، كذلك يسمح للغريب بالجلوس فيه ويوجد درج يوصل إلى المقعد الذى يشغل الصحن، أما المندررة أو القاعة الكبرى فقد خصصت للاستقبال فى فصل الشتاء والجزء المركزى مبلط وزخرف بفسقية، كما أحيط بإيوانين أو ثلاثة مسطحة وقد كسيت بالسجاجيد ومنئت بالأرائك.

أما الجزء المخصص فى المنزل لاستقبال الغرباء هو السلامك، والآخر المخصص للحياة الخاصة هو الحرمك وهما منفصلان تماماً، وهناك باب صغير يفتح على الصحن ويسمح بالمرور بواسطة درج.



لوحة (٣٥) صحن مسجد محمد علي

والحجرة الرئيسية هي القاعة التى تشبه المندره وتحتوى على مساحة مركزية وامتداد يظهر فى شكل الإيوانات مع بعض الاختلاف فإن القاعة هنا مرتفعة وتكاد تحاذى الشرفة وقد توجت من أعلاها بقبببة على هيئة فانوس مزجج ينبثق منه ضوء النهار ليضيء القاعة.

عمارة بلاد البرابرة:

وبعد أن ضم سليم الأول مصر إلى إمبراطوريته الجديدة بمساعدة القرصان المشرقى خير الدين "برباروس" فوقعت الجزائر ثم تونس بعد عشر سنوات تحت قبضتهم، ثم بنغازى والمولوية التى عُرفت فى أوروبا "ببلاد البرابرة".

وقد بدأ طابع الدولة العثمانية يترك بصمته على المدن الجديدة مثل الجزائر، ووهران، وقسطنطينة فى التحصينات التى أقاموها، ومن ثم فى تونس مدينة الحفصيين القديمة.

والجزائر لم يكن لها إرث من التقاليد الثقافية العتيقة إلا أنها أصبحت إحدى عواصم الخلافة العثمانية وانتشر فيها مذهب الحنفية أى مذهب الأتراك عامة وكان ذلك إيذاناً بظهور مساجد بعدت طرزها عن أصولها الشرقية والأناضولية والبلقانية ومازال يتبقى لنا منها الكثير الذى يرجع للقرن السادس عشر، وأقدم مسجد مؤرخ بعام (١٦٢٢) شيده هذا المارق على بيتشينين أو Picenino بعد أن تحول إلى كنيسة Notre-Dame- des- Victoires، وقد رمم عدة مرات نظراً للإهمال الذى أصابه، ويحتوى على محيط شبه مربع، والقاعة التى تسبق الصحن الصغير غطيت بالقباب؛ القبة الكبيرة المثمنة

وهي شبه مسطحة من الخارج وتستند على أربعة من عقود الزوايا، والأعمدة التي تقع في الزوايا والأساطين الجانبية، كما توجد ثلاثة أروقة منخفضة ومغطاة بقباب صغيرة ومركبة لتحيط بالمربع المركزي باتجاه القبلة، حيث يوجد المحراب بامتداد الواجهات الجانبية، وهناك رواقان يقعان باتجاه القبلة، ورواق مزدوج أمامي يشبه المجاز الذي يسبق قاعة الصلاة في بلاد آسيا الصغرى والأناضول، وهذا الطراز من المساجد أصبح مألوفاً في الجزائر، والقبّة المئمنة انتشرت عام (١٦٩٦)، وقد وجدناها في إحدى المقابر الإسبانية -البربرية التي دفن بها سيدي عبد الرحمن وهو أحد العارفين بالله من أهل المدينة، ومسجد القصبّة المؤرخ بعام (١٨١٩) الذي تحول الآن إلى قاعة متحفية، ثم جامع سفير الذي أعيد بناؤه عام (١٨٢٦) وهكذا استمر هذا الطراز من القباب حتى القرن التاسع عشر.

ومعظم تلك العمائر اندثرت تماماً فيما عدا مسجد "السيدة" لاسيما أو بالأخص نهاية القرن الثامن عشر ومسجد "كيتشاوا" عام (١٧٩٤) وقد حلت محله كاتدرائية الآن.

ويقع الجامع الكبير بمدينة وهران، وجامع "لالارويا" في تلمسان وقد احتوى على الكثير من العناصر الشرقية، ويبدو أن هذا النمط من المساجد لم يكن معروفاً في تونس ذلك أن إفريقية القديمة ظلت محافظة على طرزها القديمة مثل المصلى ذات الأعمدة، والأعمدة التي تحمل المداميك بواسطة أرجل العقود وهو ما شاهدناه سالفاً منذ القرن التاسع في مسجد "يوسف داي" في تونس والمؤرخ عام (١٦١٠-١٦٣٧)، ومسجد "حمودة بك" عام (١٦٥٤) وبالنسبة لقاءات الصلاة لم يعد يسبقها صحن واحد، بل أحيطت بثلاثة

أصبح أمامية وجانبية وهى أحد الأشكال المعمارية الشرقية، وكذلك تظهر المقبرة فى شكل ملاصق للمآذن فى طابع معمارى شرقى.

ومن ثم بدأ ملمح الهيمنة التركىة ذو الطابع المشرقى يظهر فى بعض العناصر المعمارية المهمة ومنها المئذنة فى كل من تونس والجزائر، وقد شكلت فى هيئة أبراج مربعة اشتقت من الطرز الإسبانية-البربرية، كما ظهرت المآذن فى شكل الأبراج المضلعة التى ترجع أصولها للحكام العثمانيين الجدد، والمآذن فى تونس اتسمت بالارتفاع فى عدة مساجد وبها شرفات وقد توجت عند نهايتها بحلية تشبه المبخرّة وكلها طرز جاءت من منطقة تركيا الواقعة فى أوروبا و آسيا.

وقد ظهر التأثير العثمانى جلياً فى كثير من العماائر الدينية البديعة بعد أن اختلفت تماماً طرز العمارة البربرية فظهر المسجد ذو القبة الكبيرة والمرتفعة وقد حملت بواسطة المثلثات الكروية، وفى جامع "المصيدة" بالجزائر (١٦٦٠) احتوت القبة على عقد حاد وتستند على أربع أقبية برميلية متعامدة وقد أدمجت داخل أربع قباب صغيرة، وفى الجهة المقابلة للقبة يمتد القبو البرملى ليتصل بالرواقين الجانبيين اللذين يحملان المنابر، ومسجد "سيدى محرز" بتونس الذى شيد عام (١٦٧٥) به قاعة سفلية حيث يقع رواق الصلاة من أسفلها، والقبة الكبيرة النصف كروية التى تغطى المسجد قد دعمت بأربع من القباب النصفية ثم أربع قباب أخرى فى الزوايا لتشغل المسافات الفارغة، وحتى يتسنى لنا توثيق طرز تلك المساجد علينا الرجوع إلى العماائر العثمانية حيث استمر بها إحياء لبعض التقاليد البيزنطية، وبالنسبة للمسجد الملحق به ضريح فى تونس يرجع لتأثير العمارة القاهرية.

وعلى غرار السلاطين المماليك فقد استمر الحكام العثمانيون الجدد فى بناء المدارس الجنائزية الملحق بها الأسبلة العامة أو الملحقة بها، ومن أهم تلك العمائر الباشية والسليمانية وترجع لعلى باشا (١٧٤٠ - ١٧٥٥)، وفى القسطنطينية توجد مدرسة سيدى "القطاني" والمؤرخة بعام (١٧٧٥)، حيث دفن بها مؤسسها "صلاح بك" وبعض أفراد أسرته وهى من الطرز الشرقية التى جاءت من تونس.

وقد تناولنا الزوايا قبل ذلك وكانت قبلة للزيارات والتبرك بها والالتفاف حول ضريح أحد العارفين بالله طلباً للرجاء، ومن أبرز الأمثلة زاوية "سيدى الجاليزى" فى تونس و"سيدى صاحب" فى القيروان.

العمارة المدنية:

احتفظت المدن البربرية وضواحيها بنماذج مميزة من العمارة المدنية، مثل القصور ودور السكن الخاص والتى التحمت فيها التقاليد المحلية مع الطرز التى جلبها الحكام الجدد من بلادهم.

وقد ساد التخطيط المؤلف من الصحن المركزى الموروث من المنازل الهلنستية فى كل من تونس والجزائر، وفى المنزل الجزائرى يؤدى الباب إلى دهليز أو "سقيفة" تحيط بها الأرائك، ثم نصل إلى مدخل متعرج وينفتح بمستوى واحد على الصحن المربع وقد أحيط بأربعة أروقة تحمل عقوداً ذات حدوة الحصان وحادة وتستند على أعمدة شكلت من الرخام أو الأحجار، وفى أغلب الأحيان كان الصحن يفتح على الدور الأول الذى نصل إليه بواسطة الدهليز عن طريق السلم، والحجرات التى تطل من أسفل على الأروقة

والصحن أقل عمقا وأكثر عرضًا، ثم نجد دخلة أو نيشة مسطحة من الداخل وقد غرست في الجدار المواجه للباب، وأحيانًا تظهر هذه الدخلة بعمق، ويميل التجويف إلى التربع وتجاوره غرفتان مستقلتان أعدتا للنوم.

ولزيادة العرض في الأدوار السكنية في الطابق الأول فقد نفذت الأجزاء الخارجية بتقوية وتطل من أعلى على الطريق، وقد حملت بواسطة جذوع من الأخشاب غرست بميل داخل الجدران، وهي أحد الأساليب المعمارية الأنضولية التي لجأوا إليها، وكذلك الشرفات فقد غطت المنازل لتصبح أحد ملحقاته، وقد احتوت منازل الأثرياء على حمام خاص.

وبالنسبة لدور سكن الأثرياء فترتيبه مماثل لدور السكن السابق ولكن نسبه أكبر، وبه فتحات تطل على الخارج، كما زودت بصحن، ومقصورات للاستجمام فيها مع الحقائق المميزة.

وقد صمم المنزل التونسي مماثلًا لطراز المنزل الجزائري فيما عدا بعض التفاصيل، فالدهليز أقل حجمًا وهناك أكثر من واحد، والصحن مستطيل ويحيط به رواقان ممتدان على جانبيه أصغر حجمًا، وجميع دور السكن في المدينة تحوى على حجرات خدمية؛ أى حجرات للخدم، والمطابخ، والمخازن والإسطبلات والتي تطل كلها على الشارع.

الزخرفة:

لعبت الزخرفة الدور الرئيسى كقيمة جمالية في العمارة الإسلامية، إلا أن عمليات التهجين المستمر لمدة أربعة عقود قد أثرت بالسلب عليها وبدأ يشوبها الانحدار.

ومما لاشك فيه أن الأتراك العثمانيين قد استحدثوا بعض الطرز المعمارية الدينية والمدنية فى القسطنطينية والتي تميزت بالتوازن والانسجام معاً والتي جابت مع فتوحاتهم جميع الأقطار المطلة على البحر المتوسط وانتشرت فيها، كذلك ظهرت الهيئة الخارجية للعمارة معوزة وتميل للخشونة، وتتألف الزخرفة من صفائح من الخزف ذات أغراض متعددة.

والأرابيسك قد بدأ يفقد طابعه المميز لتختفى المهارة فى الزخارف الجصية وهى أحد الموروثات الفنية العتيقة، كما تقلصت طرز الزخارف الهندسية وأصبحت رتيبة ومكررة، والزخارف الكتابية استخدمت الخط النسخى الخالى من أى رونق، فيما عدا الزخارف الزهرية فقد ازدهرت وأفرزت بعض الأشكال الجديدة، وإذا كان الفن الفارسى قد أضاف بعض العناصر النباتية التى تلاحمت فى انسجام تام مع فصيل النبات التقليدى الذى ظهر فى الفن الأوروبى والإيطالى فأتى ببعض التكوينات الفوضوية فى الزخارف المستخدمة فى واجهات العمائر كذلك بعض التكوينات المركبة ذات الطابع الخشن.

وفى تونس والجزائر ظهرت الكثير من التيجان، والأفاريز وبعض شواهد القبور وكلها من أعمال الرخامين الإيطاليين.

فن الأثاث:

ازدهرت فنون الأثاث عن الفنون الأخرى من المنحوتات والرسومات فى العمارة، كما عاود التأثير الفارسى للظهور والانتشار فى شتى أقطار البلاد الواقعة تحت الهيمنة التركية ليحل محل الأنساق السائدة وانتشرت

المنمنمات التى تناولت الموضوعات التاريخية لدرجة أصبح من الصعب التعرف على الطرز التركية، كذلك انتقلت كوكبة من الخطاطين والمذهبيين من تبريز إلى إسطنبول، ومن هؤلاء الفنانين "قالى دجان" وكان تلميذاً لأحد الأساتذة من ولاية جورجيا، كما تعلم على يد "أقاميراك" وهو من مشاهير الفنانين فى البلاط الصفوى، وقد اتسمت التكوينات التركية بالملح البارز أو الفلكلورى وتقليد لأشكال الطبيعة فى شكل كاريكاتورى واستخدام الألوان غير المتجانسة، ولأن الوجوه الآدمية غير مسموح بها فى زخرفة الآيات القرآنية، فقد لجأ المزخرفون إلى العناصر النباتية والكتابية، كما ظهرت فى الحليات ذات الخطوط المنحنية الأضلاع، وقد امتلأت الأفاريز العريضة بأسماء السور القرآنية، كما زخرفت الحواشى بأولى السور، وتحاط ببعض الصيغ التمهيدية مثل (سورة الفاتحة) فى القرآن الكريم.

وقد شهدت مصر فى تلك الفترة الكثير من الأعمال المميزة والرائعة فى اختيار ألوانها وبداعة رسوماتها.

الخزف:

لعب الخزف فى التكسيات أهمية ملحوظة وخاصة فى زخارف العمائر العثمانية، وقد احتوت أسطنبول على الكثير من المساجد والقصور ذات الزخارف الخزفية البديعة، وكلها تنسب إلى دور الخزف "بآسيا الصغرى" وعلى الأخص مدينة "أزنيك" ذات الشهرة العالية فى هذا المجال، كذلك احتوت اللوحات على الزخارف النباتية، ومصابيح الإنارة فى المساجد والصحون التى شكلت بأيادى خزافين من الأناضول، وقد ساد اللونان

الأزرق والأخضر اللامع مع التحديد بلون شديد الاحمرار مما يزيد من قوته
(انظر لوحة ١٠).

وننتقل إلى مجموعة أخرى تحتوى على أصحن ذات زخارف نباتية،
والرسومات تتميز بحرية التعبير والرونق، إلا أن درجات الألوان أقل حيوية،
وقد اعتبرناها من الأعمال السورية أو التي قد شكلت في دمشق إبان القرنين
السادس عشر والسابع عشر (انظر لوحة ٣٦) وأخيراً نصل إلى القرن الثامن
عشر، وكان إيذاناً لبداية تدهور صناعة الخزف في منطقة الشرق الأوسط،
وأيضاً لبعض دور الخزف المعروفة في أسطنبول، وكوتاهية (بآسيا
الصغرى) حيث تراجع حجم الأعمال الإنتاجية الخزفية، كما تضاعلت
الرسومات فيها، وأصبحت ألوانها باهتة، وفي تونس ازدهرت الصناعة
الفخارية ابتداءً من القرن التاسع وقد استمرت معه إلى اليوم، فقد كانت تصنع
بعض الإطارات ذات الزخرفة القوية من العقود الصغيرة وقد ملأت الأواني
الزهرية لتظهر في أجل أشكالها.

النحاس:

اشتهرت كلٌّ من إسطنبول والأناضول بالنحاسين المهرة الذين برعوا
في ابتكار الكثير من الأحواض النحاسية، والأباريق ذات العروتين، وأباريق
القهوة من النحاس المنقوش والمذهب والتي أخذت من بغض الأشكال المنمقة
المقلدة من النماذج الفارسية، وكذلك تأثرت بعض القطع المطروقة

والمحزوزة التى صنعت بأيادى فنانين من شمال أفريقيا وعلى الأخص من مدينة القيروان، وقسطنطينة أو الجزائر، كذلك أعدت بعض القطع النحاسية المدهونة للأغراض المنزلية مثل الصوانى، والأباريق ذات العروتين، والأطباق ذات الغطاء، والفساقى، وبعض الأوانى المستخدمة فى الحمامات، وكلها من الكماليات المستعملة فى الحياة الشخصية التى تحتوى عليها دور السكن البربرية.

الأقمشة والسجاجيد:

عُرفت شواطئ البسفور وآسيا الصغرى بإنتاجها الوفير للخزف، والنحاس، والأقمشة والسجاجيد حيث ظهرت تبعية الفن التركى للفن الفارسى، وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر جلب السلطان سليمان الثانى من تبريز إلى تركيا الكثير من عائلات نساجين الحرير المهرة، وقد اشتهرت مدينة بروسه بأقمشتها الحريرية القيمة والأنيقة والتى يمكن أن نعتبر مصدرها مدينة بروسه، وقد شكلت الأقمشة بأشرطة عريضة من القطيفة التى رسمت عليها الزهور الفارسية مثل زهرة التوليب والقرنفل والياسمين وزهرة النسرين.



لوحة (٣٦) طبق من الخزف منسوب إلى دمشق

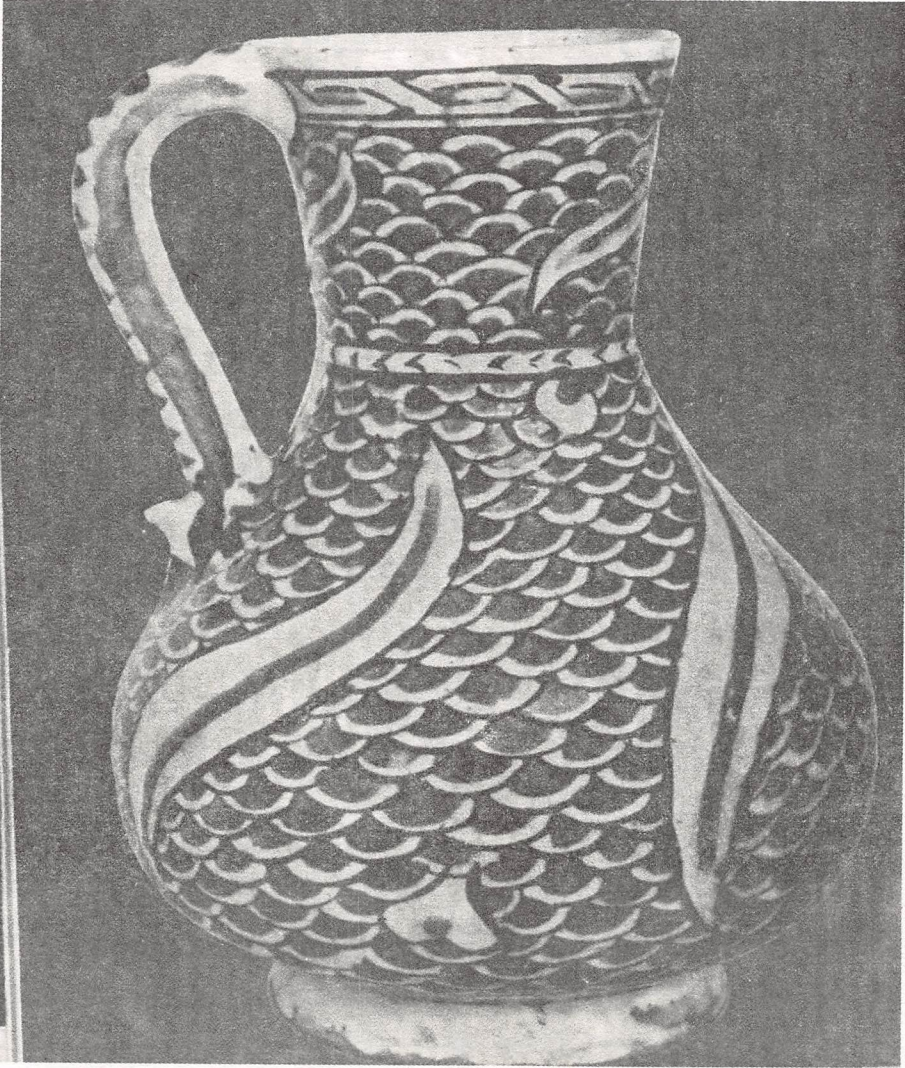
وهذه القطع النسيجية التي انتشرت في بقاع البحر المتوسط وجدناها مقلدة في بعض دور النسيج الإيطالية مثل فينيسيا وجنوة، أما السجاجيد فكانت تنسج من الصوف بدلاً من الحرير والتي ازدهرت في الأناضول، وأوشاك، وقوله، وجيوردس، وكانت تنسج السجادة بطريقة النقاط المعقودة

الأصغر حجمًا من الطرق المعروفة في طرز النسيج القديمة في فارس، والعناصر الزخرفية النباتية والكتابية أثرت على المحيط الصلب للهيئة التي كان عليها الرسم فبدت الزخرفة تميل إلى الشكل الهندسي مما سهل في طريقة صنعها، كذلك الألوان ظهرت متناسقة كما أضيفت بعض الصبغات المعدنية إلى الألوان.

واشتهرت منطقة آسيا الصغرى بصناعة سجاجيد الصلاة التي صدرتها إلى شتى بقاع العالم التركي وقد استنقت منها دور صناعة السجاجيد في شمال أفريقيا بعض الطرز، كما ازدهرت مدينة تونس والقيروان بسجاجيدها منذ فجر العصور الوسطى إلا أن طرز مدينتي جيوردس وقوله قد حلت محل الطرز القديمة في العصور المتأخرة، وتتألف الزخرفة من أرضية زخرفت في المركز بهيئة المحراب في سجادة الصلاة وتحيط بها الإطارات المزدوجة، كما ظهرت تكوينات مماثلة بألوان مختلفة عند صانعي السجاجيد من النساء الجزائريات من منطقة "جرجور" وهي إحدى القبائل الصغيرة من البرابرة، وأيضًا في القلعة "بوهرا".

وانتشرت صناعة السجاد في الريف الجزائري وخاصة في جبل أمور الذي اشتهر بصناعة السجاجيد الفاخرة من الصوف ذي الزخارف الهندسية وهو أحد لوازم الحياة البدوية، وقد عرفت كل من تونس والقيروان بصناعات النسيج حتى الآن، إلا أن تونس تميزت بالقطع النسيجية المخصصة للتجيد، وبعض ثياب المرأة الداخلية المتأثرة بالتقاليد المورسكية التي جاء بها المورسكيون معهم من إسبانيا أكثر من تأثرها بالتقاليد التركية، وبخلاف الأنسجة الصوفية التي تميزت بصناعاتها السيدات البرابرة في مختلف الأقاليم، فقد برعت الجزائريات التركية في توشية الحرير بالإيتامين، فصنعت منه الستائر والأوشحة وأغطية الرأس للحمامات التي احتوت على عناصر

زخرفية نباتية غاية فى الروعة والتي يبدو أنها استلهمت عناصرها من بعض قطع النسيج التى ترجع لعصر النهضة الإيطالى أو الإسبانى.



لوحة (٣٧) إبريق من الخزف (من رودس)

الفصل الثالث

الفن المدجن والفن المغربي

الفن المدجن:

بسقوط غرناطة عام (١٤٩٢) وانتصار الحركة المسيحية لاسترداد إسبانيا لم يكن ذلك إيذاناً بانتهاء تاريخ الفن الإسلامي، فقد ظل لمدة قرن من الزمان معروفاً لدى الفنانين ودور الصناعة باسم الفن المدجن الذى اشتق من الكلمة العربية، والتي ترمز إلى المسلمين الذين لم يتركوا إسبانيا المسيحية وبقوا فيها، وقد انتشر هذا الفن تدريجياً منذ القرن الثانى عشر حتى الرابع عشر، ذلك أن الحضارة الإسلامية فى نهاية القرن الحادى عشر قد تأصلت فى شبه جزيرة أيبيريا فوجدنا العناصر المعمارية الإسلامية فى نهاية القرن الحادى عشر قد تسلفت إلى واجهات الكنائس الرومانية، وكذلك تداخلت مع العناصر القوطية فى الكنائس مع الطرز الوافدة من فرنسا، وفى عائل عصر النهضة امتزجت مع طرز أخرى جاءت من إيطاليا حتى القرن الثامن عشر، وقد حمل الفن الإسباني هذا الطابع فى عروقه حتى صار الفن المدجن رمزاً يدل على عبقرية الأمة، ومن العوامل التى ساعدتنا على تصنيف الأعمال الفنية المدجنة هى إلمامنا بالظروف المحيطة بها، من حيث الظروف التى أحاطت بنشأتها، والعصر والمكان الذى أنتجت فيه هذه الأعمال، وتأثير الطابع الشعبى المتجدد فيها، وأخيراً التأثيرات الإسلامية أو المسيحية فيها، وسوف نسرد باقتضاب الدراسة التى قام بها الأستاذ مانويل جوميز والامبرت

.Dr Manuel Gomez et E Lambert

وقد ظهر أول فن شعبي مدجن في مدينة قصطة بعد الاستيلاء على مدينة طليطلة (١٠٨٥) وفي المدينة القديمة أنشئت سلسلة من الكنائس التي اعتقدنا لفترة من الزمن أنها من الأعمال المورسكية حيث تتشابه مع بعض العماائر المسيحية التي شيدت أثناء حكم المسلمين بإسبانيا، مثل كنيسة سان رومان San Roman التي احتوت على عقود مزدوجة، كما زخرفت برسوم من الأرابيسك وهي من أعظم العماائر، وننتقل إلى مدينة طليطلة التي زخرت بأجل المقابر التي زخرفت من الخارج بالطوب، واحتوت على الأجراس التي تشبه المآذن، وهكذا التحم الفن المدجن بالعمارة الرومانية والذي استمر لفترة طويلة في بعض الأماكن في إسبانيا، وقد ظهرت في مدينة قصطة القديمة عماائر ذات طابع مزدوج أى روماني-مورسكي الذي يميل إلى الطابع الإسلامي أكثر من المسيحي، كما استقى طرزها من التقاليد المحلية وقد ظهرت في بعض مقاطعات بمنطقة ليون San Tirso de De Lion (Sahagun)، وفي الأراجون Aragon، في كاتدرائية ترازونا وسراقصة Cathédrales de Tarazona et de Saragosse.

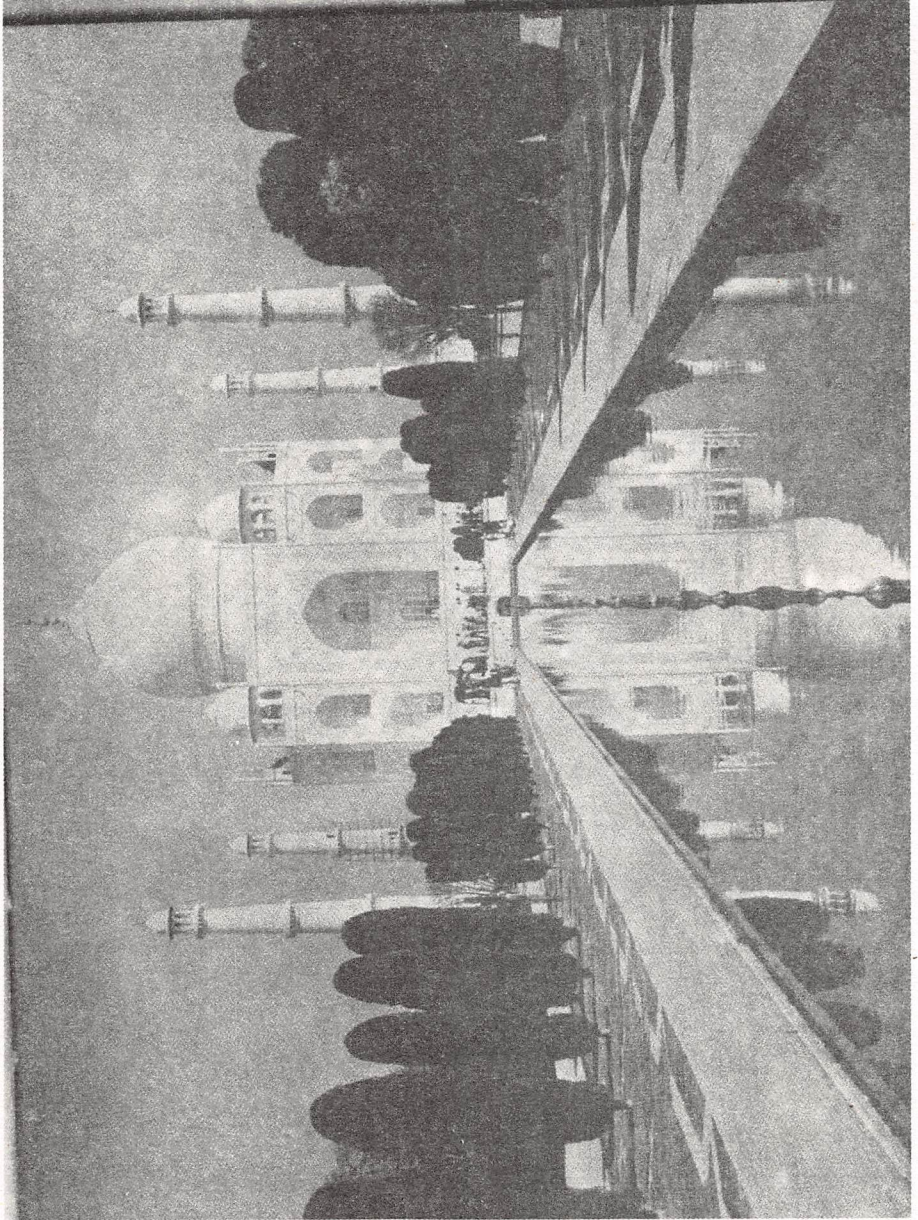
وبخلاف العماائر السابقة فقد ظهرت الأخرى المحلية والإقليمية ولكن تاريخها غير مؤكد، كما ظهرت بعض المنشآت لبعض الفنانين المسلمين الذين وفدوا إلى الأراضي المسيحية بعد أن وجهت لهم دعوة من الحكام المسيحيين الجدد، ومن أقدم تلك العماائر المعبد اليهودي بطليطلة المؤرخ بعام (١٢٠٠)، ثم تحول إلى كنيسة سانت ماري لابلاش Sainte Marie-la-Blanche وتحتوى على عقود ذات حدوة الحصان وتيجان من زهرة الأكنثس التي تتشابه مع فن المهادر، وفي الجامع الأموى الكبير بقرطبة قام الملك ألفونس لوساج عام (١٢٥٢-١٢٨٤) Alphonse le Sage ببناء الكنيسة الملكية المعروفة بسان فرناندو San Fernando لإقامة شعائر الديانة المسيحية

الكاثوليكية والتي أعيد ترميمها في عام (١٣٧١) مرة أخرى على يد الملك هنري الثاني دو ترنستامار Henri II de Transtamare، والقبة المحملة على الأضلاع قد زخرفت بالمقرنصات والزخارف النباتية التي ترجع لفن غرناطة المعاصر، ومن أشهر العماثر الملكية قصر إشبيلية الذي بناه بيير لأكرويل Pierre le Cruel عام (١٣٥٤) مكان أحد قصور الحكام المسلمين "القصر" أو Alcazar المؤرخ بالقرنين الحادي عشر والثاني عشر، والمطابق لتخطيط القصر، وقد تمت به عدة تعديلات في كل من القرن السادس عشر والسابع عشر والتاسع عشر، وهذا القصر الأندلسي يتكون من صحنين وقاعتين شاسعتين، كما زخر بأبهى الحدائق التي يظهر فيها حس فناني غرناطة، وولع الملوك المسيحيين بالفن الإسلامي (انظر لوحة ١٥، لوحة ٢٣)

في عصر الملك Pierre le Cruel قام أحد الوزراء وهو صموئيل هليفي Samuel Halévi، وكان وزيراً للمالية حينذاك ببناء المعبد اليهودي المسمى الترانزيتو El-Transito في طليطلة عام (١٣٥٧)، وكان يتألف من قاعة بسيطة مستطيلة مغطاة بسقف بديع من الخشب، كما زخرفت جدرانه بإطارات وأفاريز تحتوي على زخارف زهرية وكتابية، ومن الأعمال المدججة الأخرى في طليطلة وجدنا Casa de Mesal Burgos شيد الدير الملكي دولاس هويلجاس de Las Huelgas والذي يؤرخ بالقرن الثالث عشر والرابع عشر، وقد استقت الكثير من الطرز الأندلسية، وهكذا ظهر الفن المدجن حتى نهاية القرن الرابع عشر مزيجاً من الفن القوطي والفن الإسباني البربري (انظر Lambert)، وكانت هذه الفترة عصيبة لكثرة الاضطرابات في إسبانيا أعقبها مجيء الملك Henri de Transtamare حيث بدأ في تشييد العماثر الحربية وترميم المتاريس، وبناء أبواب المدينة،

والحصون، ومن أجمل الأبواب فى طليطلة "puerta del Sol" وقد استخدمت فيه العقود ذات حدوة الحصان، وطريقة ترتيب الجدران من الأحجار المقطعة المستوحاة من تقاليد وطرز طليطلة، وفى مدينة سيجوفى Ségovie شيد القصر الملكى ذو الطابع المنفرد، وفى مدينة برجس Burgos يوجد باب سان استبان San Esteban الرائع، وبقايا قصر كوكا Coca العظيم وهو عبارة عن كتلة معمارية من اللون الأحمر وترتفع فيه المراقب والحصون، وبالنسبة للزخارف الداخلية لمساكن عليا القوم فى طليطلة، وسيجوفيا قد امتزجت ببعض الطرز الفنية القوطية الفرنسية ومع زخارف الأرابيسك الأندلسى، ويعد القرن السادس عشر آخر مرحلة من مراحل تطور الفن المدجن بعد أن التحم ببعض الطرز الوافدة من إيطاليا، وفى عام (١٥١٠) قام الكاردينال كسيمنز Ximenès بزخرفة القاعة المخصصة للجماعة الإكليريكية فى كاتدرائية طليطلة، حيث استوحى الفنان بوناردينو بونيفاسيو Bornardino Bonifacio الكثير من الفن الإسلامى والذى ما زالت أشعته تخلصنا إلى الآن.

وهكذا أضفى هذا الطابع الفنى الإسلامى إشعاعه على الكثير من العمائر الدينية فى مدينة طليطلة وبعض المدن المجاورة لها مثل سيجونزا، وقلعة هنارس Sigüenza , Alcala de Henarès ، كما كان لعصر النهضة الإيطالى الذى نقل إلى إسبانيا تأثيره الواضح على التقاليد الأسبانية البربرية أو المورسكية فى إشبيلية وفى قصر دوق طريفة والمعروف باسم بيلاتوس "Pilatos" حيث استمر الذوق وطابع قصر الحمراء فى الفترة التى حكم فيها هؤلاء الحكام الثلاثة لغرناطة.



لوحة (٣٨) تاج محل - بأجرا

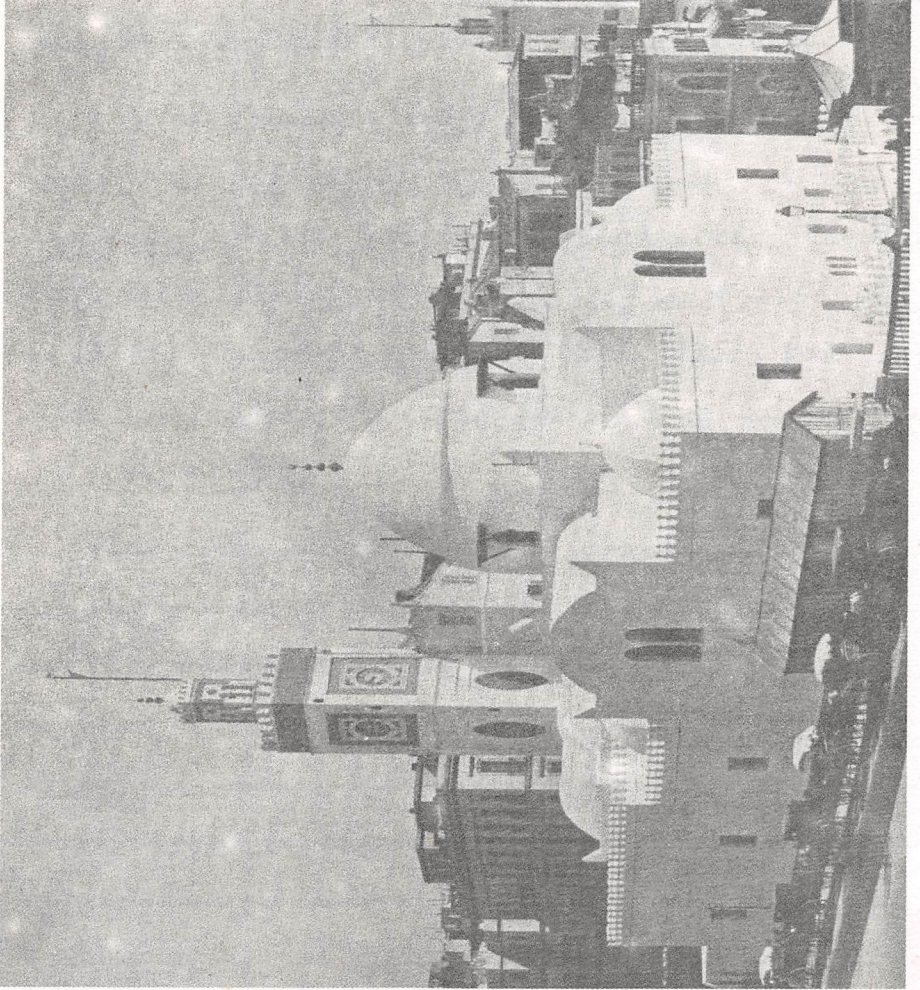
الفن المغربي في عصر الأسرات الشريفة:

استطاع الأتراك العثمانيون فرض هيمنتهم على جميع الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط فيما عدا المغرب حيث توقف مداهم ناحية الغرب عند المولوية، لتظل المغرب خارج دائرتهم، وهكذا استطاعت الدول الواقعة في أقصى الغرب الحفاظ على استقلالها، كما لم يتأثر فنهما بالحضارات الأخرى وظل محافظاً على طابعه العتيق.

وبعد أن غزت إسبانيا حضارة بلاد المغرب لمدة سبعمئة عام، ثم تم استرجاعها على يد المسيحيين وتوقفت أى إضافة جديدة لبلاد المغرب، من هنا انطوى المغرب على نفسه وبعد عن التأثيرات الخارجية، والطرز الإسبانية الكاثوليكية من الطرز الشرقية، والصيغ الفنية الشهيرة من عصر النهضة الإيطالية، وفرساي والتي لم يكن لها سوى صدى ضعيف ظهر فقط في قطع الأثاث التي انتقلت من إقليم لآخر مع الفنانين، أما الأشكال والتقنيات فقد احتفظت بنسقتها القديم مما أصابها بالتصلب والستهجن، وبعد أن حل الأشراف السعيدون مكان الميرينيين بدأت المغرب تتعرض لتهديدات من قبل البرتغاليين، ولكن الانتصار الذي حالف أحمد المنصور وانتصاره على البرتغاليين كان له تأثير على المغرب من حيث الثروات والموارد التي جلبها من إحدى حملاته في أفريقيا مما ساعده في الربع الأخير من القرن السادس عشر باستعادة النشاط المعماري والذي استفادت منه كثيراً مدينة مراكش.

قام أحد أسلاف المنصور وهو مولاى عبد الله من (١٥٥٧ - ١٥٧٤) ببناء مدرسة جديدة عرفت بمدرسة ابن يوسف، ذات التخطيط الكلاسيكي، ونسبها كبيرة وهي تتألف من صحن كبير، وقاعة واسعة لإقامة الصلاة، وبعض الممرات التي تؤدي إلى الغرف المتعددة المخصصة لسكن الطلاب وتلنف حول سبع فسحات صغيرة، وقد شيدت والدة المنصور عام (١٥٥٧)

مسجد "باب دكالة" والذي استقى ترتيب السبع بواكٍ، والقباب الثلاث، و
المجاز من تقاليد المهاد المعمارية المحلية، ثم أضيفت أربع قباب أخرى عند
نهاية الأروقة التي تسبق قاعة الصلاة، وفي وسط الرواق الأمامي للصحن
وفي إحدى زوايا الرواق نفسه مما زاد من ثرائه.



لوحة (٣٩) الجامع الجديد - بالجزائر

وقد عرف المنصور بثرائه، وإليه يرجع بناء قصر "بادي" الشهير فى مراكش والذى استمر العمل فيه لمدة خمسة عشر عاماً ولم يتبق منه الآن سوى بعض البقايا وكان يتألف من قاعة واسعة مستطيلة، تجرى فى وسطها صفحات المياه ومحاطة ببعض المنشآت، وهناك مقصورتان ملحقتان بمقدمة البناء على الجانبين الأصغر حجماً للمستطيل ويشبه قاعة الأسود وقصر مورية.

ومن أعظم المجموعات المعمارية التى تنسب إلى السعديين، والأكثر شهرة هى الجبانة التى تجمع مقابرهم والتى يرغب السائحون والوافدون فى زيارتها، وتقع بجوار جامع المهاد المعروف بجامع القصبة فى مراكش، وتحتوى الجبانة الملكية على ضريحين؛ الأول مؤرخ بعام (١٥٥٧)، والثانى عام (١٦٠٣) والضريح الأول يرجع للطرز التقليدية لقباب (المغاربة) بمراكش ويتكون من بناء مربع ومغطى بسقف من القرميد محمل على أربع زوايا ويغطى قاعة الدفن.

والضريح الثانى تخطيطه أكثر تعقيداً، ويحتوى على ثلاث قاعات؛ الأولى فى الوسط ومربعة الشكل، وتحيط بها قاعة مستطيلة أصغر حجماً منها، وقاعة الصلاة التى تحتوى على المحراب، والقاعة الوسطى تحتوى على جزء مركزى ترتفع فوقه القبة الخشبية ذات المقرنصات التى تتركز على اثنى عشر عموداً من الرخام، ثم أربعة أروقة منخفضة تشكل دوراناً من حولها أى (رواق من جانب من جوانبها الأربعة) وهناك بعض النصب أو اللوحات الموشورية المشكلة من الرخام وتمتد من تحت القبة التى فى الوسط تشير إلى قبر "أحمد المنصور"، كما تحمل الزخرفة تأثير الثراء ولكنها تميل إلى الرتابة والافتقار إلى الأفكار، إلا أن الطابع العام للضريح يشد نظر السائح الأوروبى عند زيارته له (القبر أو الضريح).

واستخدام زنجار الجص فى تداخل مع اللون الرخامى العاجى اللامع،
والنكسيات الخزفية، والأسقف المصنعة من خشب الأرز والمدهونة بالذهب،
ومرور الضوء من أسفل الباب إلى داخل الضريح قد أضاف له نوعاً خاصاً
من السحر (انظر لوحة ٢٦).

وقد عادت إسبانيا مرة أخرى لتصدير بعض العناصر الحضارية إلى
المغرب؛ ذلك حين قرر الملك فيليب الثالث عام (١٦١٠) طرد البرابرة من
إسبانيا آخر الشعوب الإسلامية فيها، فخرجوا كلاجئين إلى المغرب محملين
بحضارتهم المورسكية معهم.

وقد استقبلت بعض المدن الأسبان -البرابرة (المورسكيين) عند عودتهم
مثل تونس وتستور، ومدن أخرى تونسية، والرباط التى تعد مهبط رأسهم،
حيث طبعت بطابع شبه جزيرة أيبيريا.

وظهر الطابع المورسكى على عمارة المنازل فأصبح المدخل (يطل
على الشارع) متأثراً بعصر النهضة فى إسبانيا.

وبالنسبة لمدينة مراكش عاصمة الأشراف السعديين، فقد حل محلهم
الأشراف العلويون وعلى رأسهم الأكثر قوة للأسرة الحاكمة مولاي إسماعيل
الذى حكم من (١٦٧٢ - ١٧٢٧) بعد نقل مقر إقامتهم إلى مدينة مكناس،
وكان مصاحباً لتلك الفترة فى الغرب حكم لويس الرابع عشر، ويعد مولاي
إسماعيل من كبار حكام قبائل البرابرة فى الجنوب، وكان له الكثير من
الإنجازات فى العمارة، فكان يغطى جدران منشآته بكميات كبيرة من التراب
المدكوك، ومن الداخل كان يقيم حراسه من العبيد السود، وهناك أيضاً

التكنات العسكرية، والإسطبلات، والدكاكين التى قسمت بواسطة أحواض النباتات المزروعة، وقد امتد الحى باتساع فى الجزء الجنوبي-الشرقى للمدينة موازيًا تقريبًا للمساحة الكلية للمدينة نفسها، وعلى الرغم مما أصاب هذه العمائر من عوامل الهدم فإنها تدل على الميل للفخامة وهى إحدى مميزات السلاطين المغاربة.

وقد استمر هذا الحس عند خلفائه من بعده فظهر فى جامع مكناس المعروف باسم "جامع روا" وينسب لحفيده "محمد بن عبد الله" والمؤرخ (١٧٥٧ - ١٧٨٩)، ويتألف من صحن مربع يبلغ طول ضلعه حوالى ٥٥ مترًا، وقاعة الصلاة بها ٤ أجنحة مستعرضة و ١١ عارضة.

كما ظهرت الأبواب شاهقة مثل باب "منصور أولج" والإطار مزخرف بتلييسات من الخزف، ومحاط به برجان يرتكزان على قاعدتين ذوى أعمدة تظهر فيهما مهارة التكوين المعماري والطابع التقليدى فى أبواب المدينة.

وتقع أمام مدينة مراكش ومكناس مدينة فاس القديمة التى بناها الإدريسيون، وهم من الأشراف من حكام المغرب الذين استطاعوا الحفاظ على مجدها الدينى، كما قام الأشراف السعديون بزخرفة جامع القرويين بإضافة مقصورتين ملتصقتين بجوانب الصحن والتى تذكرنا بالمقاصير الموجودة فى قاعة الأسود بالحمراء، ثم جاء من بعدهم العلويون و فى عام (١٦٧٠) قام مولاي الرشيد، الجد الأول لهذه الأسرة الجديدة ببناء مدرسة الشرائطين، وتخطيطها تقليدى، إلا أنها تميزت عن المدارس السابقة بالسكن المعد لإقامة الطلاب والذى يتألف من ثلاثة وأربعة طوابق، ومن أعمال العلويين الأخرى مسجد "مولاي عبد الله" وتاريخه غير محدد، ومسجد "باب

جيسا "وتلتصق بهما المدارس، والتخطيط منظم ومألوف (انظر هنرى تيراس H·Terasse)، والصحن فى المدرستين مربع ويحتوى على قاعة للصلاة أروقتها مستعرضة ومماثلة لترتيب المساجد فى مدينة فاس، وسبق أن درسناها فى عصر المرينيين.

وفى عام (١٨٢٢) قام مولاي عبد الرحمن العلوى بإحياء التقاليد القديمة كما أظهر تبجيله لمؤسس المدينة وأعاد بناء ضريح مولاي إدريس.

وقد استخدمت مدينة "مجزن" فى المغرب كمقر لإقامة الخلفاء ذلك حسب ما تطلبه السياسة أحياناً فأقاموا بها القصور لاستقبال زائريهم من الأمراء، ودور السكن البديعة لموظفى البلاط، وكانت المدن تتبع المحيط الدائرى للمدن، كذلك احتوت القصور فى مراكش ومكناس والرباط وفاس بمبانيها الفخمة والجزء المخصص للحريم أو الحرملك، والمشوار (وهو المكان المخصص لاستقبال القبائل) والأصحن المملوءة بنباتات الزينة المختلفة، وبعض الإنشاءات الخارجية، والحدائق الشاسعة العامة والخاصة منها للترفيه والاستمتاع، وقد أضافوا المقصورات المسقفة بالقرميد التى تخترقها صفحات المياه.

وقد أضافت المياه والزهور والأشجار المزيد من الجمال والبهجة على المنازل التى تقطنها الطبقة البرجوازية من المغاربة المولعين بالعمارة، ومن أهم ما استحوذ على اهتمامهم "الرياض" أى الحدائق الداخلية التى تحيط بالمبنى السكنية وتطل عليها الأروقة والمقاعد والمقصورات الصغيرة، والممرات الممتدة كانت تقطع وتقسّم بزوايا مستقيمة لتظهر بعض الكتل الخضراء، كما أضيفت النوافير التى حددت نقاط الالتقاء للطرق المباطة

بالتليسات الخزفية، ومن الرياض الشهيرة حدائق "جنة العريف" وتوجد بها قاعة الأسود التي استمدت الأندلس نسقها من بلاد فارس.

ومن الطرز المعمارية الأخرى الغربية على الفن الإسلامى هى "القصبة" والمنازل المحصنة التى أقام بها كبار رجال بلاط الأطلس، وقد شيدت بطريقة تساعد على مراقبة الطرق المؤدية إلى مقرهم من أعلى، كما أقيمت الأسوار الشاهقة المشكلة من الدبش، أو من التراب المدكوك وكانت تزخرف بسلسلة من العقيدات حيث توجد أبراج فى كل زاوية من زوايا السور بشكل جذع هرمى، وقد توج من أعلى بأشكال مسننة أو بواسطة كورنيشات أو أفاريز بارزة، وهكذا اتسمت مساكن هؤلاء السادة بطابعها المهيّب.

الزخرفة:

احتفظت المغرب حتى الآن بالكثير من الأساليب الزخرفية المعروفة منذ العصر المورسكى، وقد كان الرخام من الخامات التى تستورد من الخارج؛ ولهذا استورد المنصور الكثير من الأعمدة المرمية من إيطاليا وكان الثمن يدفع حسب وزن العمود ويتم تبادله بالسكر وليس نقدًا، كما كان الفنيون فى زخارف الجبس على دراية كاملة بطريقة النحت، وعمل التكسيات الجصية فى العمارة، كما برع النجارون فى التقطيعات الموشورية من الأخشاب التى تتكون منها المقرنصات، وكذلك المرصعون المهرة فى تقطيع الخزف بدقة ثم طليه بالمينا المعروف باسم الزليج. وكان يوضع مباشرة على الجدران بعد أن رسمت له خطوط لتوضيح سياق الزخرفة.

وهذا الأسلوب الخزفي يلصق الزليج على الجدران قد تطور بشكل سريع وبطريقة لم تكن معروفة في العصور الوسطى، وقد استخدم في أغراض عدة مثل التبليطات، وتكسية الجدران، وفي أحواض النوافير، وداخل النيشات، كما كان الزليج يلصق ببدن الأساطين الأسطوانية.

وبالرغم من انتشار خزف التكسيات في البقاع التركية، إلا أن المغرب ظلت محتفظة ببعض أساليبها التقنية في صناعة الخزف المحفور، والمزخرف بالصفائح المطلية بالمينا حيث تلتصق ببدن السطح المكشوط بالأزميل، فقد ظلت المغرب لسنين طويلة محتفظة بأسرار حرفها التقليدية والفنية القديمة، إلا أن عوامل الضعف قد بدأت تتسرب إلى بعض عناصر المجموعات الخزفية، فالخط الكوفي لم يعد يستخدم إلا نادراً في الزخرفة الكتابية بل أصبح مجهولاً للكثيرين، واستبدل بالخط النسخي وكانت تصاغ منه بعض العبارات الرتيبة في الحواف إلا أنه فقد الكثير من رونقه وجماله.

والزخارف الهندسية تنوعت في التلييسات الخزفية، وتألفت من المضلعات الصغيرة المتراسة بجانب بعضها في هيئة أنصاف الوريدات.

وقد ازدهرت الزخارف النباتية منذ بداية القرن السادس عشر، وظهرت العناصر النباتية المجلوبة من سجل النبات الفارسي مثل زهرة القرنفل، والتوليب، وسعف النخل المسنن وقد تم المزج بين الأشكال الجديدة والقديمة الكلاسيكية مثل الورقة النخيلية المزدوجة، والوريدات المكررة دون قصد أحياناً.

وقد ظهر طابع الزخرفة نمطياً ومكرراً، وكان الغرض استخدامه في تكسية الجدران عن كاملها في أقل فترة زمنية، وبمقاييس مختصرة مما أصاب الزخرفة بالجفاف والرتابة.

إلا أن المهارة الواضحة في تنفيذ الزخرفة تنبئ بظهور نهضة في الفن المغربي.

فنون الأثاث:

لعبت الظروف التاريخية دوراً مهماً في إحكام الحصار حول المغرب وإبعاده عن أى تيارات غربية يمكن أن تؤثر على فنونه المعمارية، إلا أن الباب لم يغلق كلية بل ظلت نافذته مفتوحة لتسلسل بعض طرز الأثاث مع الاحتفاظ ببعض التقاليد المورسكية التقليدية.

الخزف:

ظل الخزف مزدهراً في مدينة فاس، إلا أنه فقد أسرار البريق المعدني، فالخزاف الذي كان يزخرف الأطباق، والقصعان، والأواني الزهرية الضخمة ذات الغطاء، المصنعة من الصلصال قد لون معظمها باللون الأزرق، أو أحياناً نجد لوحة ألوان الرسام وقد احتوت على الأزرق، والأسمر الداكن، والأخضر، والأصفر الليموني، والعناصر الزخرفية التي احتفظت بها البلاد منذ العصور الوسطى، والأخرى المجلوبة مع الأندلسيين الفارين من إسبانيا قد ساهمت في إخراج أجمل النماذج المشتقة من الكتابات الكوفية، ومن النماذج الأخرى المستلهمة من عصر النهضة الإيطالية أو الإسبانية هي مناظر المركب ذي الشراع المتنفخ، كما ظل الشرق حاضراً في سجل الخزاف، فهناك الزهور الفارسية، والأوراق النخيلية المدببة والمنحنية

فى أشكال الكشميرات الهندية، وعلى الرغم من تعدد العناصر السابقة فالخزف المغربى لم يخلُ من أصلته وتشهد على ذلك جميع المجموعات البديعة المحفوظة فى كل من متحف فارس، ومتحف الرباط والتى تظهر المكانة الحقيقية للخزف المغربى فى الفن الإسلامى.

فنون المعادن:

وفنون المعادن قليلة نسبياً، إلا أن الحدادين ظلوا محتفظين بسر المهنة فى صناعة الحواجز المشبكة، والمفصلات ذات الأشكال المختلفة السهل تطويعها من الخامات الموجودة، كذلك ألم النحاسون بفنون الطرق على الأوانى النحاسية الضخمة، وعمل مواقد الجمر الصلبة والمنقوشة من الداخل والخارج، كما قام صانعو الأسلحة بزخرفة الأعمدة، ومقابض الخناجر والعلب ذات الشكل الكمثرى المرصعة، وهكذا تألفت مجموعة الآثار من المعادن.

وصناعة الحلى فى المغرب تستحق دراسة كاملة لأنها تطرح مشاكل عدة، وقد اشتهر بعض الفنانين من الإسرائيليين المقيمين بالجنوب المغربى فى مدينة سوس وقد تخصصوا فى عمل التيجان والجواهر والدلايات ومشبكات الثوب التى تتميز بطابعها الجميل والتى ما زلنا نجعل أصولها.

وقد قارن الأستاذ هنرى تيراس H-Terrasse بين إحدى الأساور والرصيغات فى أحد الأحزمة مع بعض الصناديق لحفظ العملة، والزخرفة الموجودة على أطقم الفرس والتى أرجعها كلها لإسبانيا فى القرن الخامس والسادس والسابع عشر.

ويتميز الحلى بشكله المبسط المتقن الصنع، إذا ما قارناه ببعض الطرز المورسكية أو المدججة، وقد احتفظ المغرب بطابعه الغريب وتقاليده الحرفية لقبائل البرابرة "قابيل" في استخدام المينا المجزعة التي انتقلت عن طريق بلاد الأندلس في العصور الوسطى وقد تأصلت تلك الحرف عند أهل الريف بعد أن اندثرت في المدن.

السجاد والأنسجة:

ويرجع السجاد لأصول أخرى، فقد عرف سكان أعالي الأطلس وأوسطه ومدينة مراكش الزخارف الهندسية ذات الألوان المعتدلة المنفذة في الأنسجة البربرية، كما انتشرت في مدن أخرى وخاصة الرباط صناعة السجاد ذي الألوان المتعددة والصارخة المستوحاة من طرز آسيا الصغرى.

وتعد التقاليد المورسكية محاكاة للنسق الأوروبية أو المشرقية التي تقابلت لتظهر معاً في أقمشة الديباج البديعة والأحزمة المنسوجة في فاس، وكذلك في أعمال التطريز على الحرير الذي برع في إتقانه سيدات الحرير من سكان الحضر مما يظهر حسهم العالي وبراعتهم في التطريز اليدوي.

ويرجع تطور هذا الفن وتنوعه من إقليم لآخر، مع الحفاظ على نسقه إلى التباين في طبقات العاملات، وتعد الطرز الإسبانية- المورسكية هي النماذج الأصلية للزخارف المكونة من الأشرطة البديعة ذات الزخارف التقليدية من منطقة شيشوان (المغرب الإسبانية)، وهناك الستائر الموشاة بأيادي السيدات اليهوديات من منطقة "ازيمور" بالمغرب وتشبه زخارف

الأفاريذ التي ترجع لعصر النهضة الإسباني والإيطالي، وهناك بعض الأشكال الضخمة التي جاءت من الرباط ظهرت في الصدريات التي يرتديها القرويون في قصطة Castille، وفي الأسترامادور Estramadure منطقة في البرتغال، وقد اشتقت الزخارف الزهرية في ططوان من التطريز في الجزائر الذي ترجع في أغلب الظن أصوله إلى أوروبا، وعلينا أيضًا أن نبحت عن أصول تلك التطريزات في مدينة فاس والبلقان وفي منطقة آسيا الصغرى.

الخلاصة:

لقد عرف العالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأخيرة تطورًا فريدًا من نوعه، فإذا ما استثنينا إسبانيا المدجنة جانبًا حيث استمر الفن المورسكى في انتشاره، كما حافظت بلاد المغرب على استقلالها محاولة تحقيق حلمها القديم واسترجاع عصرها الذهبي.

وقد ساعد ظهور بعض الظروف التاريخية العرضية في تغيير مسار الأحداث، فقد استقر الأتراك في القسطنطينية ومدوا هيمنتهم مما أعاد للشرق مكانته مرة أخرى ليصبح مركز الثقل في العالم، ولم تعد السلطة الروحانية التي تشع بطرزها المعمارية تنبثق من المدينة ودمشق وبغداد بل عادت لمسقط رأسها القديم أى العالم البيزنطى (القسطنطينية) وبعض المدن المجاورة لأوروبا وآسيا الصغرى، وسالونيك وبروسهز.

ومن أبرز التأثيرات المعمارية بناء المسجد ذى القبة الكبيرة في مصر وتونس والجزائر المستمدة من عمارة سانت صوفى وبعض المنشآت الأخرى

المماثلة، وليس بمحض الصدفة أن سيستشف الإسلام منذ تسعة قرون بعض نسقه المعمارية من البازيليكا المسيحية وهى البواكى والأروقة الموازية لجدار القبلة لإقامة شعائر الصلاة ليعود مرة أخرى للكنائس التى شيدت فى عصر الإمبراطور جستينيان ليستمد نسقاً جديدة منها تتوافق مع شعائره الدينية.

ومن الأسماء التى لمعت ونالت شهرة واسعة؛ المهندس المعمارى سنان الذى أوجد هذا الوفاق فى الفن المعمارى الذى يعد من مفاخر الفن الإسلامى خلال القرون الأخيرة.

والمساجد ذات القباب والمآذن المنسولة من الأعمال الجريئة الضخمة فى آن واحد والمميزة لمدينة إسطنبول المطلة على البوسفور وهى من أجمل بقاع العالم القديم، كما تميزت المنازل فى القاهرة والجزائر بالتناسق فى الترتيب الداخلى مما أضاف الراحة على الطابع العام.

وعلى الرغم من النجاح الفائق الذى تميزت به العمارة فى البلاد التركية فإن عوامل التدهور قد بدأت تصيبها وقد بدت واضحة فى طرق البناء والزخرفة.

وظلت العمارة الإيرانية تقدم لنا المنشآت العظيمة والتى لا يمكن مقارنتها بعمائر العصور الوسطى، وتعد أصفهان فى عصر الشاه عباس إحدى درر الفن الإسلامى حيث ظهر الابتكار الفريد فى التخطيط والعمائر الدينية والمدنية فى المدن الإسلامية، وقد استطاع الفن الإيرانى أن ينتشر بقوة كما التحم بفنون الهند فى العصر المغولى ليخرج لنا فناً إسلامياً مميزاً، وهكذا جمع تاج محل بأجرا بين الرشاقة الفارسية والفخامة الهندوسية.

وقد امتدت الطرز المعمارية والزخرفية الإيرانية فى اتجاه الشرق، كذلك أثرت فى اتجاه الغرب لتغمر العالم التركى جميعه، ولم يناً المغرب عن التأثيرات الإيرانية هو الآخر، فقد ظل هذا الإشعاع الفنى مستمراً ومؤثراً، وكما شاهدنا سالفاً بعض الصيغ الإيرانية التى جابت جميع أقطار العالم الإسلامى ومنها المقرنصات، والقبة ذات الأضلاع، ويرجع موطنها فى أغلب الظن إلى بلاد فارس ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد الأندلس.

وخلال القرون الأربعة الأخيرة تباعد التأثير الإيرانى فى فنون الأثاث ليحل محله إتيان الخزافين المحليين، والنساجين لجميع الطرز التى جاءت عبر حدودهم، كذلك نفترض الدور الوسيط الذى لعبته كل من أسطنبول والأناضول وأزمير وبروسه، وانتقال الطرز الفنية فى تبريز وشيراز أثناء مرورهم بتونس والجزائر، وقد تأثر الفنانون فى مدن البرابرة بالكثير من هذا الإرث من العبقريّة الإيرانية وتمثّلت فى زخارف الأباريق ذات العروتين، وفى التكوينات الزخرفية للسجاجيد، والزخارف النباتية فى الأعمال الخزفية.

ومما لا شك فيه أن الفن الإسلامى منذ نشأته كان البوتقة التى جمعت بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، فإن الرحلة البحرية التى بدأت من المحيط الهندى قد مرت بمراحل عدة بداية من ماليزيا، والساحل الأفريقى، ثم طريق الحبوب، وطريق الحرير البرى مما ساهم فى جعل الشرق الأوسط إحدى القوى الناقلة للحضارات من منطقة وسط آسيا والصين إلى الغرب، وعلى مر التاريخ استنقت فنون الإسلام من البرونز، والخزف، والأقمشة التأثيرات المباشرة وغير المباشرة عليها.

قائمة الرسومات رسوم إضافية

لوحة (١):

قبة الصخرة، هذه العمارة شيدها عبد الملك فى عام (٦٩١) وقد عرفت باسم مسجد عمر، وهى تحتوى على تخطيط مميز ذى شكل مثنى والزخرفة ثرية شكلت من الفسيفساء الذى يجمال داخل القبة والمستوحاة من بيزنطة وإيران (Cl.R.Viollet).

لوحة (٢):

الجامع الكبير بدمشق، وقد شيده الخليفة الوليد عام (٧٠٥)، ونلاحظ أن المئذنة أقيمت على قاعدة مربعة، وابتداءً من القاعدة توجد إضافة جديدة من الخلف (C.L.S.E.F).

لوحة (٣):

المشتى بالأردن، هذا القصر لم يكتمل بناؤه، وقد شيده الوليد الثانى بين (٧٤٣-٧٤٤)، وهناك نقش على الحجر فى الواجهة ذو تأثير ساسانى مع الحيوانات المتصارعة وهناك توازن نسبى مع المحور المركزى ويرجع بنا إلى إيران (C.L.Mella-Viollet).

لوحة (٤):

سامراء (الجامع الكبير ومئذنته الملوية) من القرن التاسع، أقيمت هذه المئذنة خارج الجامع، وهى مؤلفة من برج ذى نواة أسطوانية ومنحدر حلزوني يشبه الزيجورات الآشورية العتيقة (CL. Mella-Violet).

لوحة (٥):

قطعة من النسيج المرسوم وتحتوى على زخرفة التفت فيها العناصر الزهرية مع الحيوانية والكتابية المستقاة من فارس (القرن الحادى عشر) وربما تكون إحدى المعلقات من القماش، أو التوشيات أو الطنافس، متحف اللوفر (C.I.P.U.F.-Chuzeville).

لوحة (٦):

برج ومئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة، القرن التاسع، مقارنة بين مئذنة ابن طولون ومئذنة سامراء وعقود الصحن قوطية مع ملاحظة أن الشرفات والأساطين الضخمة والميضأة أو حوض الاغتسال فى وسط الصحن وأضيفت مؤخرًا (CL. R. Violet).

لوحة (٧):

الجامع الكبير بالقيروان (٨٣٥) المئذنة مدمجة فى جدار السور وتحتوى على تخطيط مربع ويرجع الجامع للتخطيطات الأولى فى الإسلام (VioLLeT.D.N.CL).

لوحة (٨):

داخل جامع القيروان الكبير (٨٣٦)، ونلاحظ أن الأعمدة والنتيجان منقولة عن بعض العنائر الرومانية (Viollet.R.D.N.CL).

لوحة (٩):

إناء من الخزف لونه جملى ومغطى باللونين الأخضر والأصفر،
ومؤرخ بالقرنين التاسع والعاشر من نيسابور، متحف اللوفر
(CL.P.U.F.Chuzeville).

لوحة (١٠):

الإناء الذى يقع على الشمال من الخزف من "رودس"، ومن المؤكد أنه
صنع فى إزنيك بتركيا من القرن السادس عشر، وقد زخرف بالمينا الحمراء
إحدى خصائص هذا الإقليم. والصحن على اليمين من اللون الأخضر الفاتح
(السلادون - المستخدم فى القيشانى من شرق آسيا) وتتألف الزخارف من
الأسماك الذهبية اللون التى نجدها على زخارف الزجاج الملون بالمينا، وفى
البرونز المعاصر، متحف اللوفر (PU.F.Chuzeville).

لوحة (١١):

صحن من الخزف مزخرف باللون الأخضر مع إضافة المنجنيز إليه
على سطح سكرى اللون من منطقة آمول بفارس، من القرنين الحادى عشر
والثانى عشر وينفرد هذا المنتج بطابعه الزخرفى من التربيعات، والأشكال
المحورة من الحيوانات، متحف اللوفر (F.Chuzeville.U.L.P.C).

لوحة (١٢):

إناء من الخزف المتعدد الألوان يرجح أنه من منطقة الرى من القرن
الثانى عشر والثالث عشر، وبالنسبة لتعدد الألوان وطبيعة الزخرفة عرفت باسم
"ميناي" وتنتمى لمدرسة المنمنمات العباسية، متحف اللوفر - سجلات الصور.

لوحة (١٣):

الجامع الكبير بقرطبة - المنظر من الخارج، ويرجع للقرنين الثامن والعاشر، لاحظ صف القناطر المركبة والزخرفة المؤلفدة بواسطة عقود تحتوى على لونين ممزوجين ببعض، والتوسعات المتكررة به قد غيرت من تخطيط الجامع الأصلي (CL.Viollet).

لوحة (١٤):

الجامع الكبير بقرطبة - من القرن الثامن حتى العاشر، وقبة ترتفع على أضلاع ونلاحظ هنا الزخرفة النباتية الثرية والمنفذة باستواء على مسطح الجدران (CL Boudot-Lamotte).

لوحة (١٥):

قصر إشبيلية - القرن الرابع عشر - تظهر زخارف الفن الإسباني غزيرة، كذلك ألوان التكسيات الخزفية والجصية (Cl.Anderson-Giraudou).

لوحة (١٦):

الجامع الكبير بقرطبة، القرن الثامن حتى العاشر تفاصيل لزخارف أحد العقود المزدوجة، وتتكون من زخرفة هندسية وزهرية (Cl. Georges Viollon-Rapho).

لوحة (١٧):

علبة مجوهرات من العاج من قرطبة نفذت للمغيرة ابن الخليفة عبد الرحمن الثالث، ومؤرخة بالقرن العاشر وزخارف الجدران مستوحاة من الشرق، متحف اللوفر (Cl.Giraudou).

لوحة (١٨):

إبريق لغسيل اليدين من البرونز يحتوى على كتابة من اللغتين اللاتينية والعربية، ويرجح أنه من إسبانيا أو صقلية ويؤرخ بالقرن العاشر أو الحادى عشر، متحف اللوفر (Chuzeville.F.U.P.LC).

لوحة (١٩):

إناء لمزج الخمر بالماء كان يستعمله اليونان والرومان، ذو عروتين، من البرونز ومرصع بالذهب والفضة من معمودية سان لويس وعليه إمضاء "ابن الزين" من ضمن كنوز ملوك فرنسا، الفن السورى المصرى - القرن الرابع عشر، ومحفوظ بمتحف اللوفر (Cl.Chuzeville P.U.F).

لوحة (٢٠):

سجادة تحتوى على رسومات حيوانية من فارس ترجع للقرن السادس عشر، متحف اللوفر (Chuzeville .F.U.P.LC) .

لوحة (٢١):

مئذنة المنصورة بتلمسان، القرن الرابع عشر، لاحظ التشابه بين الجير الدا بإشبيلية، ومئذنة الكتوبية بمراكش (CL. René-Jacques).

لوحة (٢٢):

الجامع الكبير بتلمسان - من الداخل (CL. René-Jacques) .

لوحة (٢٣):

تفاصيل أحد العقود، قصر إشبيلية، القرن الرابع عشر، الفن المدجن (CL. Georges Viollon).

لوحة (٢٤):

تفاصيل لفانوس صغير أعلى المئذنة الكتوبية بمراكش، القرن الثاني عشر، المكتب القومي المغربي للسياحة.

لوحة (٢٥):

بلاطات مربعة الشكل من الخزف، فارس، القرن السابع عشر، أشخاص في حديقة تحف بها بحيرة مملوءة بالأسماك بينما يدخل أحد الأشخاص النرجيلة، مجموعة (Paul Angoulvent CL. P.U.F. Chuzeville).

لوحة (٢٦):

جص منحوت (داخل مقابر السعديين) مراكش، القرنان السادس عشر والسابع عشر، المكتب القومي المغربي للسياحة.

لوحة (٢٧):

البرج الجنائزي بالري، فارس، الفن السلجوقي (١١٣٩) نلاحظ هنا التضييعات المميزة لتلك العمائر (Cl.R.Viollet).

لوحة (٢٨):

تجليد القرآن، من الجلد المطروق الأسود والذهبي، فارس، القرن السادس عشر، الزخارف النباتية والكتابية المعروفة باسم "فن تشي الصيني" (لجنة استرجاع الأعمال الفنية) (P.U.F. Chuzeville).

لوحة (٢٩):

زخارف جامع على بأصفهان (١٥٣٢)، وقد استخدم الفسيفساء من الخزف للتكسية منذ العصر السلجوقي (Cl Roger Viollet).

لوحة (٣٠):

داخل الجامع الأزرق بتبريز (١٤٦٨) (CL. Jean Lavaud).

لوحة (٣١):

الإيوان الكبير بجامع شاه بأصفهان الذى أمر ببنائه الشاه عباس الأول
عام (١٦١٢) (Cl.R.Viollet).

لوحة (٣٢):

مشكاة مسجد من الزجاج المطلى بالمينا من جامع السلطان حسن
بالقاهرة - مصر، القرن الرابع عشر، متحف اللوفر (Chuzeville
(.F.U.P.LC).

لوحة (٣٣):

مقابر الخلفاء، القاهرة، القرن الرابع عشر، نلاحظ ترتيب الحجارة فى
الواجهة تحتوى على لونين (CL. Roger Viollet) .

لوحة (٣٤):

جامع السلطان سليمان بإسطنبول، حوالى عام (١٥٥٠) (انظر
المكتب القومى التركى للسياحة).

لوحة (٣٥):

صحن مسجد محمد على بالقاهرة (١٨٢٤-١٨٥٧) (CL. S.E.F).

لوحة (٣٦):

صحن من الخزف، ينسب إلى دمشق مزخرف باللونين الأزرق
والأخضر والمنجنيز على سطح أبيض - تركيا - القرن السادس عشر،
متحف اللوفر (أرشيف التصاوير).

لوحة (٣٧):

كوز من الخزف صناعة إزنيك - من رودس مزخرف باللون الأخضر والأزرق والأحمر المتوهج على سطح أبيض - تركيا - القرن السادس عشر، (متحف اللوفر) (CL. P.U.F. Chuzeville).

لوحة (٣٨):

تاج محل بأجرا - الهند (١٦٣٠-١٦٤٧) الترتيب متناسق فى المنظور مما يرجح التعاون مع أحد المهندسين المعماريين الأوروبيين (CL.R.Viollet).

لوحة (٣٩):

الجامع الجديد بالجزائر - القرن التاسع عشر (CL. ND. Roger) (Viollet).

تساوير داخل النص:

- شكل ١ - تخطيط الجامع الكبير بدمشق.
- شكل ٢ - قبة الصخرة بالقدس.
- شكل ٣ - تخطيط الجامع الكبير بقرطبة.
- شكل ٤ - تحوير الأكنيس.
- شكل ٥ - تخطيط مسجد - مدرسة السلطان حسن بالقاهرة.

- شكل ٦- تخطيط قصر الحمراء فى غرناطة.

- شكل ٧- تخطيط الجامع الملكى بأصفهان.

- شكل ٨- تخطيط الجامع المعروف بالسليمانية.

يتقدم الناشرون بخالص الشكر للأستاذ David-Weill أمين متحف اللوفر، والمسئول عن قسم الآثار الشرقية، على كل ما قدمه من جهد لإخراج هذا العمل للفقيد الراحل الأستاذ جورج مارسبييه، تقديرًا له كأحد تلاميذه القدامى.

المراجع الجزء الأول

الفصل الأول:

CRESWELL (K. A. C.), *Early muslim architecture*, 2 vol., Oxford, 1932-1940. -
SAUVAGET, *La mosquée omeyyade de Médine*, 1947; ID., *Alep*, 2 vol., 1941. -
MUSIL, *Kuseyr Amra*, 2 vol., Vienne, 1907. - JAUSSEN et SAVIGNAC, *Les
châteaux arabes*, 2 vol., 1922. - GABRIEL, *Kasr el-Heir, Syria*, VIII. -
HAMILTON, *Khirbat el-Mafjar*, Oxford, 1959.

الفصل الثاني:

SARRE et HERZFELD, *Archäologische Reise in Euphrat und Tigrisgebiet*, 4 vol.,
Berlin, 1911-1920. - LOWTHIAN BELL, *Palace and Mosque at Ukhaidir*. - HERZ-
FELD (E.), *Ausgrabungen von Samarra*, I, II, 1923-1927. - DIMAND, *Handbook
of Muhamadan Art*.

الفصل الثالث:

HAUTECEUR (L.) et WIET (G.), *Les mosquées du Caire*, 2 vol., 1932. -
BAHGATBEY (A.) et GABRIEL (A.), *Fouilles d'Al-Foustât*, 1921. - PAUTY (E.),
Les bois sculptés, Catalogue du Musée arabe du Caire.

الفصل الرابع:

MARÇAIS (G.), *L'architecture musulmane d'Occident*, 1954. - DIMAND, *Studies
in Islamic Ornament, Ars islamica*, 1937.

الجزء الثاني

الفصل الأول:

POPE (A. V.), *A survey of Persian Art*, t. II, Oxford, 1939. - FLURY, La mosquée de Nayin, Syria, 1939. - GODARD (A.), Historique du Masjid e-Djuma d'Ispahan, *Athar e Iran*, 1936. - SARRE (F.), *Denkmäler persischen Baukunst*, Berlin, 1910.

الفصل الثاني:

VAN BERCHEM (Max), Notes d'archéologie arabe, *Journal asiatique*, 1891. - BRIGGS (M. S.), *Muhammedan architecture in Egypt and Palestine*, Oxford, 1924. - De BEYLIÉ, *La Kalaa des Beni Hammad*, 1908. - FLURY (S.), *Die Ornamente der Hakim und Ashar Moschee*, Heidelberg, 1912. - ID., *Die Islamische Schriftbänder*, Bâle, 1920. - PAUTY (E.), Les bois sculptés, *Catalogue du Musée du Caire*, 1931; ID., *Bois sculptés d'églises coptes*. - KUHNEL (E.), *Islamische Stoffe*, Berlin, 1927. - KUTCHMANN (Th.), *Meisterwerke Sarazenisch normannischer Kunst*, Berlin, 1900. - ARATA (G. W.), *L'architettura arabo-normanna... in Sicilia*, Milan, 1914.

الفصل الثالث:

TERRASSE (H.), *L'art hispano-mauresque des origines au XIII^e siècle*, 1932. - *Monumentos arquitectónicos de España*, Toledo, Cordoba, 1859-1895. - VELAZQUEZ BOSCO (R.), *Madina Azzahra y Alamiyya*, Madrid, 1912. - BASSET (H.) et TERRASSE (H.), *Sanctuaires et forteresses almohades* (collection *Hesperis*, 1932). - GOMEZ MORENO, *Ars Hispaniae*, t. III; *El Arte arabe espanol hasta los Almohades*, t. XV. - TORRES BALBÁS (L.), *Arte almohade*; ID., *La arquitectura musulmana del Occidente*, *Arquitectura*, 1927.

الجزء الثالث

الفصل الأول:

FLANDIN et COSTE, *Monuments modernes de la Perse*, 1867. - Athar e Iran, *Annales du Service archéologique de l'Iran*, 1936 et 1955. - SARRE (F.), *Seldschukische Kleinkunst*, Leipzig, 1909. - ARNOLD (W.) et GROHMANN, *The islamic book*, 1929.

الفصل الثاني:

SAUVAGET (J.), *Les monuments ayyoubides de Damas*, *Institut français de Damas*, 1938; ID., *L'architecture musulmane en Syrie*, *Revue des Arts asiatiques*, 1934. - BOURGOIN (J.), *Les arts arabes*, 1873. - WIET (G.), *Lampes et bouteilles en verre émaillé*, *Catalogue du Musée arabe*, Le Caire, 1929. - ID., *Objets en cuivre*, *ibid.*, 1932.

الفصل الثالث:

MASLOW (B.), *Les mosquées de Fès et du Nord du Maroc*, 1937. - BEL (A.), *Inscriptions de Fès*, *Journal asiatique*, 1917-1919. - BASSET (H.) et LÉVI-PROVENÇAL (E.), *Chella*, extrait d'*Hesperis*, 1922. - GOURY (J.) et OWEN JONES, *Plans, elevations, sections and details of the Alhambra*, 2 vol., Londres, 1942-1945. - TORRES BALBÁS (L.), *Cronica arqueologica de la España musulmana (Al-Andalus)*.

الجزء الرابع

الفصل الأول:

VAN BERCHEM (Max), Notes d'archéologie arabe, *Journal asiatique*, 1891. — BRIGGS (M. S.), *Muhammedan architecture in Egypt and Palestine*, Oxford, 1924. — De BEYLIÉ, *La Kalaa des Beni Hammad*, 1908. — FLURY (S.), *Die*

الفصل الثاني:

EDHEM PACHA, *L'architecture ottomane*, Constantinople, 1873. — GABRIEL (A.), Les mosquées de Constantinople, *Syria*, 1926; ID., *Monuments turcs d'Anatolie*, 3 vol. parus. — DEVOUXX (A.), Les édifices religieux de l'ancien Alger, *Revue africaine*, 1862-1870. — MIGEON (G.) et SAKISIAN (A.), La céramique d'Asie Mineure et de Constantinople, *Revue de l'Art ancien et moderne*, 1923. — De VEGH (J.) et LAYER (Ch.), *Tapis turcs provenant de Transylvanie*, s. d. — POINSSOT (L.) et REVAULT (J.), *Tapis tunisiens*, 1937. — WACE, *Mediterranean and near eastern embroideries*, 2 vol., Londres, 1923.

الفصل الثالث:

TORRES BALBÀS (L.), *Ars Hispaniae*, IV : *Arte mudéjar*. — GALLOTTI (J.), *Le jardin et la maison arabe au Maroc*, 2 vol., 1927. — TERRASSE (H.), *Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis*, 1938. — RICARD (P.), *Corpus des tapis marocains*, 4 vol., 1923-1934.

المسرد

- A -		
Abaque	Abacus	العمود طبلية تاج
Abside	Apse	صدر الكنيسة - محراب الجامع
Accouplé	gathering together	متزاوج
Adjonction	adjunction-adding	ملحق
Aiguière	Ewer	إبريق ذو عروة
Aire	area-space	سطح - مساحة مفتوحة
Ajouré	hole-orifice	تفريغ
Alberca	court of Alberca	قاعة البركة - النوافير
Alcôve	recess	تجويف - فجوة
Al-Hambra		قاعة الحمراء بإسبانيا
Allégorie	allegory	مجاز
Alléo	Alley	مرمر
Altérer	alternate	غير من طبيعته - شوه
Alvéole	alveolus	مقرنص - تجويف - نقرة
Amenuiser	to make thinner	يرقق
Amortissement	redemption	تخفيف
Analogie	analogy	تشابه
Anatomie	anatomy	تشريح - دراسة الأشكال الخاصة
Anguleux	angulous	ذو زوايا - بارز
Aplatissage	flattening	ترقيق للصفائح
Apodyterium	apodyterium	قاعة للاستراحة
Appareil	structure-disposition of	صف من الحجارة - يصف
Appareil d'assises	course of large stone	مدمك
Aquamanile		إبريق لغسل اليدين
Aqueduc	aqueduct	قناة ماء
Arc abattu	reverse arch	عقد مقلوب
Arc bandé	bandaged arc	عقد موتور
Arc en carène	keel shaped	عقد ذو بتلنين
Arc à lambrequin		عقد ذو حافة مدببة
Arc accouplé	leash arch	ثلاثي عقد
Arc brisé -aigu	gothic arch	عقد حاد
Arc d'entretoisement	bracing arch	عقد تركيب اللجف
Arc doubleaux	transverse rib	عقد مستعرض
Arc en berceau	barrel vault	نصف أسطواناني - عقد مقنطر
Arc en chaînette	catenary curve	عقد منحن

Arc en fer de cheval	horse shoe arch	عقد ذو حدوة الحصان
Arc en ogive	gothic arch	عقد قوطي
Arc en plein cintre	semi-circular arch	عقد كامل
Arc en rectiligne		عقد مستقيم
Arc en tiers-point	pointed or equilateral arch	عقد متساوي الأضلاع
Arc entrecroisé	crossing arch	عقد متقاطع
Arc entrelacé	interlaced arch	عقد متشابك
Arc festonné		عقد متعرج
Arc formeret		عقد المقوصرة
arc lobé	lobed arch	عقد مفصص
Arc outrepassé	arch with 2 segments	عقد مزدوج
Arc recticurviline		عقد منحنى الأضلاع
Arc surbaissé	surcharge arch	عقد موثور
Arcade	arcade-arch-shaped	رواق مقنطر - مقنطر
Arcature	ornemental arcade	سلسلة عقيدات - عقود صغيرة
Arceau	curved part of	نقويسة - عقد مقوس
Arch	arch	قوس مجاز تحت القنطرة - قنطرة - عقد جسر
Arête	Arris	زاوية بارزة
Armature	frame of concrete work	تقوية - التسليح
Armurier	armourer	صانع الأسلحة
Asymétrique	asymmetrical	غير متساو
Atelier	work-shop	ورشة - دار حرفة - مرسم
Auvent	pent-roof-porch - roof	طنف - إفريز
Avant mur	head of wall	مقدم الجدار
Avant-corps	fore-part(ofbuild)	مقدم البناء
Axe	axis	مدار - محور
Axial	Axial	محوري
Azuléjos	azulejos	تعشيقات - مربعات من القيثاني يغلب عليها اللون الأزرق
-B-		
Bague	seal-ring	حلقة العمود
Baie	bay-opening	كوة - فتحة
Balustrade	balustrade	درابزين
Banderole	banderole	شريط أو (عصابة) تحتوى على زخارف أو كتابات
Banquette	windowledge	مقعد حجري - أريكة
Baptisière	baptistery	بيت العماد
Barbacane	loophole	كوة في حصن أمامي - مرمى سهام
Barbotine	a paste for making porcelain and ornamentation	صلصال صيني

Barlongue	lopsided	مستطيل من جانب - محرود
Bas-côté	side-aisle (of church)	رواقان جانبيين
Bas-relief	bas-relief	نقش غائر
Bastion	bastion	معقل - حصن
Baverie	drinking session	جلسات السكر
Béant	wide	عريض
Bestiaire	bestiary-fable book	مؤلف رمزي عن الحيوان
Biseau	bevel-chamfer	مشطوف
Bistre	bistre-bister	الصمغ - السخام
Blocage	rubble-stone	قطع غير مصقولة من الحجارة
Bois de charpente	straight timber	دعامة خشبية
Bois tourné	turned	تدوير الخشب
Boiserie	wainscot	خشب سنديان فاخر - كسوة خشبية
Bossage-appareil à bosse	embossement	زخارف بارزة
Botanique	botanical	علم النباتات
Bouclier	buckler-timber	درع - ترس
Boutisse	bondstone	حجر الربط
Brasero	brasier	موقد جسر متقل
Brassard	ramb	ما يلبس على الساعد من قماش - ساعدة
Bretèche	bartizan	برج في الجدار
Brocard	brocard	ديباج
Broderie	embroidery	تطريز كروشيه
Brousse	bush	شجرة كثيرة الأغصان
- C -		
Calotte	skullcap-small dome	قلنسوة - قبة صغيرة
Campaniforme	bell-tower	شكل جرسى مقلوب
Campanule	campanula	قاعدة ذات شكل هرمي - جرس صغير
Canalisation	canalization	شبكة قنوات
Cancel	chancel(of church)	درازين الجوقة (في الكنيسة)
Cannelure	plate-square flutting	ضلع مسطح
Canthere	pulpit	منبر
Canthère	beam	الأبراميس (نوع من السمك)
Cantonné (le noyau)	cantoned	تتحصر في
Caravensérail	caravansary	خان القوافل
Caulicole	caulices	نبات
Céladon de Perse	sea-green	لون أخضر باهت يستخدم في القيشاني في شرق آسيا
Cellule	cell	خلية - حجرة ضيقة - صومعة
Chainette	catenary curve	منحنى السلسلة

Champlevé	to cut out the copper ground in enamelling	حفر في صناعة المينا
Chanfrein	chamfered	حافة مشطوفة
Chaotique	chaotic-confused	مشوش - فوضوى
Charpente	frame (work)	بنية - هيكل
Chaux	lime	جبس - كلس
Chemin de ronde	bulwark	ممر في الجدار
Chicane	zigzag-trench	متعرج
Choeur	choir-chancel	هيكل في كنيسة - منبح
Cintre	arch of tunnel	قالب خشبي نصف دائري - قنطرة
Circonférence	circumference	طول المحيط - محيط الدائرة
Circonscrire	to encircle-to limit bound	حاجز إنشائي - فاصل
Ciseau	chisel	منقاش - أز ميل
Claustra		درازين حجرى
Claveau	key-arch stone	مفتاح العقد - حجر العقد
Clef de voûte	keystone	حجر العقد
Clef pendante		عقد بارز
Coffrage	coffereing-framing	إطار - هيكل
Coffre	chest	خزانة ذات أدراج
Cohésion avec le mortier	cohesion of morter	الاصق بالملاط
Coilloutis	broken stones	ركام حصي
Colimaçon	spiral staircase	درج حلزوني
Collatéral	collateral	ملحق - جانبي
Colonnade	colonnade	صف من الأعمدة
Compartimentage	compartimentation	تقسم إلى أجزاء متماثلة
Composite	composite	مركب
Concave	concave	مقعرة
Cône	cone shaped	مخروطي أو صنبوري الشكل
Conférer	to compare	نقارن بين
Conjecture	conjuncture	نقطة اتصال - رباط
Conque	conch-sea shell	محارة نصف مقبية
Console	console-corbel	جزء حجرى أو خشبي - طنف
Contrée	district-country region	مقاطعة - قطر
Contrefort	buttress	دعامة الحائط
Contrepoint	counterpoint	عنصر ثانوى يتطابق مع العنصر الرئيسي - طباق
Contreverse	controversy	مجادلة - منازعة
Conventionnelle	conventional	تقليدي
Convexe	convex	محدب
Copeau	shaving(of wood)	رقاقات من الخشب

Cordouan	cordova(leather)	الجلد القرطبي
Corne d'abondance	cornucolia	قرن الحضب - قرن الوفرة
Corniche	cornice	إفريز
Corollaire		إكليل - طوق
Cotte de mailles	coat of mail	درع مرز ذو زرد
Coude	bend	كوع - وصلة
Coupole surhaussée	raised cupola	قبة معلاة
Couronnement d'une (colonne)	crowing	تتويجة - تاج عمود
Courtine	fortified curtain	جدار بين استحكامين
Cratère	jug	الإغريق القدماء لمزج الخمر، كانوا يستعملون إناء ذا عروتين
Crénau	crenel	مرمى - فتحة - شرفة
Crénelage	crenellation-cutting of loopholes	حبيبات دقيقة
Crête	ridge of roof	خط التقاطع الأعلى بين سطحين منحدرين
Crochet	crocke	حليات ناتئة تشبه ورقات نبات متقوسة
Crypte	crypt	تجريف
Cul de four		قنطرة - قبة نصفية
Culot	buttom or base	قاعدة الشيء أو أسفله
Curviligne	curvilinear-rounded	المقدسة - منحنى الأضلاع
Cylindrique	cylinder	أسطواني
Cypres	cypress	شجرة الصنوبر أو السرو
Cyrénaïque		شمال شرق ليبيا مدينة بنى غازى الحالية
en Coquille	shell (of)	ربيعة - زخرفة فى شكل قوقعة
- D -		
Dais	conopy	ظلة فوق سرير العرش
Dalle	flagstone	شاهد قبر - بلاطة
Déambulatoire	ambulatory	رواق الخورس (فى الكنيسة)
Décapage au burin	scraping of metal	الكشط بالأزميل
Découpé	cut out	مقطعة مسننة الأطراف
Défoncé	emboss	نقر
Diagonalement	diagonally	قطرى
Dichromique	dichromic	ثنائى اللون
Dinandier	maker or vendor of brass ware	صانع أو بائع النحاس
Dodécagonal	dodecagon	شكل ذو ١٢ زاوية أو اثنى عشر ضلعاً
Donjon	donjon(of castle)	برج محصن
Dossier du siège	back of seat	مسند المقعد
- E -		
Ebauché	rough draft	رسم أولي - مسودة

Ecaille	scale	زخرف هندسي على شكل حشفية
Ecoinçon	corner piece	زاوية بين عقدين متماسكين - ركنية
Ecuelle	bowl - basin	طشت - قصعة
Eglantine	eglantine	زهرة النسرين
Elancé	slender	فارح
Ellipsoidal	ellipsoide	إهليجي الشكل
Elveira		البيرا (مدينة إسبانية)
Email	Enamel	المينا
Email cloisonné	chambered enamel	الزخرفة المجزعة بالمينا
Emaillé	to enamel	طلى بالمينا
Emboité	to fit in	ينطبق على نفس الشكل
Embryonnaire	embryonic	هلامي
Emiette	to crumble	فتت
Eminence	eminence	رفعة
Empilement	piling	ترصيص
Emule	rival	تنافسي
Encadrement	framing-border	إطار
Enclos	enclosure	مسور
Encorbellement	corbelling	حلبة حلزونية - تلفيفة
Enduit	coating-layer plaster	دهان للفخار
Enjolive	to embellish	يجمل - يزين
Enluminer	to illuminate-to color	نمّن - زخرف
Enluminure	illuminating	تداخل - تقاطع
Entablement	entablature (of build)	سطح معمد أو خارجه
Entrecroisement	intersection	تداخل - تقاطع
Entrelacé	to entrelace	يشابك
Entrelacs	interlaced ribbons	تشبيك زهري
Epannelage	cut up	قطع إلى - شرائح
Epaulé	breastwork	جدار داعم
Epaulement	breast work	متراس - جدار دعم
Epure	draught	مصور
Escarpement	steep face or slope	ميل - انحدار
Estampe à la matrice		مختومة بالقالب
Etalon	standard of weight	معيّار
Eteignoir	extinguisher (of candles)	مطفأة الشمعة (مبخرة)
Etirer	to stretch	فرن للتجفيف
Eulogie	consecrated bread	خبز القربان
Exode	exodus	سفر الخروج

Extrados	extrados	المنحني الخارجى للعقد
S' emboîter	to model onself upon	يجسم
-F-		
Faisceau	clustered	رزمة - حزمة
Fanal	signal light	منارة المرفأ - فانوس
Fastueux	sumptuous	باذخ
Fauve	faun coloured	أصهب - أشقر
Ferronier	iron work	حداد
Festonné	to festoon	زخرفة بالكشكاش
Feuille découpée	denticulate (leaf)	ورقة مسننة أو مقطعة
Filet	fillet(brass)	يتخذ شكل خيط أو سلكا معدنيا
Filigrane	filigreed	زخرفة بالفتائل المعدنية من ذهب ونصفها مجذولة
Filule	fibula	مشبك ثوب
Fléchissement	bending	تقويس
Fleuron	a carved of pointed flower	زخرف زهري
Flore	flora	نباتات أو مبحث
Fontaine	fountain	ينبوع - فسقية
Formule liminaire	fore world introduction	صيغ استهلالية
Fresque	fresco	رسم جداري - تصوير جداري
Fuseau	spindle for lace	عمود دوران
la Faune	fauna	كتاب فى وصف الحيوانات
le Faune	faun	الريف عند الرومان
- G -		
en Glacis	glazing	دهان ملمع
Galbe	graceful curve entasis	جوف - حنية
Galon	galoon	شريط - شارة
Gargoulette	water jug	نعارة - إبريق فخار
Généralife		جنة العريف (إسبانيا)
Giralda de Seville ou girouette de Seville	weather cook	دليل الرياح بإسبيلية
Glacis	glacis	منحدر
Glacure translucide	glazing translucid	دهان خزف نصف شفاف
Glaive	sword	سيف
Gobelet	goblet-cup	قدح
Godron	gadroon	حلية مدورة بارزة أو محفورة بشكل بيضاوي
Goulot	neck (of bottle)	عنق القنينة
Grave à la molette		نقش مزخرف أو مصقول بواسطة الدولاب
Greffer	to graft	تطعيم

Grenade		غرناطة بإسبانيا
Grille	trellis	حاجز مشبك
Guadiana		وادي أنس (كلمة إسبانية)
-H-		
Hampe	staff-handle	ذيل حرف
Harnachement	harness	سرج العرس
Hégémonie	hegemony	هيمنة
Hémicycle	hemicycle	بناء نصف دائري
Hémisphérique	hemispheric	نصف كروي
Herbier	collection of plants dried and arranged in book	كتاب الأعشاب
Hexagonal	hexagonal	مسدس الزوايا والأضلاع
Hispano-mauresque	spanish-moresque	أسباني بربري
Hypostyle	hypostyle	ارتكاز السقف على أعمدة
-I-		
Iconostase	iconostasis	الفصل الأيقوني
Idiome	idiom	لغة - لهجة
Imbrication	imbrica	انبعاث تراكم القرميد عند استعماله
Imbriqué	imbricate	متشابك - متداخل
Imposte	imposte	رجل العقد - جبهة الباب
Inclination	inclination	انحناء - زاوية ميل
Incrusté	to encrust	موشنى - مرصع
Incurve	curved	منحنى - ملوى إلى الداخل
Ingéniosité	ingenuity	مهارة - براعة
Intrados	intrados	باطن العقد
Involution	involvement	تداخل نسيج في نسيج آخر
Iris	Iris	السوسن
-J-		
Joint	joint	وصلة
Jouée	reveal(of window)	حاجز جانبي
Juxtaposé	side by side	متجاور
-L-		
Lambrequin	lambrequin	ستارة زخرفية - قمائش يكسو خوذة الفارس
Lambris	panelling(on wall)	كسوة من خشب - تلييسة
Lancéole	lanceolate	سناني - رمحى الشكل
Lanterne	lantern	فانار
Lanterneau	skylight	قبببة (فانوس صغير في أعلى القبة)
Latéral	lateral	حافة - جانبي

Limbe	border	حاشية زخرفية تحيط بالرسم
Linceul	sheet-shroud	كفن - وشاح
Linéaire	linear	مؤلف من خطوط - خطي
Linteau	lintel	أعلى الباب الذى يقابل العتبة - الأسكفة
Loggia	loggia	مقصورة صغيرة بلا أعمدة - مقعد
Logis	house	مسكن
Losange	lozenge	مُعين
Luminaire	light candle	جهاز إضاءة
- M -		
Margelle	curb(stone)	فوهة البئر - كتلة من الحجر
Marqueterie	marquetry	ترصيع
Marqueteur	in layer	مرصع - ملبس
Massif	bulky	كتلة ضخمة
Méandre	meander-winding	متعرجة
Médailion	medallion	رصيعة - حلقة بيضاوية
Menu de monnaie		عملة نحاسية (قليلة القيمة)
Méplat	flat	مستوى - مسطح
Merlons	merlon	متراسان فى حصن - شرافة
Métamorphose	transformation	مسخ - تحول
Mirador	post of observation	مرقب
Mitre	mitre	تاج أسقف
Modèle	relief	تجسيم - نموذج
Modillon	modillion	مسند بارز فى جدار يحمل الطنف
Moellon	roughstone-rubble	دبش
Moellon d'appareil	ashlar	مبنى مشيد من حجارة مربعة أو منحوتة
monochrome	monochrome	أحادى اللون
Montant	post of door-rising	دعامة
Mortier	mortar	ملاط
Moule	moulded	مقولب
Mozarabe		مستعرب(نصارى الأندلس الذين خضعوا لحكم العرب)
Mudéjar		مدجن
Multilobe	multilobed	متعدد الفصوص
- N -		
Narthex	narthex	مجاز يؤدى إلى صحن الكنيسة
Nef	nave-aisle	جناح أو بائكة
Nef axiale	axial line	جناح رئيسي
Nef transversale	transversal nave	جناح مستعرض - بائكة مستعرضة

Nervure	moulding ribs	ضلع أو مضع
Nimbe	nimbus meteor	محاط بهالة (إكليل شعاعى للقدسين)
Noyau	nevel	مركز - محور
- O -		
Ablongue	ablong	مستطيل
Oblique	oblique	منحن - مائل
Ogive	pointed arch	قوس قوطية
Ombrage	shade-umbrage	ظل
Opodytérium		قاعة الاسترخاء فى الحمام
Oraison	prayer -funeral oration	عقد حاد مذهب
Oratoire	oratory	زاوية الصلاة
Ossature	frame (of build)	هيكل
- P -		
en Pise	blocs of clay	تراب مذكوك - أجر
Palme	palm	جريدة - سعف النخل
Pampre	vine-branch	زينة بشكل عنقود عنب
Pan	angular	هدب
Panse	paunch	جوف - بطن
Parallélipède	parallelepiped	متوازي المستطيلات
Parchemin	parchment	رق
Parvis	parvis-square	بهو معمد
Passementerie	trimming	شريط زينى مجنول - خردوات
Patine	patina (of bronze)	أكسيد البرونز
Pavage	paving	رصف - بلط
Pavillon	pavilion	مقصورة - سرادق
Pendentif	pendentive	مثلث كروي
Périmètre	perimeter	محيط الدائرة
Péristyles	peristyle	بهو معمد
Perpendiculaire	perpendicular	متعامد - عمودي
Perron	flight of steps	درج - مدخل
Pichet	pitche jug	إبريق يكال به الخمر
Pièce d'eau	sheet of water	مستنقع صغير - حوض صغير
Piédroit de taille	freestone	حجر قابل للقطع
Piédroit d'appareil	course of large stones	ترتيب الحجارة فى الجدار
Pile	pile	منق من الحجر
Pinacle	pinnacle	تاج الركيزة
Placage	plating (metal work)	تصفيح

Plaine	plain	سهل - أرض منبسطة
plate-forme	plat	منبسط الدرج
Plâtre moulé	plaster molded	مقوالب جص
Plein cintre	semi circular arch	عقد كامل
Pointue	pointed	مدبب
Polychrome	polychrome	متعدد الألوان
Polygonal	polygonal	مضلع القاعدة
Polylobée	polylobed	عقود على هيئة فصوص
Porche	porch	مدخل مسقوف للمبنى
Portail	portal	منخل فخم - بوابة
Portique	portico	رواق مسقوف بعقود على أعمدة - مجاز صحن الكنيسة
Poutre	beam	رافدة - عارضة
Poutrelle	small beam	قطعة من الخشب - رافدة
Prismatique	prismatic	ألوان طفيفة
Prisme	prism	موشوري
Profil	side-face	مقطع جانبي للشخص
Prototype	prototype	النموذج الأولي
Pseudo	false	خادع
Pyxide	pyxis	علبة مجوهرات
-Q-		
Quadalquivir		وادي العير بإسبانيا
Quadrangulaire	quadrangular	مربع الزوايا
Quadrillage	quadrangular	تخطيط على مربعات - تربيعة
Quadrilobe	quadrilobate	ذو فصوص رباعية
Quadrupède	quadruped	رباعي
-R-		
Rampe en hélice	spiral staircase	درابزين حلزوني
Récticurviligne	curvilinear	خطوط منحنية الأضلاع
Réctiligne	straight line	زاوية مستقيمة الضلعين
Redan	skeback	جدار بارز في سور حصن
Réfectoire	refectory	قاعة طعام
Refonte	recasting	إعادة سبك
Relief	relief	ذو نتوء
Relique	relic	رفات الطرق
Reliure	book binding	تجليد
Renforcement	recess-cavity	تجويف
Rentrant	re-entrant	زاوية متجهة إلى الداخل أو معكوسة

Repoussé	embossed	فن الطرق
Ressaut	projection	بروز
Réticule	reticulate	ذو عروق والياف متشابكة - شبكى الشكل
Retombée	spring of an arch	مداميك العقد
Rondin	round billet	جذع صنوبر مقشور
Rosace	rose-window	الوريدة النجمية

- T -

en Tréllis		سقف بالقرميد
le Tigre		نهر دجلة
Tailloir	abacus	عصابة أعلى التاج
Tambour	drum	الأسطوانة الرافعة
Tangente	tangential	مماس
Temonos		مساحة مقدسة (كلمة يونانية)
Tirant	tie-beam	خشب التثبيت
Ton plat		درجة لون باهت
Torsade	twisted fringe	جديلة زخرفية
Tourelle	turret	برج صغير
Tracé	outline	تخطيط - رسم
Transept	transept	جناح مصالب (فى الكنيسة)
Transversal	transversal	مستعرض
Travée	bay	مسافة بين ضلعين - فتحة
Traverse	transom	عارضة
Tréflé	trefoil	زخرفة على هيئة ورقة نغلية - نغلية
Tréllis	trellis	كتان - دقران
Tresse	strap-work	جديلة - صغيرة
Tribune	tribune	منبر - منصة
Trimeau	pier	دعامة الساكف
Trompe	squinch	قوس - عقد الزاوية
Trompillon	small pendentive	مثلثات كروية صغيرة - عقيد الزاوية
Tronconique	truncated segment	جذع العمود
Tuile	tile	قرميد
Tympan	spandrel-tympanum	لوحة الجبهة

- S -

Saillie	to stand out	نتوء
Saragosse		مدينة سرقسطة (إسبانيا)
Sculpté	sculpture	نحت - نقش
Seau à anse		دلو ذو مقبض أو عروة

Serpentiforme	serpentine	شكل متعرج
Séville		إشبيلية بإسبانيا
Soubassement	stylobate	قاعدة بناء
Strié	striped	محزوز
Surabaque	abacus	طبلية التاج
Surbaissé	surbase	منخفض
Surbaissé (voûte) flatten (vault)		قبو موتور
Svelte	svelte	رقيق
Symétrique	symmetrical	تمائل - تماثل
- V -		
Vaisseau	nave (of church) or hall of building	فراغ مسقوف
Vanne	gate	بوابة للتحكم
Vantail	leaf of door	مصراع
Vasque	basin of (fountain)	فسقية
Verre moulé	pressed glass	زجاج مقولب - زجاج مصنوع في قالب
Vert céladon	willow green	أخضر فاتح
Vestibule	entrance	مدخل - دهليز - بهو - ردهة
Vigo		فيجو (بإسبانيا)
Voûte en plein cintre	semicircular vault	قبو شبه دائري
Voussure	curve of arch and vault	حنية العقد
Voûte	vault	قبو
Voûte cintre	arched vault, curved	قبو مقوس
Voûte d'arête	arris-groined vault	قبو بارز
Voûte en berceau	barrel	قبو برميل أسطواني
Voûte en cloître	cloister	قبو معمد مسقوف
- U -		
Uniforme	uniform	متماثل
- Z -		
Zélateur	zealous	حماسي
Zoomorphes zoomorphic		حيواني الشكل

المؤلف فى سطور:

جورج مارسىيه:

هو عضو بالمجمع اللغوى وعلوم الآداب الفرنسى، وأستاذ للآثار الإسلامية بكلية الآداب بجامعة الجزائر، ثم مدير لمعهد الدراسات الشرقية بالجزائر، ومدير للمتحف القومى الجزائرى للآثار والفنون الإسلامية، كما حصل على العديد من الألقاب الأخرى خلال عمله هناك.

ولد جورج مارسىيه بمدينة Rennes بفرنسا فى مارس سنة (١٨٧٦) ودرس الفنون فى كلية الفنون الجميلة، وفى سنة (١٩٠٢) بدأ دراسته فى التاريخ والجغرافيا، وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه بجامعة Rennes، بدأ مشواره العملى فى هذا الميدان الأثرى والفنى الإسلامى الذى عشقه بالجزائر.

وهكذا تولدت عند جورج مارسىيه الرغبة فى التعرف على أبعاد الفن الإسلامى، وأهمية الرجوع إلى أصوله؛ مما حثه على تعلم اللغة العربية وإتقانها حتى يتمكن من الغوص فى مكنون ودلالة هذا الفن العظيم.

وقد بدأ أول أعماله مع أخيه ولیم، وألفا كتابًا عن الآثار العربية بتلمسان سنة (١٩٠٣):

Les Monuments Arabes de Tlemcen, (1903)

ثم الموجز فى الآثار الإسلامية:

Manuel d'Art Musulman, Tunisie, Algérie Auguste Picard 1927

وتاريخ العرب في بلاد البرابرة من القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر (١٩١٤):

Histoire des Arabes dans les pays des Berbères; 2 Vol
Sorbonne- (1914)

ثم الأطلس التاريخى والجغرافى والاقتصادى (١٩٣٤):

Atlas Historique, Géographique, et Economique (1934)

الفن الإسلامى، طابعه وأساليبه وتقنياته الفنية:

l'Art de l'Islam, in coll, Arts styles et techniques.

- عاش هذا العالم الجليل حياة علمية وفنية زاخرة، وقد ترك لنا الباب مفتوحًا لكل من يريد أن يزد ويستزيد من الفن والعمارة الإسلامية.
- توفى الأستاذ جورج مارسىيه فى مايو سنة (١٩٦٢) بالقرب من باريس.

المترجمة فى سطور:

عبلة عبد الرازق على:

حاصلة على ليسانس آداب، قسم الآثار المصرية، جامعة القاهرة، سنة
(١٩٧٤)، حاصلة على ماجستير من جامعة السوربون بفرنسا فى الحضارة
الإسلامية (عن المدارس فى عصر المماليك البحرية فى مصر).

المراجع فى سطور:

عاطف عبد السلام عوض الله:

- دكتوراه فى الآثار - جامعة السوربون باريس - عام (١٩٨٥).
- عميد كلية الآداب الأسبق فى جامعة حلوان.
- حائز على وسام فارس الأكاديمى من سفارة فرنسا عام (٢٠٠٦).
- رئيس قسم الآثار والإرشاد السياحى - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

التصحيح اللغوي: معتر العجمي

الإشراف الفني: حسن كامل

